وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الحاج لخضر - باتنة -
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فـــن التراجم في الأدب الأندلسي
في القرنين الرابــــع والخامــس الهجرييــــن

قسم اللغة العربية وآدابها مذكرة تخرج لنيل درجة
الماجستيـر فـي الأدب الأندلســـي

إعداد الطالبـة:
زبيدة بوطويل

إشراف الأستـاذ:
د/ محمد زرمان

لجنـــة المناقشـــة		
د/ مجمد بوحجام	جامعـة باتنـــة	رئيســــا
د/ محمد زرمان	جامعـة باتنـــة	مشـرفا مقررا
د/ محمد حجازي	جامعـة باتنـــة	عضـوا مناقشا
د/ العلوي المكي	جامعـة أم البواقـي	عضـوا مناقشا

السنـــة الجامعيـــة:
1428-1429هـ
2007-.2008م


« إن لم أحترق أنــــا

وتحترق أنـــت

ونحترق نحـــن

فمن ذا الـــذي

ينير الظلمـــات»



ناظم حكمت

الإهـــــداء:

أهدى ثمرة جهدي المتواضع إلى كل من علمني حرفا، و شجعني على المضي قدما في طريق طلب العلم، و الاجتهاد على رأسهم: الوالدين الكريمين أعزّهما الله و أبقاهما نورًا في حياتي و آخرتي.

إلى إخوتي الأعزاء.

و جميع أصدقائي و من أحبني.

زبيدة

مقدمة

أهمية الموضوع:

امتلكت الأندلس تراثا فكريا وحضاريا جعلها تسود العالم لمدة فاقت الثمانية قرون، واستمر أريجها يعبق حتى بعد سقوطها، فقد طور العلماء الأندلسيون الكثير من العلوم، وأبدعوا في أخرى منها فن كتابة التراجم، و الذي اعتنى به الأندلسيون بتدوين مآثر بلادهم وتاريخ رجالهم العظماء، ورصفها في كتب تنوعت فيها طرق التدوين ومناهج الكتابة، إلا أنها ظلت تصب في مجرى واحد رغبة منهم في إبراز الإمكانات الفكرية و الإبداع الأدبي الموجود في بلادهم النائية عن بلاد المشرق، وما يميز كتاباتهم عن كتابات الأدباء المشارقة لأن ظروف كلا القطرين تختلف عن بعضها سواء من الجانب السياسي أو التركيبة الاجتماعية وهو ما انعكس في أدبهم بجميع تفاصيله، فموضوع كتابة التراجم بالأندلس يحمل أهمية قصوى تحتم على الجميع البحث فيه، و في خواصه و مميزاته، و حصر حدوده تاريخيا و فنيا، بخاصة منهم الباحثين العرب لتمكنهم من اللغة و خباياها، و امتلاكهم للروح العربية الصافية، و البعيدة عن كل تمييز قد يؤذي، و يؤثر سلبا على ما هو موجود من تراث.

و كلامنا عن أهمية الموضوع بهذا الشكل سببه السعي لحماية التراث الفكري العربي الأندلسي من المستشرقين، و المناوئين للحضارة العربية في جميع أبعادها، خوفا منها و من قوتها التي ستفتك بهم، و تهد كل ما بنوه إذا قامت من غفوتها.

فقد ترك لنا الكتّاب الأندلسيون القدماء مصنفات لا يمكن عدها، كما يعينا حصرها، لذا ارتأينا أن نحاول شق طريق في هذا الكم الهائل من المدونات لنعيد لها قيمتها و اعتبارها، و نذكر بها و بأصحابها، كي لا يذهب كل ما تركوه لنا هباء منثورا.

أسباب اختيار الموضوع:

يقودنا الحديث عن أهمية الموضوع إلى الأسباب التي دفعتني للبحث في موضوع فن التراجم بقطر الأندلس دول المشرق، و المغرب في الخمسة قرون الهجرية الأولى لتكون كيان الدولة العربية في الأندلس نذكر منها:

1- الانتشار الواسع لمثل تلك المصنفات، ما جعلها ظاهرة كبرى تستحق الدراسة، و البحث في أسباب ظهورها، و انتشارها بهذا الشكل الملفت للانتباه، خاصة في القرنين الرابع و الخامس الهجريين، أين نجد عدد المصنفات تجاوز المئات، و مس جميع ميادين العلوم، و الفنون، و أصبح يشكل جزء منها، فلا يمكنهم التخلي عنه أو إلغاؤه، فمن لا تاريخ له لا أصل له، و يمكن اقتلاعه بسهولة، و إنّ كان ناجحا.

2- يعتبر فن التراجم في الأندلس، موضوعا جديدا، و مغريا للبحث، و التنقيب في خباياه، و الغوص في مكنوناته، فقلة اهتمام الدارسين بالفنون النثرية في الأدب الأندلسي، جعل موضوع التراجم يزداد ابتعادا عن حقل الدراسة و البحث، فأكثر ما درس في الأدب الأندلسي شعره، و أما نثره فقد درست منه المقامات، و الرسائل بأنواعها، و نالت حظها من البحث و التأليف، كما أن قلة المراجع، و صعوبة الوصول

إليها جعلت الباحثين يبتعدون عنه، فلم أعثر قط على دراسة أكاديمية تناول الموضوع أثناء بحثي.

3- أن تبدأ من الصفر أمر صعب، لكنه ليس أمرا مستحيلا لذا حاولت من خلال دراستي هذه، وضع مدونة تساهم في إثراء المكتبة الأندلسية الكبيرة، و التي تفتقر لهذا النوع من الدراسات في فن التراجم و إحياء للتراث العربي، و افتخارا بأمجاد الكتّاب، و المؤرخين في بر الأندلس، و اعترافا لهم بحسن صنيعهم و ردا منا لجميلهم.

4- أما دافعي الخاص فرغبتي الدائمة للبحث، و الإطلاع على جميع ما يخص الحضارة العربية في الأندلس، و تسليط الضوء على الجوانب المظلمة في تراثها، و أدبها خاصة الفنون النثرية منها، و فن التراجم عنصرا من الفنون النثرية الأندلسية، كما أنني عثرت أثناء بحثي على دراسة تناولت فن التراجم في المغرب أثناء فترة القرون الهجرية الخمسة الأولى فوددت أن تكون متممة لها، و كأنها دراسة واحدة بشقين.

الإشكالية:

يطرح موضوع الدراسة عدة إشكالات تخص فن التراجم في الأندلس، و تحاول الوصول إلى كنهه، و استجلاء المعالم التي تميزه عن فن التراجم في المشرق العربي، و المغرب، و الأهداف المقصودة من تشييد صرح فن التراجم في الأندلس، و الاعتناء به، و جاءت الإشكالات على النحو الآتي:

- كيف عرف الأندلسيون فن كتابة التراجم؟ و هل استطاعوا التمييز بينها و بين الفنون الأخرى؟

هل عد فن التراجم في الأندلس ظاهرة بالفعل؟

-إذا كان الأمر كذلك، فما هي الأسباب التي دفعتهم للخوض فيها؟ هل تمكنوا من الإجادة في فن التراجم؟ هل لمؤلفاتهم و مصنفاتهم ما يميزها عما هو موجود في المشرق و المغرب؟

-ما طبيعة المناهج التي كتب على أساسها الأندلسيون؟ ما الأنواع البيوغرافية التي عرفوها؟

ما مواصفات التراجم الأندلسية؟ و إلى أي مدى يعكس كتاب "الجذوة" للحميدي و كتاب" قلائد العقيان في محاسن الأعيان " لابن خاقان تطور فن التراجم في الأندلس؟

-هل نستطيع الجزم بأن الأندلسيين أبدعوا في كتاباتهم؟ أم أنها مجرد صورة لما هو موجود في المشرق؟

سنتعرف على إجابات الإشكالات المطروحة في المذكرة من خلال بحثنا في ماهية المصطلحات، و تاريخ فن التراجم في الأندلس على مدى الخمسة قرون الأولى الهجرية للحكم الإسلامي في الغرب، كما أن هذه الإشكالات تعد رئيسة، و تعنى بالكليات ; لأننا سنجد أثناء السير في عملية التحليل و الدراسة عدة إشكالات تفصيلية

تخص جزيئات البحث، و محاولة النظر بشكل تطبيقي على كتابي الجذوة و القلائد لنؤيد به أهداف و غايات البحث.

الدراسات السابقة في الموضوع:

تحتاج أي دراسة إلى مرتكزات تقوم عليها، و تنطلق منها لتكمل الجوانب التي لم تبحث في الموضوع، و عندما بدأنا البحث في فن التراجم بالأندلس، لم نجد أي مؤلفات سابقة تتكلم بشكل واضح عن الموضوع، و خصوصياته، باستثناء كتاب علي بن محمد، الموسوم ب"ابن بسام و كتاب الذخيرة"، و هو أطروحة دكتوراه قدمها في جامعة الجزائر، و طبعت لأول مرة سنة 1989، من طرف المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع، فلربما وجدت مصنفات، و بحوث تصب في نفس القالب إلا أنها لم تنته إلي.

مضمون البحث:

جاء البحث مقسما إلى أربعة فصول، فصلين نظريين، و فصلين تطبيقيين فرضتهما طبيعة الدراسة، مفتتحة بمقدمة، و تقفوها خاتمة:

الفصل الأول: تضمن الحديث عن فن الترجمة مقاربة اصطلاحية، حددنا فيها مفهومه لغة و اصطلاحا، ثم تحولنا للتعريف بالظاهرة في بلاد المشرق،و أشهر المصنفات التي وجدت في هذا الفن، و أشهر كتّابها، لنصل بعد المشرق إلى بلاد المغرب باعتبار العلاقة القائمة في الوطن العربي إذ لا يمكن المرور على الأندلس قبل الحديث عن المغرب، و بحثنا فيها أسباب كتابة فن التراجم بالقطر، و المصنفات التي وضعت فيه، و أشهر من كتب في هذا الفن لديهم، و استخلاص أهم المناهج التي كتبت على أساسها جميع مصنفاتهم.

الفصل الثاني: تطرقت فيه لفن الترجمة في الأندلس كظاهرة، مستقصية الأسباب، و الدوافع التي جعلتهم يعتنون بهذا النوع من الكتابة النثرية، و يحاولون تطويرها من جميع الجوانب حتى عدت ظاهرة واسعة الانتشار و تستحق الدراسة، لتبيين القيم السامية التي سعى الكتاب الأندلسيون لإبرازها من خلال مصنفاتهم، و استخلاص أهم الخصائص المميزة للكتابات الأندلسية على ما عداها، ممهدة لكل ذلك بمقدمة تاريخية تبين الوضع السياسي، و الاجتماعي في الأندلس، لنرى مدى تأثيره على الجانب الأدبي و الفكري.

الفصل الثالث: قمت بتطبيقات أولية على الكتاب الموسوم ب"جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس" للحميدي، مستعرضة الترجمة الخاصة بالمؤلف، و دراسة بيوغرافية للكتاب، و محتواه مستخرجة أهم عناصر الترجمات الموجودة في الكتاب، و الذي دفع المؤلف لاختيارها و التركيز عليها، محاولين الوصول إلى المناطق التي تبرز تفوق الأندلسيين، ونضج الترجمة لديهم من خلال الكتاب، على اعتباره من أنضج المؤلفات، و جاء في عصر التوهج الفكري للحضارة العربية في الأندلس، و مدى تأثيره في المؤلفين الآخرين من مشارقة أو أندلسيين.

الفصل الرابع: حاولت أن ألمس جوانب أخرى من الحضارة الأندلسية من خلال كتاب "قلائد العقيان في محاسن الأعيان" لابن خاقان لأجل توسيع مجال الرؤية لهذا الفن، و مصنفاته، و كتّابه، فبحثت عن الجوانب الفنية، و التاريخية، و الحضارية.

الخاتمة: وضعت فيها عصارة جهدي، و أهم النتائج التي خرجت بها من البحث في فن التراجم بالأندلس تاريخيا و فنيا.

المنهج:

يمتلك العديد كما هائلا من المعلومات، لكن القليلين هم الذين يستطيعون إيصالها إلى المتلقي بأسهل الطرق، و أقصر الأزمنة، لسبب بسيط جدا، هو أنهم يمتلكون المنهج لإقامة تواصل بينهم و بين المتلقي لأجل أن يقدر على استيعاب المعلومة بترتيب، ووضوح، و منطقية، فالمنهج هو الحد الفاصل بين النظام و الفوضى، و لأهمية المنهج و ضرورته في الدراسة فإننا عندما نأخذ أي كتاب أول ما نبحث فيه عن المنهج لنعرف كيف نبدؤه و إلى أين نريد الوصول من خلاله.

و قد حددت لنفسي مجموعة من المناهج أسير عليها، فرضتها طبيعة الموضوع، و طريقة البحث، و هي بالترتيب على أساس حضورها في البحث:

- **المنهج التاريخي:** استعنت به في تقصي الحقائق التاريخية التي تخص الظاهرة محل الدراسة، و التواريخ المتعلقة بها، و تراجم الشخصيات، و أشهر الأحداث في الفصل الأخير من خلال السمة التاريخية.

- **المنهج الوصفي التحليلي:** و تجسد في جميع عناصر البحث أين تكلمنا عنها، و حاولنا التفصيل، و تحليل جزيئاتها، و يعد أكثر حضورا في الفصل الثالث عندما طبقنا على مدونة الحميدي الجذوة.

- **المنهج الفني:** لا يمكن القيام بأي دراسة في مجال الأدب دون المرور على المنهج الفني، ووظف في البحث للسعي وراء المقومات الفنية للكتابة في فن التراجم بالأندلس، و تحليل بعض النماذج الشعرية، و التعليق عليها في الفصل الرابع بالتحديد.

- **المنهج النفسي:** سار في مجموعة التراجم التي تعرضنا للكلام عنها، و عن أصحابها، و ترصد التغيرات التي أصابتهم، و الاضطرابات التي كان يعاني منها آخرون أمثال الفتح بن خاقان.

مصادر البحث:

تعد مصادر البحث الأكثر توفرا على عكس الدراسات السابقة التي لا توجد، و لذا كان أكثر تعويلي عليها و من أشهرها: "بغية الملتمس" للضبي، "الذخيرة" لابن بسام، "جذوة المقتبس" للحميدي، "قلائد العقيان في محاسن الأعيان" للفتح بن خاقان ، "أنموذج الزمان لشعراء القيروان" لابن رشيق المسيلي، "تاريخ العلماء و الرواة للعلم بالأندلس" لابن الفرضي، "و المغرب في حلي المغرب" لابن سعيد.

الصعوبات:

لا يخلو مجال البحث في أي ميدان من بعض الصعوبات، و العراقيل التي تواجه الباحث، و تحاول الحط من عزيمته، و تغيير مساره عن هدفه، و الباحث الحقيقي هو الذي يتمكن من تجاوز كل العراقيل، والحواجز ليصل إلى مبتغاه، و يحقق طموحاته، فلا تأخذ المطالب بالتمني و إنما تأخذ بالسعي، و المثابرة، والاجتهاد، و كغيري فقد واجهتني مجموعة من الصعوبات لا تخصني لذاتي فقط، إنما عاش أكثرها الجميع منها:

- ندرة المراجع التي تتناول موضوع البحث، فما توفر لدي من المصادر كان أكثر، و الخوض فيها أمر صعب جدا ; إذا لم يكن الدارس يمتلك إجراءات أو معارف قبلية تساعده على ذلك.

- التشابك الكبير الموجود بين المشارقة، و المغاربة، و الأندلسيين في الموضوع يحتم علينا استحضار الكثير من التركيز، و التدقيق لأجل التمييز بينها، و الوصول لمدى أندلسية التراجم.

- تعذر علينا استخراج التراجم الأدبية محل الدراسة من المدونات، و المصنفات العامة التي تحوي أصحاب العلوم المتنوعة، و المختلفة.

- ضياع قسم كبير من المصادر الأندلسية، و البواكير خاصة صعب علينا استجلاء الملامح الدقيقة لظاهرة التراجم في الأندلس في القرون الثلاثة الأولى الهجرية.

لم تستطع جميع هذه العراقيل، و الصعوبات الحدّ من إصراري على مواصلة البحث في هذا الموضوع الشائك، و استخراج ما استطعت من جواهره النفيسة، و معدنه الأصيل فقد بذلت كل جهدي، و ما أمتلك من صبر ، و يعود الفضل- بعد الله عز و جل- إلى الأستاذ الفاضل الدكتور محمد زرمان، الذي رافقني في هذا البحث موجها و دليلا، و ناضجا، و مدعما بالمعلومة و الكتاب، فله مني فائق التقدير و الاحترام، و الشكر الجزيل، و خالص عبارات الامتنان و العرفان بالجميل.

ينمي الشكر النعمة و يبارك فيها، لذا لا يفوتني من موقعي هذا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدني ووقف إلى جانبي من قريب أو بعيد، سواء بالنصيحة و الدعم، أو حتى بالكلمة الطيبة، شكرا لكم جميعا لتقديم المساعدة لي من أجل إنجاز هذه المذكرة المتواضعة، على الله توكلنا و هو خير حليف و موفق، نسأله النجاح و التوفيق إنه لا خاب من استجار به، إنه سميع الدعاء.

الفصل الأول

الترجمة مفهوم و تاريخ

أولا: مفهوم التراجم.
ثانيا: أنواع التراجم.
ثالثا: فن التراجم عند العرب حتى القرنين 4 و 5 هـ.

أولا: مفهوم التراجم:

كانت الأندلس ينبوعا متفجرا من العلوم، وحاضرة دين، وبستان خواطر ضم كبار الأدباء والشعراء، نشأت على أيديهم التأليفات الغزيرة والمصنفات النادرة المؤرخة لقوة هذا الإقليم على مدى تسعة قرون ضاهى حاضره (بغداد/ المشرق) بما أنجبت من عباقرة وطاقات خلاقة، كسرت حاجز العجز في النفسية الأندلسية، جعلت منها قطبا علميا، ومناخا فكريا جذب إليها العلماء من كل حدب وصوب، لهدف تحصيل المعارف والعلوم المختلفة.

ساوى الصلت أمية بن عبد العزيز الداني جريرا والفرزدق وتفوق عليهما، والنماذج من هذا النوع كثيرة ومتنوعة على هذه الفترة الطويلة وبغية التتلمذ والتبحر في العلوم شدوا رحالهم إلى المشرق، لتنطلق بعد ذلك تمشي وحدها.

وجاء فطام الدولة الأندلسية عن أمها المشرق واضحا وجليا في عدة مجالات بخاصة منها كتب التراجم التي أرخت لعلماء الأندلس وغير الأندلسيين، فاهتمامهم بالتاريخ وتدوينه لم يكن محض صدفة أو تجربة عابرة لمعرفة ظاهرة عابرة، بل جاء نتيجة بحث واستقصاء داخل موروثهم الحضاري الضارب في القدم وما ورد في الموروث الحضاري للشعوب القديمة المجاورة لهم أو البعيدة عنهم، فأخذوا في جلب ونقل ما يحتاجونه من مدونات ومصنفات تخدم الحضارة العربية الناشئة آنذاك، وتوافق أعرافها وتقاليدها، مبتعدين عن كل ما يسيء لهم ولثقافتهم ومن أشهر المصنفات التي نقلت للغة العربية واهتمت بهذا الفن - التراجم – كتاب سوتنيوس (*) ويحمل عنوان "حياة الاثني عشر إمبراطورا " في الحضارة الرومانية وكتاب جالينوس (**) "مراتب قراءة كتبه" وتحدث فيه عن حياته وجوانب من الحضارة اليونانية ورجالها وكان من أشهر كتاب فن التاريخ في الحضارة اليونانية، وقبيل طرق أي باب لاستجلاء ملامح وحدود الظاهرة في قطر الأندلس كان لا بد من التعرف على كينونة المصطلح أولا.

1) الترجمة لغة:

جاء في العديد من التراجم اللغوية القديمة لفظة ترجمة بمعنى التفسير والجلاء، وردت في لسان العرب في مادة ترجم **« التُرْجُمَانُ و التُرْجَمَانُ ؛ المفسر للسان، و التُرْجُمَانُ بالضم والفتح: هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى لغة أخرى، والجمع التَّرَاجِمُ التاء والنون زائدتان، وقد ترجمه وترجم عنه، قال ابن جني: أما التُرْجُمَانُ فقد حكيت في تُرْجُمَانُ بضم أوله، ومثاله، فُعْلُلاَنُ كعُتْرُفَانُ ودُحْمُسَانُ ...»[1].**

(*) - suetonious كايوس ترانكليس) (69-125): مؤرخ روماني تولى ملفات إمبراطورية في عهد أدريانس انصرف بعد إقصائه إلى كتابة التاريخ (ينظر نخبة من المؤلفين المنجد في اللغة والأعلام ، ص 373.)

(**) - Galênos (131-201): طبيب يوناني له اكتشافات مهمة في التشريح من أكبر مراجع الأطباء العرب، (المرجع نفسه، ص 206).

(1) - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي)، لسان العرب، مج 1، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص 630، 711.

تعريف لفظة ترجمة في قاموس لسان العرب تراوحت بين ضم أول الكلمة وفتحها مع اتفاقها في نفس الوزن ذلك شأن الألفاظ المعجمة التي عربت ودخلت القواميس العربية، لتصبح ذات كيان يحمل الثقافة التي دخلتها وبقائه يعبر على نفس المدلول الذي كان في اللغة الأصلية المنقول منها.

وذكره صاحب تاج العروس في جواهر القاموس في فصل التاء مع الميم **« جاء في باب (ر.ج.م) مع أن أبا حيان صرح بأن وزنه تُفْعُلانْ، ويؤيده قول ابن قتيبة في أدب الكاتب أن الترجمة تَفْعَلَةٌ من الرجم، وقد وقع الخلاف هل هو من الرجم بالحجارة؛ لأن المتكلم رمى به ؟ أو من الرجم بالغيب؛ لأن المترجم يتوصل لذلك به، قولان لا تنافي بينهما »[2].**

وأورد الزبيدي لفظة ترجمة دون أصلة التاء فيها لأنها من الرجم، والخلاف المطروح غير مؤسس لأنهما يشتركان في هدف إيصال الكلام أو الرسالة الموجهة وجهة معينة.

تحدث عنه أيضا الفيروز أبادي في" المعجم المحيط" بنفس المعنى في لسان العرب: **« المفسر للسان، وقد ترجمه وترجم عنه، والفعل يدل على أصلة التاء »[3].**

سار الفيروز أبادي على مسار لسان العرب في إثبات نفس المعنى غير أنه أكد أصلة التاء في لفظة ترجم وليس زيادتها.

من المهم جدًا بعد ولوج المعاجم اللغوية الكبرى في التراث العلمي العربي الإشارة بأننا لا نقصد في تقصي لفظة ترجمة المعنى المراد به نقل الكلام من لغة إلى أخرى، ويقابله المصطلح الغربي Traduction فهو فن مستقل بدوره عن الأول، له قواعده وتقنياته وفنياته، تجعله مميزا وفعالا في الحياة الأدبية والفكرية وغيرها، ولكننا نقصد المعنى الذي يحيل إلى توضيح الشيء الغامض وإخراجه من دائرة المجهول إلى دائرة المعلوم والذي يوصلنا بدوره إلى رسم ملامح المعنى المرجو وتحديد حدوده وهو المعنى الأساسي المناسب لتوجه البحث الهادف لاستقراء التاريخ وتسليط الضوء على أهم أعلامه وشخصياته.

2) الترجمة اصطلاحا:

الترجمة مفرد جمعه تراجم وهو ذلك الفن الأدبي الذي يؤرخ لحياة الأشخاص، وأعمالهم وإنجازاتهم ورحلاتهم وغيرها من الأمور الحياتية والفكرية، حفظا لها من الاندثار، سمي أيضا بتراجم الرجال،وقد عرف الكثير من رجالات الأدب وأصحاب الأقلام الذهبية هذا النوع الأدبي منهم محمد عبد الغني حسن الذي يعرفه بقوله: **« ذلك النوع من الأنواع الأدبية، الذي يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر تعريفا يطول أو يقصر ويتعمق أو يبتعد على السطح، تبعا لحالة العصر الذي كتبت فيه الترجمة وتبعا**

---

(2) - الزبيدي (محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسني، الواسطي الزبيدي الحنفي)، تاج العروس في جواهر القاموس، تح: علي بشرى، مج 1، دار الفكر، دمشق، ص 125.

(3) - الفيروز آبادي (مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي)، القاموس المحيط، مج 4 ، ط 1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1983، ص 83.

لثقافة المترجم... من مجموع المعارف والمعلومات، التي تجمعت لديه عن المترجم له»[4]

ويعرفها أيضا عز الدين إسماعيل قائلا: **« ترجمة الحياة هي الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته والكشف عن عناصر العظمة فيها ...و جوانب الانحطاط – إن وجدت في الشخصية المترجم لها – فالترجمة في الواقع عملية تحليلية لكل مركب من عناصر كثيرة مختلفة هو شخصية ومن خلال هذا التحليل تبرز القيم الإنسانية التي تنطوي عليها هذه الشخصية والتي يهم الآخرين الإطلاع عليها »**[5]

يتبين لنا من خلال التعريفين السابقين لفن التراجم أنها قراءة لحياة شخصية متفردة استحوذت على مكانة مرموقة بين الناس ،وكانت لها قوى مغايرة ومؤسسة لحياته بدء بالمولد والنشأة والمشايخ والنبوغ والآثار، وغيرها حتى الممات، أو حتى اللحظة التي ترجم فيها له، إذا كان معاصرا لمن ترجم له بكل ما امتلكه من معلومات حوله والتعمق في بعض الأحيان في نفسيات وأحوال من ترجم لهم أو يصور موقفه الشخصي منهم، إذا فهي عملية تحليل وإعادة تكوين هذه الشخصيات شعرا ونثرا.

ولطالما اقترن مصطلح التراجم والسير في أكثر الدراسات والبحوث التي جعلتهما مصطلحا واحدا، فهناك من يقول أنهما غير متطابقان الشيء الذي يبعث فينا التساؤل: هل هذان المصطلحان فن أدبي واحد ؟ أم أن هناك اختلافات جوهرية بينهما تجعلهما جنسين أدبيين منفصلين ؟ إلا أن الإشكال لا يتوقف هنا فقط بل تجاوزه إلى مفهوم ثالث، يأخذ منهما الكثير ويعطيانه أكثر.

إن مصطلح التاريخ يجعل دائرة المفاهيم تتزاحم وتقل الرؤية داخلها مما يصعب علينا الحديث بصوت عال وجلي عن التراجم دون أن نتعثر لا بالسيرة ،ولا بالتاريخ. فلا غرو أن نستجلى ماهية المصطلحين اللاحقين بعد ما عرفنا المصطلح السابق التراجم.

يرى بعض الدارسين أن السيرة ترجمة طويلة تبلغ عدة صفحات أو مصنفا وحده مثل سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لابن إسحاق التي هذبها بعده ابن هشام، حكت سيرته العطرة من مولده إلى وفاته (صلى الله عليه وسلم) بأدق تفاصيلها وهذا ما يؤكده إحسان عباس في قوله: **«الأحداث البيولوجية الواقعة بين ولادة شخص وموته، من طفولته ونضج ... وقد يرتبط بالأحداث العامة المؤثر فيها أو المتأثر بها »**[6].

جعل مفهوم إحسان عباس السيرة بنتا شرعية للتاريخ تستقى منه موضوعاتها للكتابة، وتتكفل السيرة بطريقة التعبير، فتطول أو تقصر، أو ربما تتضاءل إلى جانب الإسناد وقد عبر عن هذه الفكرة بقوله: **« الحس التاريخي هو الأب المنجب للسيرة »**[7]

---

[4] - محمد عبد الغني حسن، فن التراجم والسير، ط 3، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص 9.
[5] - عز الدين إسماعيل، الأدب و فنونه دراسة و نقد، دار النشر المصرية، مصر (د.ت)، ص 244.
[6] - إحسان عباس، فن السيرة،ط 1 ،دار صادر،بيروت ،دار الشروق، عمان، 1996، ص 11-12.
[7] - المرجع نفسه، ص 9.

يجيء تعريف آخر للسيرة يدحض الأول أو يعيد رسم حدوده لعبد الله إبراهيم يقول: « **السيرة الروائية كتابة منهجية... والمقصود به التركيب الذي يستمد عناصره من مرجعيات معروفة وإعادة صوغها على وفق قواعد مغايرة في السيرة الروائية يدمج الخطاب بين الروائي والراوي** »[8].

يتجلى من تعريف عبد الله إبراهيم أن السيرة ربيبة للتاريخ لا بنتا شرعية له، فقوة العامل الفني المسير للكتابة التاريخية، تتسم بشحنات لا يخلو تأثيرها على الإنتاج الأدبي ولو اتسم بتاريخية كبيرة.

نجد أنفسنا من جديد في بؤرة صراع وتداخل بين المصطلحات التي نحن بصدد فهمها، بالنسبة للترجمة والسيرة هما فنان منفصلان عن بعضهما على الرغم من اشتراكهما في عدة نقاط ،من ذلك تناولهما الحياة والأشخاص الذين كانت لهم آثار كبرى أو كانوا متفردين في عصرهم أو قبلهم سواء أكانت آثارهم إيجابية للاقتداء بها كسيرة عمر بن عبد العزيز التي كتبها الكثيرون، أو سلبية لتجسيد القيم الأخلاقية كرادع ولكل من حاول الانزلاق عن الدرب السوي، فأبو حيان التوحيدي عندما كتب " مثالب الوزيرين " وتحدث فيه عن الصاحب بن عباد نجده متعلقا أكثر بباب الذم لما عليه من تحفزات اتجاه الرجل.وفيما يلي بعض الفروق الواضحة بين المصطلحين:

1- يركز الكاتب للترجمة على التفاصيل الدقيقة والأماكن والثياب مثلما نرى عند ابن سعد في طبقاته: حين يذكر الصحابي ومكانته، والمعركة والوفاة والثياب وألوانها وثمنها ونوعها والإسناد، وكيف قتل وأين قتل وأين دفن، وكيف دفن، ومن دفنه ومن صلى عليه إلى غير ذلك من الحقائق والتفاصيل الكفيلة برسم الصورة النهائية تماما لهذا الشخص.

2- تتسع السيرة وتكون أرحب مجالا من الترجمة في تعبيرها عن الشخصيات فيدخل أو يتعلق بها عدد من العلوم والفنون كالتاريخ والجغرافيا والرحلة بخاصة من حيث تحديد الأماكن والمدن التي زارها المترجم له، وماذا نقل عنها من أحاديث عن العمران السائد فيها ومواصفاتها، ومجالس أدبية وفكرية و تآليف لأشهر رجالات العلم في هذه البلاد كل هذا في الإطار الزمني التاريخي القريب أو البعيد، وأشهر أحداثه التي تعاقبت عليها وزعمائها من ذلك رحلة ابن جبير، التي نرى فيها تداخل هذه الفنون بدء من أنها تحكي سيرته في فترة معينة وليس كلها، وما وصفه من عمران في بلاد المغرب والشام والحجاز والعراق وأبرز من سادها علما وسلطانا، فأكثر فيها ذكر المدن والقرى والمعالم التاريخية وأسماء الأعلام مع أنها في الواقع تنتمي إلى فن الرحلة وهذا ما يؤكد اعتقادنا الأول بأن الفنون الأدبية تتداخل وتشترك مع بعضها كثيرا.

3- تعتمد الترجمة في ترتيبها الزمني التتابع في سرد الأحداث والمواقف على عكس السيرة التي يتقدم فيها حدث متأخر عن آخر قبله زمنيا أو ما يعرف بالاسترجاع لأن الترجمة أضيق مجالا وأكثر اختصارا من السيرة.

---

[8] - عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربية، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت- لبنان 2005، ص 6.

4- لا يكمن الفرق الجوهري بين السيرة والترجمة في الطول والقصر، فالأولى تكون رحبة الميدان كثيرة الصفات ومسرحا يبرز فيه الكاتب قدراته الفنية، وينقد الشخصية أحيانا ويبرز القضايا التي هو بصددها من خلال قوته في المحاجة، أما الثانية فمقتضبة ولا تتعدى صفحات وقد تكون سطرا أو سطرين ومن أشهر كتب التراجم التي يتجلى فيها هذا الرأي كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، الذي لم تتعد أكبر ترجمة له الصفحة، فيكتفي بذكر اسم المترجم له وشيخ أو شيخان من شيوخه وأشهر تأليف لدى المترجم له .

5- احتفظت السردية العربية بكلمة السيرة في السيرة الشعبية بينما غلبت عليها كلمة الترجمة كلما تعلقت بعلية القوم من حكام و شعراء و كتّاب، لكأن الترجمة اقترنت بالأدب الرسمي و السيرة اقترنت بالأدب الشعبي و نجد الترجمة استعملت بدلالتها على الحياة الموجزة للفرد، مقابل دلالة السيرة على التاريخ المسهب للفرد[9].

أما بالنسبة للترجمة والتاريخ فإن الأمور ربما تكون أكثر سهولة في الولوج إلى كنهه على عكس الأول بين الترجمة والسيرة، وكمفهوم لمصطلح التاريخ يقول قسطنطين رزيق: **« التاريخ فيما نرى هو السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه »**[10].

تسير الحياة كوحدة متكاملة فأينما وجدنا تغييرا أو تراكما داخلها فثمة مجال للتاريخ، فهو لا يرتد عن أي حقل معرفي ويطمح دائما للتغلغل فيها وتتبع مساراتها ورصد أحداثها وتغيراتها فلا غنى لأي إنسان عن التاريخ سواء كان هذا الإنسان عالما أو فنانا أو كاتبا، أو حتى إنسان عاديا.

عدت الترجمة قديما جزء من التاريخ باعتباره فنا وخصوصياتها خصوصياته، غير أن التطور العلمي والمعرفي في القرون السابقة جعل الحياة الفكرية تتسم بوضوح ومنهجية أكثر فالنظرة للتاريخ اختلفت عما كانت عليه وصار له فلسفة خالصة منحته التميز والانفصالية عن مجموعة من العلوم والفنون، ظلت لوقت طويل تعد جزءا منه والسيرة والترجمة أنموذجان من هاته الفنون قال إحسان عباس : **« تغيرت النظرة إلى التاريخ وأصبحت له فلسفة خاصة ...»**[11].

نستشف من قوله أن إحساس الإنسان بالتاريخ وارتباطه بالأرض يدفعه دائما لتخليد مآثره حتى ولو بالنقش على الحجر، فما بالك بأناس توفرت لديهم سبل التدوين - البلاد العربية -في القرنين الأول و الثاني الهجريين، وازدادت توسعا وانتشارا في القرون الثلاثة اللاحقة ليكتمل نصاب الخمس قرون الهجرية المرتبطة بالدراسة وسيأتي التفصيل في موضوعها لاحقا.

وخلاصة القول أن التاريخ منساب في شتى العلوم والترجمة منها، مرتبط بها ومتفاعل وإياها، غير أنها تمتاز عليه بالعاطفة والخيال والأسلوب الفني والأدبي، و

---

(9) - http:// www.AZZAMAN .com/ AZZ/ articles/ 2004/01/07 698.htm السردية السيرية نبيل سليمان.

(10) - قسطنطين رزيق، نحن والتاريخ، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، 1963، ص 49.

(11) - إحسان عباس، فن السيرة، ص 9.

يبتعد بمراحل عن أسلوب التاريخ ولغته الجافة، ولكن لا غنى لها عنه في طريقة التسجيل وتدوين الحقائق والترتيب، فتحولت العلاقة الجزئية بين الترجمة والتاريخ إلى علاقة تكاملية، أعطاها هو المنهج والطريقة والغاية بسيرها نحو المستقبل ليربط حاضرنا بماضينا، وأعطته الترجمة اللغة الأنيقة والعذبة وحققت له غايته ومبدأه بانصبابه على الماضي، لربطه بحاضرنا فيكون لنا مستقبل.

تجدر بنا الإشارة في الأخير إلى أنه سيصحبنا مصطلح السيرة للدلالة على الترجمة في القرنين الرابع والخامس الهجريين ذلك أن مصطلح الترجمة لم يكن متداولا آنذاك، فقد ظهر في القرن السادس في معجم البلدان لياقوت الحموي، ومصطلح ترجمة ليس عربي الأصل أخذه العرب المسلمون عن اللغة الآرامية من خلال اختلاطهم بالسريان والكنعانيين الذين عاشوا في الجاهلية والقرون الأولى للإسلام في شبه الجزيرة العربية يكتب في اللغة السريانية واللاتينية على النحو الآتي **« ترجم: traguem وترجمان: targmono»**[12].

[12] - رفائيل نخلة اليسوعي، غرائب اللغة العربية، ط 2 المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ، (د.ت) ص 175.

ثانيا: أنواع التراجم:

تتنازع التراجم اتجاهين كبيرين نتيجة لتعدد وتنوع الكتابة والتدوين، أولها يهتم بالتراجم الذاتية أو الشخصية، والاتجاه الثاني عكسه يهتم بالتراجم الموضوعية أو ما يسمى بالتراجم التاريخية وعادة ما تكون بضمير الغائب، وفيما يلي تحليل وتفصيل لكل اتجاه من الاتجاهين:

1- التراجم الذاتية Autobiography: يتحد فيها دائما المترجم والمترجم له على نفس الصفحة والترجمة والضمير الحاضر يكون عادة فيتحدث عن نفسه من مولده حتى لحظة الكتابة، مفرجا عن كروبه وهمومه مفضيا لنا بأسراره ومكنونات صدره، ويذكر إحسان عباس بأن: « **صاحبها يجب أن يخلق المرايا المجلوة وينظر إلى نفسه فيها وهي مكشوفة إذا كان يترجم لذاته ويتحدث عن سيرة حياته وليست الترجمة الذاتية حديثا ساذجا عن النفس ... ويستخرج الثقة الممنوحة له منا، خطوة إثر خطوة ... لتحقيق غاية كبيرة »[13].**

لا تأتي كتابة الترجمة الذاتية جزافا، أو يكتبها صاحبها لتصبح هباء منثورا إنما يكتبها لغايات تسوقها دوافع سواء للدفاع عن نفسه أو تعريفه بذاته لإزالة الالتباسات التي يمكن أن تحدث جراء مؤلفاته، ولتفهم من خلاله بدورها، أو بحثا منه عن الراحة النفسية، بإدلائه باعترافاته مثل جون جاك روسو، والمؤيد في الدين هبة الله ابن داود الشيرازي(ت 470 هـ**)**، فلم يذكر فيها حياته من المولد إلى أواخر حياته، بل اقتصر على مدة 21 سنة أي من 429 إلى 450 هـ وهذه أحفل فترات حياته نضجا ونشاطا بالنسبة له أما بالنسبة للدولة فهي من أحرج الفترات في الخلافة العباسية.

يبالغ أحيانا صاحب الترجمة في حديثه عن نفسه ويقص الحقيقة ويمزجها بالخيال خاصة إذا نسي بعض التفاصيل فيقع في انزلاقات كبرى، وبمقدار ما عبر عن ذاته بصراحة وجلاء، اكتسب اهتمامنا وتعاملنا مع أخطائه وهفواته كصديق لأنها رصد دقيق لتفاصيل حياة يراها صاحبها فينقلها لنا من الداخل إلى الخارج فهو أدرى بنفسه من غيره.

ترجم ابن رشيق لنفسه في كتاب أنموذج الزمان، تعرض لظروفه الحياتية بتفاصيلها وما أسعده وما حز في نفسه، فشد اهتمامنا واحترامنا وعد مصدرا هاما للتأريخ في الدراسات الأدبية الحديثة للأدب.

تتداخل الترجمة الذاتية مع أشكال تعبيرية أخرى من أهمها المذكرات واليوميات والمفكرات والرسائل[14]، وهذه ا لأشكال يمكنه أن يستخدمها في تدوين ترجمته الشخصية في حال نسي بعض التفاصيل من حياته، وتعتبر أقل انتشارا من الترجمات التاريخية (الموضوعية) التي غطت على غيرها تقريبا.

---

[13]- إحسان عباس، فن السيرة، ص 98-100.

[14]- ينظر: تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب، ط 1، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت -لبنان، 2002، ص 19-20.

2- التراجم الموضوعية أو الغيرية (Biography): قيام الكاتب بكتابة ترجمة حياة شخص آخر غيره يسمى هذا النوع بالترجمة الغيرية ، أو الترجمة التاريخية يؤرخ لحياة المترجم له، مولدا ونشأة حتى الوفاة، وذكر مكانته وارتباطه ببيئته مؤثرا ومتأثرا بها. يحضر فيها الضمير الغائب و تمتاز بالنقدية أكثر من الذاتية أي؛ أن المترجم أثناء بحثه في شخص هذا العلم يصدر أحكاما عليه، وآراء الآخرين فيه، تقول تهاني عبد الفتاح : **« السيرة الغيرية لا يمكن أن يتطابق فيها المبدع مع الشخصية الرئيسية... وفي كثير من الأحيان لا يستطيع كاتب السيرة الغيرية أن يصف أحاسيس شخصية وانفعالاتها »[15].**

مهما كان المترجم خبيرا ومتميزا في كتابة ترجماته إلا أنه لا يتعدى الرسم الخارجي للشخصية، أما الداخل فيحاول النبش للوصول إلى أكبر عمق ممكن راصدا ذلك من خلال إنتاج صاحب الترجمة ومن روى عنه والمصادر التي اعتمدها في ترجمته.

يزخر التاريخ الإسلامي بالكثير من كتب التراجم الغيرية التي أصبح حصرها أمرا مربكا للباحث عن أصولها الأولى، ومن أشهر التراجم الغيرية قديما سيرة عمر بن الخطاب، وسيرة أو ترجمة أحمد ابن حنبل، وترجمة عمر ابن عبد العزيز التي كتبها أبو الفرج الجوزي (**ت** 597هـ) والمقام لا يتسع لذكر كل كتب التراجم.

نجد الترجمة الذاتية تختلف عن الترجمة الغيرية في طريقة رسم الشخصيات، فكاتب الترجمة الذاتية يتعامل معها بحنو ورأفة، أما كاتب الترجمة الغيرية فأكثر صرامة، وتوجيها للنقد، تقول تهاني عبد الفتاح :**« كاتب السيرة الذاتية يصور لنا مادة منتزعة من ذاته، لذلك فإنه يتعامل معها بحنو وعطف، أما كاتب السيرة الغيرية فإنه يستقي مادته من العالم المحيط »[16].**

معنى هذا أن الإنسان مهما امتاز بالموضوعية والصدق فلا يمكنه التخلص من ذاتيته والتعاطف معها ونقدها انتقادا لاذعا يصل حد التجريح حتى وإن تحدث عن عيوبه في بعض المواطن فلأجل تبريرها والتغطية على أسباب حدوثها وليس الاعتراف بها لفتح مجال الحكم للقارئ.

تسير كلتا الترجمتين في طريقين مختلفين، فالترجمة الذاتية تنطلق من الداخل إلى الخارج، فالكاتب أصدق في التعبير عن دواخله من غيره، أما الترجمة الغيرية فتسير في الاتجاه المعاكس، من الخارج نحو الداخل متغلغلا إليها عن طريق التحليل والاستقراء الجيدين للمعطيات المتوفرة.

تكتب الترجمة الذاتية في أغلب الأحيان بصياغة فنية وأسلوب جيد وديباجة مشرقة أكثر من الترجمة الغيرية التي تميل إلى التاريخية أكثر، ذلك أن كتّاب التراجم الذاتية عادة ما يكونون أصحاب احترافية من أدباء وشعراء، أما كتّاب الترجمة الغيرية فجلهم مؤرخون.

---

(15)- المرجع نفسه، ص 19-20.

(16)- المرجع نفسه، ص 21.

تهمنا الترجمة الغيرية في هذه الدراسة أكثر من الترجمة الذاتية، التي تفرعت بدورها إلى عدة فروع مختلفة حسب طرق ومناهج تصنيفها ومن أشهر أنواع كتب التراجم الغيرية:

أ) كتب التراجم العامة[17]: تجمع هذه الكتب أحداثا تشمل العديد من الفترات الزمنية والمواضيع المختلفة فنجد فيها أصحاب الحديث مع أصحاب الشعر وأصحاب الإمارة مع أصحاب النحو وغيرهم تحمل في سماتها الكبرى مفهوم الدوائر المعرفية التي نتعامل بها في العصر الحديث، وتعتمد في ترتيبها عادة المنهج الحولي الذي اشتهر آنذاك، ومن أهم وأشهر المؤلفات التي وصفت بالتراجم العامة، كتب الوفيات: "وفيات الأعيان" لابن خلكان "والوافي بالوفيات" للصفدي، وأيضا نجد كتاب محمد بن جرير الطبري البغدادي.

ألف فريق آخر من المترجمين كتبا في التراجم العامة على أساس آخر غير الحوليات، فجمعوا مادتهم تحت عناوين موضوعات تتعلق بالحكم والعلماء والعائلات الحاكمة والرحالة والشعوب، والعهود، ومن أبرزهم المسعودي علي بن الحسين بكتابه " مروج الذهب ومعادن الجوهر" واختصره فيما بعد تحت عنوان " التنبيه والأشراف" وقسمها على أساس الخلفاء، وما حدث في عهد كل منهم من فتوحات ونكبات وفاة العلماء.

ب) كتب تراجم البلدان: اشتهر هذا النوع في القرنين الثالث والرابع الهجريين محاولة من المترجمين التخصص أكثر في تراجمهم، وسميت أيضا بالتواريخ المحلية وبرز فيها نوعان:

- كتب تهتم بالحديث عن طوبوغرافيا المدينة (خططها) وأهم أحداثها وأصحاب هذه الأحداث دون التركيز عليها لذلك لا نجدها سادت.

- و كتب صنفت على أساس المدن فتقدم لطوبوغرافية المدينة ثم تنطلق بعد ذلك في الترجمة لرجالها في كل الميادين، ومن ثم قدمت مادة غنية عن الحياة الثقافية والسياسية لهذه البلدان وحظيت مدينة بغداد بالكثير من التأليفات تعنى بتاريخها لكبر قيمتها وثقل وزنها كعاصمة للإمبراطورية العربية، وحب أهل العلم لها منها كتاب "بغداد " لأحمد بن طيفور، و "تاريخ بغداد " للخطيب البغدادي، وكتاب "معجم البلدان " لياقوت الحموي.

وخرجت بذلك كتب البلدان من التاريخ السياسي والعمراني إلى كتب تراجم الرجال والأدب الذي استفاد منها كثيرا.

ج) كتب التراجم حسب العصور: يقول العديد من الباحثين أن هذه الفكرة جاءت أول مرة مع كتاب "يتيمة الدهر " للثعالبي، صحيح أنه كتب لعصر معين ابتداء من الفترة التي سبقته بقليل حتى عهده إلا أننا نجد قبله كتاب مروج الذهب للمسعودي الذي أدخلناه في كتب التراجم العامة على أساس الموضوعات أما على أساس المنهج فهو مقسم حسب العصور من قبل الإسلام، ثم حياة الرسول (صلى

---

[17] – ينظر: طه عبد المقصود، الحضارة الإسلامية، مج 2 ، ط 7،مكتبة النهضة المصرية، مصر، 2004، ص 242-246.

الله عليه وسلم) فالخلافة الإسلامية، ثم بعدها العصر الأموي ثم العصر العباسي وسبقه بحوالي نصف قرن، ومن أمثلة ذلك كتاب "فتوح الشام " للواقدي وهذا الكتاب ترجم لفترة معينة، تمثلت في الفترة التي فتحت فيها الشام والترجمة لرجالها.

د) كتب التراجم حسب السنوات: اشتهر إلى جانب الأنواع الثلاثة الأولى وتداخل معها كثيرا باعتباره شكلا منهجيا في نظام الترجمة على أساس السنة يقول طه عبد المقصود: **« يقوم المؤرخ بتأريخ حوادث بعد عام بما يشمله من نواحي سياسية أو دينية، وقد ينتهي العام بذكر من توفي فيه من مشاهير الناس، وإذا حدث جملة حوادث مختلفة في أماكن متعددة فإن الذي يجمع بينها هو سنة حدوثها لا موضوعها »[18].**

تتحكم السنة في هذا النوع من التأليفات رغم أننا نجد موضوعها يتنوع ويختلف فيترجم للمشرقي والبغدادي، والفارسي، والمغربي، والأندلسي، ورجل الحديث، وسقوط المدن، وقيام أخرى في ظل الحول- العام- ومن أشهر هذه الكتب نجد: "البداية والنهاية" لابن كثير، "وشذرات الذهب" لابن العماد الحنبلي فينتقل المؤلف من سنة إلى التي تليها حتى ينتهي مصنفه.

هـ) كتب تراجم الطبقات: يعتبر هذا النوع من المؤلفات الأكثر انتشارا وتنوعا في كل الميادين المعرفية بدء بعلوم الدين حتى الخروج على الطب، والميزة التي تجمع بين كل طبقة وطبقة ليست البيئة أو العلم أو الشخصية فالجودة والعبقرية هي التي تحكم هذا النوع ، ومن أشهر كتب الطبقات التي ظهرت: كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي، وكتاب" ترتيب المدارك" للقاضي عياض وهو في الفقهاء وكتاب "قضاة البصرة" لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وكتاب "أخبار النحويين" لابن دستورويه (ت 347هـ)، "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، و"طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة.

وهكذا تتجلى لنا أهمية البحث في التنوع الذي يخص تراكمات زمنية كثيرة لا يحصيها عد ولا ينقلها ورد، فقد ألقت هذه الأنواع الضوء على طيات هذه الكتب وحاولت تقريبنا منها ومن تاريخ الإسلام والمسلمين القديم ومعرفة مدى تأصل الوعي التاريخي بالذات والحضارة الإسلامية لديه، وأهمية مثل هذا العمل لحفظ الذاكرة من الضياع، فتركوا العنان لأقلامهم وسجاياهم التي تركت لنا بدورها لمسات خالدة ومشرقة في سماء الإنسانية لمدة تجاوزت الخمس قرون الأولى صدد الدراسة.

---

(18)- المرجع السابق، ص 242.

الفصل الثاني

فن التراجم في الأندلس.

أولا: الأندلس في ظل الإسلام.

ثانيا: تاريخ التراجم في الأندلس.

ثالثا: المنهج و الخصائص للتراجم الأندلسية.

ثالثا: فن التراجم عند العرب:

كان الفضل الأول لظهور هذا النوع من الكتابات إلى مجيء الإسلام، ونزول القرآن الكريم الذي قص علينا بادئ الأمر أخبار الأمم الغابرة والشخصيات الواسعة الانتشار والشهرة ، وهذا ما يوجب علينا الالتفاتة إلى التراث الثقافي في ما قبل الإسلام،كانت الجزيرة العربية في تلك الفترة مجمع البحور الثقافية على الرغم من كونها مجتمعات بدوية ينقصها الكثير من التطور الحضاري، إلا أنهم استقطبوا الكثير من أصحاب العلم، كما كان فيهم الخطباء مثل قس بن ساعدة، وجهابذة الشعر والإبداع الأدبي الذي مازال يقاوم الزمان لحد الآن.

وكانت لديهم روايات وأخبار كثيرة عن آلهتهم وسادتهم، وجل محاورها تدور حول غزواتهم ومعاركهم وأنسابهم وشيمهم، على رأسها المروءة ، و إجارة الضعيف، والمسافر، وكيف يهبّون للدفاع عن أعراضهم إلى غير ذلك.

سمّى العرب هذا النوع من الروايات الشفهية **"الأيام"** يعرضونها في الأسواق وفي مجالس سمعهم ومن أبرز سماتها أنها تضم الشعر والنثر، ويتداولون عليها، تارة يغلب الشعر، وتارة أخرى يغلب النثر، وهذا كله راجع للراوي أو الإخباري المتحكم فيها كما سموهم في ذلك الوقت،بالإضافة إلى بروز كل قبيلة فيها على حدة فهي قبلية جماعية مشتركة بين جميع أفرادها، وسادتها وعبيدها، لا تخلو من عصبية وينقصها التناسق والسبك الفني، وأهم من ذلك أنها لا تخضع لترتيب زمني، زد على ذلك أنها لا تحمل أي فكرة تاريخية، رغم صدقها في نقل الكثير من الغزوات والمعارك التي خاضتها القبائل فيما بينها أو مع من جاورها من الفرس والروم والأحباش، كحادثة تهديم الكعبة التي قادها أبرهة الحبشي، فسموها بعام الفيل وأصبحوا يؤرخون بها، كما أرخوا بحوادث قبلها وبعدها.

استمرت هذه الأيام على وتيرتها حتى القرن الثاني للهجرة الموافق للثامن ميلادي; حيث انتشرت حركة تدوين القرآن الكريم، والحديث وغيره من العلوم المتصلة وغير المتصلة به، وأثرت في طبقة المؤرخين الأوائل في بغداد عندما بدءوا يكتبون التاريخ بأسلوبهم القصصي المباشر، والمفعم بالحيوية والواقعية المجسدة في أشعارهم، وحكاياهم المروية مشافهة ،والتي نقلت إلينا بالتواتر.

فأدبها لم يكن مكتوبا ، مما شكل أمامنا عائقا في البحث والتقصي حول الكثير من الحقائق والتي ضاع أكثرها لنفس السبب.

1- فن التراجم عند المشارقة:

أ-النشأة و التطور: فعَّلتْ نظرة القرآن الكريم الجدية للماضي روح الانتماء والاتحاد بعدما كانت قبلية أصبحت عالمية وإن اختلفت قبائلهم وبطونهم وأنسابهم، فهو أعادهم إلى أصل واحد، ومصير واحد، و نهاية واحدة، وإن تعددت أشكالها وتنوعت معطياتها، من بدء الخليقة مع آدم عليه السلام إلى نهايتها.

وجاء حديث القرآن الكريم عن النبوءات التي كانت في حقيقتها رسالة كونية واحدة، جاء بها العديد من ا لأنبياء والرسل، ليبينوا مسار حياة البشر واشتراكها في مصير واحد، فشهدوا تأييدا من أقوامهم، كما شهدوا رفضا وتقتيلا وتعذيبا وتهجيرا، وكان الرسول الكريم أحمد (صلى الله عليه وسلم) حامل أعظم هذه الرسالات وخاتمها، إلا أنه بعد ذلك انصب اهتمام المسلمين وانحصر في التاريخ الإسلامي، بعدما كان يهتم بتاريخ الأنبياء والإسرائيليات،وبمجيء الإسلام تراجعت كل الثقافات والاهتمامات السائدة قبله في جزيرة العرب، وما بقي منها إلا ما يخدم مصالحه وأهدافه من خلال ترجمته لهذه الآثار، خاصة منها الآرامية، والسريانية، والفارسية التي اقتبس منها القرآن الكريم العديد من ألفاظه، فالعرب أصبحوا يشعرون بأنهم قوة عظمى لها تأثيرها، وستلعب دورا تاريخيا كبيرا، وهذا ما بينته كتب التراجم الأولى في التاريخ الإسلامي.

ويعد عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) أول من قام بضبط رزنامة التاريخ عند المسلمين، باعتماده التاريخ الهجري السلم الزمني الذي يسيرون عليه، ويدونون وفقه، فكان العمود الفقري لفكرة التأريخ، وأسس لهم ديوانا يسجل فيه المحاربون وأهاليهم وفق قبائلهم، مما أعطى الأنساب دفعا جديدا ومسارا قويما، والخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)كان من أشهر النسّابة العرب،وسارت كتابات التراجم عند العرب في طريقين مختلفين:

1- الاتجاه القبلي أو الأنساب: شهد زخما معرفيا كبيرا، ألف فيه كبار المؤلفين القدامى كالبلاذري البغدادي (ت 279هـ)، وأبو اليقظان (ت 190 هـ)، ومحمد بن حبيب (ت 245 هـ) صاحب كتاب "المحب " غير أن هذا العلم انحدر شيئا فشيئا إلى علم التاريخ، يقو ل طه عبد المقصود: **« يعد علم الأنساب فرعا أساسيا من فروع التاريخ الإسلامي ويتصل بصفة وثيقة به، حتى لقد ظهرت تواريخ منظمة على أساسه »**[19].

2- اتجاه أهل الحديث: الذي كان له الأثر الكبير في حركة تأليف التراجم، فاهتم الرواد بتدوينه وروايته، ومعرفة أحوال أصحابه، وآراء العلماء الثقات فيهم من كل النواحي خاصة منها الميولات العقائدية التي تحدد قوة الإسناد أو ضعفه، تجريحا وتعديلا، حفظا للحديث بعد وفاة الكثير من رواته، وصونا له من كل الشوائب والتدنيس فصار بذلك الصحابة أنفسهم قدوة في أفعالهم وأقوالهم.

---

[19] - المرجع السابق، مج 1، ص 250.

أول ما تجسدت هذه الظاهرة في سيرة النبي الكريم محمد(صلى الله عليه وسلم) وسميت الدراسات الأولى لحياته بالمغازي [20]، رغم تناولها لحياته وغزواته وحربه بكاملها.

كتبها بداية أبناء الصحابة أمثال: عروة بن الزبير بن العوام (ت 94 هـ)، و أبّان بن عثمان بن عفان (ت 105هـ)، ثم تلاهما شرحبيل بن سعد (ت 123هـ)، وابن شهاب الزهري (ت 124هـ) الذي يعد المؤسس الفعلي للسيرة الحديثة لرسول الله(صلى الله عليه وسلم) وخلصها من الشوائب وكل ما يتعلق بها وأعطاها هيكلها وحدودها النهائية.

عرفت هذه الكتب بكتب الجرح والتعديل وكتب الرجال، وتفرعت بعد ذلك فروعا عدة في تاريخ الرواة، وكتب المشيخة، وتواريخ الوفيات، وكتب المتفق والمختلف، والقراء والفقهاء، ومن أشهر هذه الكتب: "الطبقات الكبرى" لابن سعد البصري (ت 230 هـ)، و"طبقات أصحاب أحمد ابن حنبل" لأبي بكر بن الخلال البغدادي (ت 311هـ).

توسعت دراسة حياة الأعلام والترجمة لهم من رجال الحديث إلى الشعراء والأدباء والقضاة والنسابة والعرب والموالي وغيرهم كثير وصلت حوالي الأربعين فنا، يقول طه عبد المقصود: **« أحصى الذهبي (ت 748هـ) موضوعات التأريخ الإسلامي فبلغت أربعين فنا »**[21] وكثر فيها الإخباريون وهم المؤرخون الأوائل في التاريخ الإسلامي، بدأت تظهر معهم كتب ذات موضوع واحد، دون أن يتعمقوا فيها كثيرا، المهم عندهم محاولة الإلمام بالحادثة أو الموضوع لذلك نجد على مؤلفاتهم مآخذ عدة، يرى أحمد أمين: **« أن الإخباري لا ينزل إلى درجة القصص فيكون وليد الخيال، ولا يرتفع إلى درجة التأريخ فتفحص وقائعه وتضبط رواياته، بل كان مزيجا من هذا وذاك »**.[22]

لم تكن الفكرة الجلية لهذا العلم ذات عماد لذلك عدت هذه الفترة مرحلة انتقالية من نشأة الحديث إلى نضج باقي العلوم والفنون وبخاصة الأدبية منها.

واشتهر في هذه الفترة أبو مخنف لوط بن يحي الأزدي (ت 157 هـ)، ويوسف بن عمر الأسدي التميمي (ت 180هـ) والواقدي (ت 207هـ)، من إخباريي القرن الثاني الهجري، واليعقوبي (ت 284 هـ) وابن قتيبة (ت 276 هـ) والخطيب البغدادي (ت 463هـ) من مؤرخي القرن الثالث والرابع والخامس المخصصة للدراسة.

استقل فن التراجم في هذه القرون عن غيره من علم الحديث والتاريخ بعدما أخذ منهما الكثير من الخصائص، و حقق رجال الدين والأدب أكبر نشاط في هذه المرحلة، وقاموا بتغطية إعلامية كاملة لجل عصور الأدب ورجالاته، قدماء ومعاصرين لهم،وامتازت هذه الكتب بالإضافة إلى التخصص في موضوع معين حملت في طياتها الإرهاصات الأولى للحركة النقدية والفكرية فيما بعد، تضمنت الكثير من المقطوعات

---

[20] - عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية،بيروت-لبنان،(د ت)، ص 21.

[21] - طه عبد المقصود، الحضارة الإسلامية، مج 1، ص 238.

[22] - أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 3، ط 7، مطبعة النهضة المصرية، مصر، (د.ت) ، ص 356.

الشعرية والنثرية لأصحاب التراجم حسب أهميته وحضور المادة العلمية لدى المترجم، تعددت كتب التراجم فضلا عن تعدد المناهج واختلافها وفقا لاتساع الآفاق العلمية بعد ما تطورت حركة علم الترجمة في العصر العباسي والامتزاج الثقافي بين مختلف الشعوب الأمر الذي دفع بالكثير من مؤلفي هذا النوع من الكتب إلى أن يتعصب لقوميته مما أدى إلى التراكم الهائل على المستوى النوعي في مجال تواريخ الرجال، وأدى من جهة أخرى إلى تكوين صورة أشمل وأدق تفصيلا وأكثر صدقا لعلم من الأعلام، فكل كتاب يركز على جانب معين من شخصيته.

من أشهركتّاب رجال التراجم الأدبية: ابن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشعراء"، وابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء"، والثعالبي في "يتيمة الدهر " ،وأتبعه "بتتممة اليتيمة" استدرك ما نسيه فيها، وذيله عماد الدين الأصبهاني بكتابه " خريدة القصر وجريدة العصر" ، والباخرزي في "دمية القصر"، وانتشرت ظاهرة الكتب المتسلسلة والمذيلة بكثرة في هذا النوع من الفن الموجود حتى عند الأندلسيين.

ب- نماذج كتب التراجم في المشرق:

جاء اختيار النماذج لفن التراجم في المشرق لسببين هما: أسبقية هذه المؤلفات في ميادينها - بسبب تنوع مواضيعها وتصنيفاتها - والسبب الثاني، ترجمة بعضها لأعلام من إقليم الأندلس على الرغم من بعده، وفيما يلي عرض موجز لها:

1- الطبقات الكبرى لابن سعد بن منيع الزهري (ت 230):ألفه صاحبه رغبة منه في الحفاظ والإشادة بأصحاب المكانة العظمى بدء بسرد حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الأجزاء الخمسة الأولى، ثم قسم الباقي إلى قسمين، قسم للرجال حسب أقاليمهم، وقسم خصصه للنساء بدء ببيت آل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، تميز أيضا بالدقة في كتابة الأسماء وتسلسلها وذكر الغزوات خاصة غزوات الرسول(صلى الله عليه وسلم) والمواقع الجغرافية التي دارت فيها، والمظاهر والصفات الخارجية للصحابة، ليستطيع تصورهم أمامه ولم يسبق إلا بكتاب أستاذه الواقدي، وقد فقدت كتاباته في هذا المجال ومن ثمة فهو أول كتاب وصل إلينا، يقول علي محمد عمر: **« كتاب الطبقات الكبرى ... يعد أول كتاب وصل إلينا »**[23].

ختم طبقات قسم الرجال بترجمة للأندلسيين، وذكر واحدا فقط هو معاوية بن صالح الحضرمي [24]، كان قاضيا في الأندلس ومحدّثا، حجّ مرة واحدة والتقى فيها بالواقدي.

اهتم المترجمون القدامى به وأخذوا عنه الكثير وذكره أيضا الكثير منهم، ابن النديم في الفهرست، والنويهي (ت 733 هـ) في كتابه "نهاية الإرب"، والذهبي (ت 738هـ) في كتابه "في تاريخ الذهبي".

---

[23]- محمد بن سعد بن منبع الزهري، كتاب الطبقات الكبرى،تح: علي محمد عمر، ج 1، ط 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001 ، ص 5.

[24]- المصدر السابق، مج 7، ص 521.

2- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت 231هـ): لا يعرف بالضبط متى ألف كتابه وأرجح تقدير أنه في أوائل القرن الثالث الهجري يقول عن ذلك أحمد إبراهيم: **« تدوين الشعر نشط في أوائل القرن الثالث الهجري ... ولعل هذا الوقت هو العهد الذي ألف فيه ابن سلام كتابه »[25].**

رأى الكثير من الدارسين أن كتاب فحول الشعراء هو عبارة عن كتابين، كتاب طبقات الشعراء الجاهليين وكتاب طبقات الشعراء الإسلاميين، وذكرهما ابن النديم في "كتاب الفهرست"، ثم جمع بينهما ابن سلام الجمحي أو من جاء بعده من الرواة أو المدونين في كتاب واحد.

حمل كتابه هذا العديد من الآراء النقدية التي كانت تعتمد على الذوق الشخصي في إعطاء أحكامها على الشعراء، وهذا ما مهد لحركة نقدية كبرى كان لها صدى واسع خاصة قضية انتحال الشعر، وبواعثه ضمّنها جميعا مقدمة الكتاب.

ينقسم متن الكتاب إلى قسمين الأول: تصنيف طبقات الشعراء الجاهليين والثاني طبقات الشعراء الإسلاميين، اعتمد فيه نظام الطبقات فجعل الشعراء الجاهليين في عشر طبقات، في كل طبقة أربعة شعراء، غير أنه لم يلتزم هذا العدد في شعراء القرى الذي وصل حتى عشر شعراء في الطبقة، ثم شرع بعد ذلك في الترجمة لشعراء الإسلام والمخضرمين بنفس النظام والترتيب وكان معيار المفاضلة بين كل هؤلاء الشعراء هو الجودة والبراعة في الكتابة.

3- يتيمة الدهر للثعالبي (ت 429هـ): ما دعا أبو منصور الثعالبي لوضع كتابه ما رآه من أهل عصره من ازدهار في الحياة العلمية والأدبية التي شقت كل الآفاق ولم يوجد مصنف يقيّد شواردها ويخلد عمالقتها، فحمل على عاتقه هذا العبء.

لم تقتصر ترجمات الثعالبي على أدباء القرنين الرابع والخامس الهجريين بل تجاوزه إلى من تقدمه، كما لم يلتزم بالشرط الذي وضعه لنفسه بإيراد لب اللباب وحبة القلب وواسطة العقد ونجده يعترف بذلك ويعتذر: **« فهذه النسخة – اليتيمة – تجمع بدائع أعيان الفضل ونجوم الأرض من أهل العصر ومن تقدمهم قليل وسابقهم يسير ... فإن وقع في خلال ما أكتبه مما ليس من أبيات القصائد ووسائط القلائد فلأن الكلام معقود به والمعنى لا يتم دونه» [26]** وهذا يعد عيبا من عيوبه ويؤخذ عليه أمّا ترجماته فلم يركز فيها على كل المعلومات فنجده قد لا يذكر لشاعر سوى بيتين من الشعر،قسم كتابه إلى أربعة أقسام:

1- في محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاوزها ،ومصر والموصل، والمغرب، ولمع في أخبارهم.

2- في محاسن أهل العراق وإنشاء الدولة الديلمية .

---

(25)- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: أحمد إبراهيم، ط 1، ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2001ص 15.

(26) - أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط 2، مطبعة السعادة ، القاهرة، 1956، ص 19-20.

3- في محاسن أشعار أهل الجبال وفارس، و جرجان، و طبرستان، و أصفهان من وزراء الدولة الديليمية، و ثقاتها، و قضاتها، و شعرائها.

4- في محاسن أشعار أهل خراسان و ما وراء النهر من إنشاء الدولة السامانية و الغزنية.

جاء حديثه عن الأندلس في القسم الأول، وهو شحيح جدا مقارنة بالأقاليم الأخرى فوصل عدد الترجمات إلى حوالي خمسة عشر ترجمة تتراوح بين الطول و القصر، كما نجده أيضا أصدر بعض التعليقات عن سرقات بعض الشعراء وما أخذوا عن غيرهم من المعاني و هذا طابع الكتاب العام من ذلك قول الأمير محمد بن أبي مروان بن أخي الحكم المستنصر : [27]

أَلَسْنَا بَنِي مَرْوَانِ كَيْـفَ تَبَدَّلَــتْ بِنَا الحَالُ أَوْ دَارَتْ عَلَيْنَا الدَوَائِــرُ ؟

إِذَا وَلَدَ المَوْلُــودُ مِنَّــا تَهَلَّلَــتْ لَهُ الأَرْضُ وَاهْتَــزَتْ إِلَيْهِ المَنَابِـرُ

وبعد هذا القول المأخوذ من قصيدة طويلة لم يذكر منها سوى هذين البيتين قتله عمه خوفا على المملكة.

4- معجم الأدباء إرشاد الأريب في معرفة الأديب لياقوت الحموي (ت 626 هـ): دفعه حبه للأدب ورجاله منذ طفولته إلى البحث والمطالعة والسفر خاصة عندما كان عند سيّده الّذي أعتقه فيما بعد، ودفعه لتأليف مصنّف يضم كبار الأدباء والشعراء، اعتمد في منهج كتابه الترتيب الأبجدي، وخصّصه لمن اشتهر بالتصنيف، وصحة الرواية؛ أي من قلّ شعره وكثر نثره، كما قام بحذف الأسانيد للاقتصاد في مادة كتابه، واتبع في ترجمته ذكر المولد، والوفاة، والمؤلفات التي وضعها المترجم له، ومن روى عنه.

قسم كتابه إلى مقدمة عرض فيها ما تقدم ذكره، وأتبعها بفصل في فضل الأدب وأهله وذم الجهل وحملته:أورد في هذا الفصل كل ما حفظه من أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) وأقوال الخلفاء وكبار الكتاب والشعراء والفلاسفة كأرسطو ثم الفصل الثاني في تفضيله علماء الأخبار، وعلم الأخبار، ومدى اعتزازه به لدرجة أنه رأى أن من لم يلم بهذا العلم غير محقق للهدف الأسمى لعمله، ثم بعد ذلك شرع في ترجمة الأدباء.
قال عز الدين إسماعيل عن أهميته كمصدر تراثي: **« يعد كتاب معجم الأدباء مصدرا لا بديل له لكل من يرغب في أن يتقصى أخبار كتاب العرب حتى عصر مؤلفه »[28].**

ترجم ياقوت الحموي في كتابه للعديد من الأندلسيين في مختلف الفروع العلمية من فقه، وقضاء، وأدب، وتاريخ، نذكر منهم على سبيل المثال: عثمان بن ربيعة، مؤلف كتاب "طبقات الشعراء بالأندلس" (ت 922م)، و الحميدي صاحب كتاب "جذوة المقتبس" (ت 488هـ) والمحدث محمد بن عثمان الخشني وغيرهم ...إلخ.

---

27 ()- المرجع نفسه، ص 310.

28 (- عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، ط 1، دار النهضة، 1976، ص 253.

5- وفيات الأعيان لان خلكان (ت 671 هـ)[29]: ألّف كتابه في موضوع الوفيات خصوصا، لأنه يرى أن الذي يعيش ويموت دون أن يذكر فهو بالتأكيد شخص مغمور، ومن لم يتوفر له تاريخ وفاة أهمله حتى وإن كان مشهورا كما أهمل جل الصحابة والخلفاء اكتفاء بما كتب عنهم سابقا، اهتم - كما قلنا – بمعاصريه ورتبهم على الترتيب الهجائي للأسماء دون الاهتمام بالكنى والألقاب، واعتمد الإيجاز في ترجماته، وهذا لم يمنع أن توجد أخرى تصل أكثر من 20 صفحة، ووصل عدد التراجم فيه إلى 800 ترجمة، ذيل هذا الكتاب بفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (ت 764)، والوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل الصفدي، وأهم ميزة له تدقيقه في عرض الروايات والتحقق منها ونقدها.

6- سير أعلام النبلاء* للذهبي (ت 748 هـ): ألّف كتابه في القرن الثامن الهجري، قام بتقسيمه حسب الترتيب الزمني للطبقات، ترجم فيه للرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم الخلفاء الراشدين، وبدأ بالعشرة المبشرين بالجنة، ثم كبار الصحابة، والتابعين وصولا إلى السلطان المنصور بن المعز أيبك التركماني، وجاء في ثلاثة عشر كتاب والرابع عشر جعله ذيلا للكتاب إلا أنه لم يصلنا وبقي الذهبي مخلصا لطريقة أهل الحديث فأورد الإسناد يقول مثلا: **« عن عبيدة بن الجراح سمعت رسول الله يقول: "..."»[30].**

2- فن التراجم عند المغاربة:

أ- النشأة و التطور: أصبحت القيروان بعد فتحها من طرف المسلمين قوة سياسة وفكرية كبرى لا تضاهيها قوة في المنطقة، وفد العلماء إليها من كل حدب وصوب لأخذ العلم، كما كانت ترسل علماءها إلى المدن الأخرى.

فرضت التطورات الكبيرة للحياة الاجتماعية و السياسة أنماطا ثقافية مختلفة أهمها العلوم الدينية، والتاريخ، والفلك، والرحلة، وكتب تراجم الرجال لأهل هذه البلاد منهم ومن أشهر أعلامها ابن الجزار الذي اشتهر في الطب والتاريخ، ويعتبر من أوائل المؤرخين في بلاد المغرب ومن مؤلفاته "أخبار الدولة الفاطمية "، أما أعلام الفقه الذين نبغوا وتركوا صدى في الفكر الديني نجد أسد بن الفرات الذي تولى قضاء إفريقية في عهد الأغالبة، والإمام ابن سحنون وابنه محمد، وأبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المكنى بالمالك الصغير لشهرته في ميدان الفقه والحديث، خاصة المذهب المالكي.

عاش العلماء بحرية يدرسون كل ما شاؤوا في جو من التسامح، فكانت من أزهى فترات البحث في الحياة الفكرية لهم، ولو استمر الحال على ما كان عليه لجاء الإنتاج الأدبي أكثر تنوعا و ازدهارًا، إلا أن للسياسة أحكامها، حيث جرّ تعصب بعض

---

[29] - ينظر عبد الستار الحلوجي، مدخل في دراسة المراجع، ط 1، دار الثقافة ، القاهرة، 1974، ص 49-53.

* - اخترت هذا الكتاب على الرغم من أنه تم تأليفه في القرن 8 هـ ليشير لاستخدام كلمة "سيرة " بدل ترجمة التي ظهرت قبله بحوالي قرنين في كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي.

[30] - الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي)، سير أعلام النبلاء، تح: صلاح الدين المنجد، ج 1، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص 4.

العلماء لمذهب معين إلى اضطهاد وقتل المناهضين لهم. يقول عبد الله شريط: « **قيل أن الفاطميين قتلوا من أجلة علماء القيروان خمسة وثمانين عالما في سنة 336 هـ وحدها »**[31].

فهذه المقولة تشير بوضوح إلى الفتن التي كانت تمزق وتتنازع صلب المغرب بعد تعدد دويلاته.

بعد رحيل الفاطميين لمصر وضعف شوكتهم في المنطقة، انفصل عنهم الصنهاجيون سنة 435 هـ، وأسسوا دولتهم التي أولت العلم والعلماء أكثر اهتمامها فتسابقوا في استوفاد العلماء والشعراء على بلاطهم مثل ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب" أنموذج الزمان" خصصه لشعراء القيروان في عصره فترجم لهم وأعطى آراء نقدية في النماذج التي أوردها لهم وقام بإهدائه لأبي الرجال، كما نجد صاحب كتاب "رياض النفوس " الذي ترجم فيه لأمراء في أفريقيا فذكر أول ولاتها وهو أبو الجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي، الذي استقضى أثناء ولاية موسى بن نصير وآخرون.

كما ذكر أيضا القضاة والفقهاء منهم أبو سعيد جاعيل بن هادعان بن عمير التابعي وولي قضاء أفريقية في عهد هشام بن عبد الملك، "والمغرب في حلي المغرب" لابن سعيد الأندلسي وترجم لأهل الإقليميين، والبيان المغرب للمراكشي، وسنفصل الحديث في النماذج وغيرها أثناء عرضنا لمجموعة من إنتاجهم.

و يعد عدم الاستقرار من أهم الأسباب التي أبعدت أهل المغرب عن الاهتمام بالحركة ا لعلمية والأدبية، وتطويرها، فالمنطقة منذ الفتح وإلى دخول الإسبان في القرن الثاني عشر للهجرة لم تعرف أي استقرار، ما أدى إلى تقلص الإنتاج الأدبي، وانحصار معظمه في الزهد، والتصوف، و اللغة وكتب التراجم.

دامت فترة حكم الصنهاجيين حوالي القرن، من نصف القرن الرابع، إلى نصف القرن الخامس، و كان مجيء الهلاليين كارثة إنسانية؛ حيث لم يبقوا شيئا من معالم الحضارة والذي بقي أو جاء بعده أحرقه ودمره الإسبان والحروب الأهلية.

ب- نماذج كتب التراجم في المغرب:

شهدت الحركة التأليفية في ميدان التراجم غزارة كما كانت في المشرق والأندلس، و اخترت هذه النماذج على أساس أنها مأخوذة، إما من سلاسل أو تترجم لعلماء أندلسيين ومن أشهر هذه النماذج:

1- زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري القيرواني (ت 453 هـ): صنفه لأجل إهدائه لأبي الفضل العباس بن سليمان، ويشتمل كتابه هذا على عجائب، ونوادر، وأزهار ملأ عطرها فضاء القيروان، وفاح ليعم أقطار البلدان العربية، ويصل أريجها إلى أنوفنا ونحن نتصفح كتابه، وضم التراجم، وهذا ما يهمنا، فكل علم اختار له نموذجا نثريا أو شعريا يسبقها بترجمة له، يقول محقق الكتاب: « **قارئه سيجده**

---

[31] - عبد الله شريط، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، ط 3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1983، ص 124.

زاخرا بموضوعات شتى، ففيه الوصف والمدح، والهجاء، والنسيب وفيه الحكمة، والتراجم والأخبار و فيه اهتمام خاص بأخبار الصحابة والتابعين وآثارهم ».[32]
جاء كتابه موسوعة علمية كبيرة يرجع لها في جل معارف تلك الفترة.

2- أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن حسن بن رشيق القيرواني[33]: ترك كتابه شاهدا على فترة زاخرة في تاريخ الأدب بالمغرب العربي القديم، وما يصادفنا في الحديث عن كتابه أكثر، إشكالية الاختلاف في إطلاق التسمية الصحيحة على الكتاب، فمنهم من يسميه " أنموذج الزمان في شعراء القيروان" وآخرون سموه " أنموذج الشعراء" وفريق ثالث سماه فقط " الأنموذج"، وأغرب آخرون كل الإغراب وأسموه النموذج، ورجح أكثر الدارسون التسمية الأولى عن غيرها لسببين:

أولا: وحجتهم في ذلك أن التسميات الأخرى عبارة عن اختصارات للتسمية الكاملة وكذلك المضمون ينطبق معها تماما.

ثانيا: وجد في متن الكتاب ذاته نصا شعريا أثبته لعبد الرزاق بن علي النحوي يمدحه ويهينه بوضع كتاب عظيم الشأن فقال[34]:

وَمُطَرَزًا حُلَلَ البَلاَغَةِ مُعْجِــــزًا　　　كُلَ الورَىَ بِبَلاَغَةِ "الأَنْمُــــوذَج"
فَكَأَنَهُ لِلسَمْعِ لَفْظَ أَحِبَـــــةٍ　　　وكَأَنَهُ لِلْعَـيْنِ رَوْضَ بَنَفْسَــــج

احتل الكتاب مكانة مرموقة لما ضمه بين دفتيه من تراجم لشخصيات تنوعت بين أدباء وشعراء، ونحويين، وبلغاء، وفقهاء، سواء كانوا أمراء أو أناس عاديين، وصل عدد تراجمه إلى المائة، ذكر من بينهم أنموذجا نسائيا واحدا تمثل في ذكر الشاعرة الحاذقة خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري والملقبة بخدوج الرصفية[35].

واقتصر كتابه على مائة شاعر مع أن الحياة الفكرية والأدبية كانت مليئة جدا بالشعراء، أصحاب القرائح الشجية، والقوية، ضم كل هؤلاء البلاط الصنهاجي الذي عاش فيه ابن رشيق معظم حياته.

ويرجع سبب تخصيص كتابه لمائة شاعر، لمنهجه النقدي المتميز، فيقوم من خلاله بتنقية الشعر والشعراء، ويمايز بين صافيهم ورديئهم، فيكون بحق وزنهم بميزان الدقة والذوق وعمق الرؤية النقدية الناضجة، ويقول الشاعر سابق الذكر[36]:

خَصَصْتَ أَهْلَ المَغْرِبِ مِنْهُ بِمَشْـرِقٍ　　بِأَقَرِ مِنْ شَمْسِ النَهَـارِ وَأَبْهَــج
رَجَحْـتَ بَيْنَ ذَوِيْ الفَصَاحَةِ مِنْهُـمْ　　وَفَصَلْــتَ بَيْنَ مُرَتَبٍ وَمُثَبَــج

---

32) - إبراهيم الحصري، (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني)، زهر الآداب وثمر الألباب، ج 1، ط 1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،2001، ص 6.

33) - ابن رشيق (حسن رشيق الأزدي المسيلي)، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح" محمد العروسي المطوي و بشير البكوش، ط 2، دار الغرب الإسلامي، 1991، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج 8، ص 111.

34) - ابن رشيق، الأنموذج، ترجمة رقم 30، ص 128.

35) - المصدر السابق، ترجمة رقم 20، ص 103.

36) - المصدر نفسه، ترجمة رقم 30، ص 129.

يتجلى من هذين البيتين القيمة السامية والدرجة الرفيعة التي وصلها ابن رشيق وكتابه، ضمن الحياة الأدبية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري زمن تأليف الكتاب، ولم يتوقف عند هذا الحد، وإنما ذكرته الكثير من الكتب المتخصصة في التراجم، ما يدل على انتشاره وشهرته إن في المشرق أو المغرب، منهم ياقوت الحموي في معجم الأدباء، وابن الأبار في الصلة، والصفدي في الوفيات، ويعتبر ابن بسام الأكثر ذكرا ونقلا عن الأنموذج[37].

3- الديباجة في مفاخرة صنهاجة[38]: لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني (460-529هـ) يظهر حاليا من خلال عنوانه أنه خاص بتراجم سادة وأمراء الدولة الصنهاجية التي عاش في بلاطها إلى نهاية حياته، ويقال أنه قدمه لأحد الأمراء الذين عمل في بلاطهم: منهم يحيى وابنه علي وحفيده الحسن.

4- ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عيّاض (544هـ)[39]: يتكون كتابه من أربعة أجزاء تكلم فيها عن أعلام مذهب الإمام مالك، كما هو واضح في العنوان الموضوع للكتاب، و قام بوضع منهج كتابه على أساس التقسيم حسب الأقاليم فوضع جزء لأهل الأندلس، و جزء لأهل الشام، و جزء لأهل المغرب الأقصى، و جزء لأهل إفريقية، و جزء لأهل مصر، و جزء لأهل العراق، و جزء لأهل المدينة المنورة، و جزء لأهل الحجاز، فعد كتابه موسوعة فعلا، كما ضم التراجم ضمن الأحداث التي عاشها. أصحاب التراجم، و تاريخهم، و أرائهم و نقدهم و مناظراتهم، فاستحق الكتاب أن يسمى فعلا مقرب المسالك.

فبفضل ما حمل من معلومات عرفنا على أئمة الإمام مالك في كامل البلاد العربية، و لم يخص الأندلسيين فقط و حاليا يسعى المحققون، و الناشرون لوضع مجلد مستقل يضم جميع الفهارس الخاصة بالكتاب، لتسهيل البحث و الغوص في طياته.

5- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ت 695 هـ): ضم كتابه هذا معلومات تاريخية قيمة وخطيرة، تحدث عن رجال تلك الفترة في جل الميادين السياسية منها و العسكرية، و الأدبية، والدينية، والقضاء، قسم الكتاب عموما إلى ثلاثة أجزاء منذ فتح المغرب إلى الحروب والفتن التي شهدتها المنطقة وحتى الأندلس.

حظيت الأندلس بنصيب الأسد في كتابه: حيث نجد الجزء الثاني والثالث يتحدث فيهما عن أمراء الأندلس الأمويين، ويذكر لهم نماذج شعرية، ومواقف مثل: عبد الرحمان الداخل، ومن قام عليهم من الثوار الأندلسيين، ويقول في مقدمة الكتاب: « **اختصرت فيه أخبار جزيرة الأندلس، وأملاكها الغابرين الدرس، من حين الفتح الأول، ثم من وليها من الأمراء للخلفاء الأمويين بالمشرق ثم من قام بها من العرب الفهريين إلى حين دخول الخلفاء الأمويين في ابتداء أمرهم، ومن قام عليهم من**

---

[37] - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، ط 1، ق 4، مج 8، ص 529.

[38] - ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 4، ص 234، والديوان تح: محمد المرزوقي، طبعة دار سلامة، تونس، 1987 ص 34.

[39] أبو الفضل عيّاض (موسى بن عيّاض اليحصبي السبتي)، ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود، مج 1- 4، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان ،(د.ت).

الثوار الأندلسيين... وذكرت فيه أخبار ملوك الطوائف، بعد دول الخلائف من الحموديين و الهوديين والعباديين والصنهاجيين »[40].

ويقصد المؤلف بكل هذا إعطاء صورة تفصيلية لبلاد الأندلس، وتاريخ رجالها العظماء رغم كل النكبات التي مرت بها، نجده يذكر من نماذج الشعر في غرض الحنين لعبد الرحمان الداخل أول خلفاء بني أمية في الأندلس: [41]

أيُــــهَا الرَاكِبُ المُيَمِـــمُ أَرْضِ اقـرَأْ مِنْ بَعْضِ السَلاَمَ عَنِيْ لِبَعْضِ

إِنَ جِسْمِـــيْ كَمَا تَرَاهُ بِـــأَرْضِ وَفُـــؤَادِيْ وَمَالِكِيْهِ بِـــأَرْضِ

نجد في بعض الكتب التاريخية الأخرى صياغة البيت الأول تختلف عن هذه الموجودة في الكتاب يقول صاحب جذوة المقتبس:

أيُــهَا الرَاكِبُ المُيَمِـــمُ أَرْضِ اقرَأْ السَـــلاَمَ مِنِيْ لِبَعْضِ عَلى بَعْضِ

فهذا النوع من الاختلافات يعود دائما إلى الاختلاف في الرواية، و أيضا أخطاء النسّاخ في النقل.

6- دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران لمحمد بن يوسف الزياني: [42] ألف كتابه هذا في تاريخ مدينة وهران فعرفها، وذكر مؤسسيها، وعلمائها، وأوليائها من قديم الزمان، وخص من بينهم. دفينها محمد بن عمر الهواري (ت 843 هـ) هذا في الفصول الثلاثة الأولى.

أما الفصل الرابع فقد ذكر فيه قائمة من ملوكها منذ تأسست إلى عهد المؤرخ، فبدأ بمغراوة والذين خطوا المدينة، وإسلام أميرهم على يد عثمان بن عفان، ثم واظبوا على ولائهم لخلفاء بني أمية في دمشق، ثم بالأندلس، ثم تحدث عن علماء مغراوة، وعبادها، وزهادها، ثم المرابطين اللمتونيين.

أما عن الجزء الثاني فقد تحدث فيه عن ملوك بني زيان، وبني مرين الذين جاؤوا بعدهم ثم تحدث عن الإسبان، ثم الشعب التركي وترجم للخلفاء الأمويين .

تطلعنا من خلال الفصل الأول للتعريف بفن الترجمة في بلاد المشرق، و بعدها في بلاد المغرب، و قبلها عرفنا الترجمة لغة و اصطلاحا لتوضيح أي التباس قد يحدث في المفاهيم، كما فرقنا بين مجموعة من المصطلاحات (الترجمة، التاريخ، السيرة) ،كان الكثير يظنها واحدة إنما هي تأخذ من بعضها، فالتاريخ يأخذ من الترجمة و السيرة، و هما تأخذان منه الكثير، و انتشار فن الترجمة في المغرب و المشرق كان

---

40) - ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س.كولان وليفي بروفنسال، ج 1، ط 2، دار الثقافة، بيروت- لبنان، 1980، ص 4.

41) - المرجع نفسه، ص 60.

42) - ينظر محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي ، الشركة الوطنية للنشر للتوزيع، الجزائر،1978.

كبيرا، فاخترنا نماذج لأشهر الكتب في فن التراجم بالمشرق ، و المغرب، وعّرفنا بها لتكون تمهيدا جيدا للدخول لفن الترجمة في الأندلس في الفصل الموالي.

الفصل الثانـي

فن التراجم في الأندلس.

أولا: الأندلس في ظل الإسلام.

ثانيا: تاريخ التراجم في الأندلس.

ثالثا: المنهج و الخصائص للتراجم الأندلسية.

أولا: الأندلس في ظل الإسلام

يشهد التاريخ الإنساني أن العرب قد أسسوا حضارة عظيمة في شبه جزيرة أيبيريا، امتدت على مدى ثمانية قرون، بدء من فتحهم للأندلس سنة 711 م الموافق ل 92 هـ، و استمر حتى خروجهم منها سنة 1492م، و تجلت جوانب الحضارة العربية في هاته المنطقة بإنتشار العلوم، و الفنون، و العمران، مما جعلها مركز إشعاع في كامل أوروبا و المشرق، و محجة لطالبي العلم فيها، ولم يتوقف تأثير العرب على الثمانية قرون، إنما تجاوزها إلى أبعد من ذلك، فقد أثبت المؤرخ رفائيل لابيسا في إحدى دراساته أن ربع اللغة الإسبانية تقريبا من أصل عربي[43].

و ما يهمنا في دراستنا فترة الخمسة قرون الهجرية الأولى للحكم العربي في الأندلس، و ما وقع فيها من أحداث؟ و كيف أثرت على الفكر؟ وما الذي قدمته من نتائج؟

1- عصر الولادة(92-138هـ): قاد حملة الفاتحين للأندلس طارق بن زياد، و انتصر على لذريق سنة 92هـ، و أول من تولى الحكم فيها عبد العزيز بن موسى بن نصير، و استمر المسلمون في الجهاد، و حماية الثغور، ثم اختلف الأمر على البلاد زمانا، فلم يستقر حكمهم على وال حتى يقتل، ويحل محله آخر، حتى يوسف بن عبد الرحمان الفهري، أخر ولاة المسلمين بالأندلس، وبه وصل عدد الولاة إلى ثلاثين واليا.

و فيما يتعلق بالأدب، كانت هناك حركة شعرية مشرقية شكلا و مضمونا، فقائليه طارئين على الأندلس، و لم يكونوا قد استطاعوا التأقلم بعد مع البيئة الجديدة التي حلّوا بها، ويصطبغوا بصبغتها و هذا ما يفسر عدم ظهور آية آثار للبيئة الأندلسية في شعرهم، بينما حافظوا على نفس الأغراض و القواميس اللغوية الموجودة في المشرق فذكروا نجد، و تهامة و غيرها من المفردات و الأماكن الموجودة في المشرق، والبعيدة كثيرا عن بلاد الأندلس.

2- عصر الإمارة (138- 300هـ): بدأت فترة الإمارة بمجيء عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى الأندلس، و الذي تولى زمام الحكم فيها بعدما حارب الوالي يوسف بن أبي عبيدة الفهري، و دخل يوم عيد الأضحى في نفس العام، و اتصلت ولايته إلى أن مات سنة 173هـ، و كان أديبا فذا و شاعرا مجيدا، ومن شعره متشوقا إلى مرتعه بالشام قوله[44]:

أَيُهَا الرَاكِــبُ المُيَمِـــمُ أَرْضِ	**إِقرَأْ مِنْ بَعْضِ السَـــلاَمَ لِبَعْضِ**
إِنَ جِسْمِيْ، كَمَا عَلِمْـــتَ بِأَرْضِ	**وَ فُؤَادِيْ وَ مَالِكِيْـــهِ بِأَرْضِ**
قُدِّرَ الْبَـــيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَـــا	**وَ طَـوَىَ البَيْنُ عَنْ جُفُوْنِيْ غَمْضِـيْ**
قَدْ قَضَى اللهُ بِالفِــرَاقِ عَلَيْنَـــا	**فَعَسَـــى بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِـيْ**

[43] - سلمى الحفار الكزبري، ربع مفردات اللغة الإسبانية من أصول عربية، العربي، عدد 530، يناير 2003، ص 90.
[44] - الحميدي(أبو عبد اله بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي)، جذوة المقتبس، تح: صلاح الدين الهواري، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ص 9.

أقبل الأندلسيون في زمانه على تعلم اللغة العربية التي أصبحت تصور مشاعرهم، و تعبر عن خواطرهم ثم أخذوا بعد ذلك يتنافسون بها، فبدأت النماذج الشعرية المتشبعة بالروح الأندلسية بالظهور، خاصة مع نهايات القرن الثاني الهجري حيث برق ضوء الشاعر الغزال (ت 250هـ) كل أرجاء البلاد إلى أن جاء زرياب، الذي أحدث ثورة اجتماعية، و فنية بتأسيسية لمجالس الطرب، ونوادي تعلم الموسيقى، وحظي بمكانة مرموقة، مما أشعل نار الغيرة بينه و بين الشاعر الغزال، الذي نفي إلى المشرق بسببها.

و انتشار الرحلات لجلب الكتب، و المعارف المتنوعة كان من أهم العوامل أيضا لازدهار حركة التأليف في الفنون المختلفة، والشعرية بخاصة، و استمر فيها بروز التيار المحافظ المهتم بالموضوعات التقليدية، من فخر، و مدح، و هجاء و غيرها و من الجانب الشكلي كانت الصور متنوعة، و الألفاظ جزلة، و العبارات فخمة، وسارت القصيدة على منوال القصيدة القديمة تماما.

و برز تيار التجديد في مقابل التيار المحافظ ، الذي طرق موضوعات جديدة كالزهد، و التصوف، و المجون، و الغزل بالمذكر، أما من ناحية الأسلوب فكانت ألفاظه سهلة و سلسلة، و بحوره قصيرة، رقيقة القوافي، و استقلت معه القصيدة أيضا بموضوع واحد متخلصة من تعدد المواضيع، و قد حكم في هذه الفترة سبعة حكام على مدى 162 سنة.

3- عصر الخلافة (300- 422هـ): تولى عبد الرحمان الناصر حكم بني أمية في سنة 300هـ، فتسمى بالخلافة عندما بلغ الضعف بدولة العباسيين في العراق أيام المقتدر، فتسمى بأمير المؤمنين، تلقب بالناصر لدين الله، وشهدت الأندلس على أيامه و أيام ابنه الحكم المستنصر قمة ازدهارها و رقيها في المجالات الاجتماعية، و السياسية، و الأدبية، ووصلت حياة الترف، و البذخ من المشرق إلى الأندلس، و اكتسبت وحدتها السياسية بعد القضاء على العنصرية العربية، و الإسبانية، و البربرية معا، مما فتح الباب للنهضة العربية لتنطلق بكل حرية، و قد دخلت دواوين أشهر شعراء المشرق، و أصبحت مكتبة الخليفة الحكم المستنصر آنذاك أكبر، و أزخر مكتبة في العالم العربي بعد مكتبة بغداد، فقد ضمت الكتب الأدبية، و الدينية، و الفلسفية و غيرها.

كما ظهرت أيضا نزعة في هذا العهد تبين مدى وعي الأندلسيين بقيمتهم، و مدى استقلالهم عن المشرق، فكل بيئة تفرض نفسها على أدبائها، و علمائها، و قد طرق الشعراء في هذا العصر معظم الأعراض الشعرية من مدح، و فخر، و هجاء و غيرها، أما من ناحية النثر فقد برز في هذه الفترة النثر التأليفي، والكتابة في التاريخ، و كتابات التراجم و نشاط الحركة النقدية.

كثرت الفتن في نهاية هذا العهد، و بعد وفاة الحكم المستنصر، و غلبة الحاجب المنصور بن أبي عامر على ابنه هشام المؤيد لحداثة سنه نشأت الفتنة البربرية، وكان آخر عهد الدولة الأموية بوفاة هشام المؤيد سنة 403هـ.

4- **عهد ملوك الطوائف** (422- 484 هـ)**:** ثارت بعد وفاة هشام المؤيد الفتنة البربرية تنخر في جسد الدولة الأندلسية،كما ينخر السوس في العود، ممزقة التماسك الظاهري الموحد الذي سعى المنصور بن أبي عامر كثيرا ليحافظ عليه، فقام يضرب الأقليات ببعضها، و أجج العصبيات الكامنة تحت الرماد، بتقريب إحداها على الأخرى، ردءا للمؤتمرات و الدسائس التي خافها أن تقوض عرش دولته، التي ورّثها لابنيه المظّفر و عبد الرحمان شنجول، اللذان لم يستطيعا الحفاظ عليها، و انقسم الثغر الغربي الذي كان بحاجة ماسة لربط أواصره، و توثيق عراه.

تفككت و تحولت الدولة إلى دويلات، و استقل بكل مدينة صاحبها ليمنح نفسه لقب الأمير، و ليسعى في بناء الجيوش و الحصون، و يهاجم أقرب إمارة إليه خوفا من مهاجمة أميرها له، فغدت مشكلة الحدود الداخلية أهم مشاغلهم، و أكبر همومهم، و لم يبق لذلك كانوا يفزعون،إما لصاحب الروم في الشمال أو للمرابطين في الجنوب، و لم يبق من شخصية الإمبراطورية الإسلامية في الأندلس سوى أطياف تهيم في أركان مدنها الخاوية على عروشها.

ومن أهم و أشهر الدويلات التي انتشرت في عهد ملوك الطوائف[45]:

1- **موالي العامرية (429-505هـ):** حكمها المؤسس الأول خيران العامري، و كانت حدودها تمتد من المرية، و مرسية، و بلنسية و دانية، و ما والاها من الجزائر الشرقية، انقسمت المدينتين فيما بعد بين بني صمادح (433- 484هـ)، و بني طاهر (429-471هـ)، أما مدينة دانية و الجزائر فكانت لمجاهد العامري (400-468هـ).

ب- بنو زيري الصنهاجيون (422- 484هـ): نظمها حبوس بن ماكسن، امتدت حدودها بين غرناطة و مالقة، لتتوسع على حساب بني عباد، و بني حمود فستولى على مدينتي إشبيلية، و مالقة انتهت بمجيء المرابطين سنة 484هـ.

ج - بنو الأفطس (1022- 1094م): أسسها محمد بن الأفطس الملقب بالمظفر، سادت بطليوس، و هم من البربر أصلا، اشتبك مع بني عباد، وبني ذي النون، و التاريخ يشهد له بمواجهته لفرديناند الأول ملك قشتالة، و كانوا من رعاة الأدب و العلوم.

د - بنو ذي النون (427- 478هـ): أسسها إسماعيل بن ذي النون الملقب بالظافر حوالي (427هـ- 1036م)،كانت في مدينة طليطلة ساد النزاع بينها و بين بني هود، و بني عباد، و انتهت بسيطرة ألفونس على المدينة سنة 478هـ.

هـ- بنو رزين أصحاب السهلة: مؤسس الدولة هذيل بن عبد الملك شنتمرية، و لما استولى المرابطون على شنتمرية عام 497هـ خلفوا ملكهم، و ضموا المدينة إلى حكمهم.

---

[45] - إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين، ط 8، دار الثقافة، بيروت، (د، ت)، ص 12-31.

و- بنو عباد اللخميون (414- 484هـ): مؤسس الدولة القاضي إسماعيل بن عبد عباد، و توسعت من إشبيلية إلى أن أصبحت أكبر دولة من دول الطوائف، من شرقي الوادي الكبير حتى المحيط الأطلسي غربا، و الجزيرة الخضراء جنوبا، وضغط ألفونس على المعتمد فدفع له الجزية،و بعد سقوط طليطلة اضطرا إلى الاستعانة بالمرابطين.

ي- بنو هود الجذاميون: أسسها سليمان الهودي على أنقاض دولة التجيبيين سنة 440هـ، و بعد موت سليمان قسم الدولة إلى خمسة مماليك متباعدة بين أبنائه الخمسة.

ك- بنو حمود الحسنيون (408- 449هـ): رشحوا للخلافة بقرطبة، فأصبح علي بن حمود الخليفة بقرطبة، و توالت الفتن بينه و بين ابن أخيه، ضمت مالقة، و إشبيلة و غيرها، و الحموديون كانوا عربا و لكن اعتمادهم كله كان على العناصر البربرية أو السودانية.

ع- بنو جهور (1031- 1069م)[46]: أول القائمين بالدولة كان أبو الحزم بن جهور باختيار من رعاياه في قرطبة، و تشمل مدن أخرى دون قرطبة مثل: جيان، و بياسة، و أبدة، و سقطت دولتهم بعد سقوط المدينة في يد العباديين.

هزت كل من هذه الفتن، و الانقسامات أصحاب العقول الواعية المدركة للخطر الداهم، من فقهاء، و مؤرخين، و شعراء، فهبوا للتعبير عن ذلك، و استنهاض الهمم، و توحيد الكلمة على إمام واحد يجتمع له أمر الأمة، وبناء المدن المهدمة، و تحرير المأسورة منها، و رثاها الشعراء، و بكوا على أمجادها، و حكامها، لكن الأمور كانت لا تلبث أن تعود لمجراها، و سياقها العادي، فالمد كان أقوى منهم جميعا، فكتفوا بالدهشة و التألم و العودة إلى الصحف لتدوين كل هذه النكبات، و نقل كل هذه الجراح فلا سبيل لهم غيرها.

شهد هذا العصر- ملوك الطوائف- أبرز نهضة علمية، و أدبية بسبب تنافس أمراء القطر لاستقطاب العلماء، و الشعراء، و الأدباء لتكوين مجالس سمر، و أنس تضاهي التي كانت في قرطبة أيام مركزية الدولة الأموية المنهارة نهائيا بعد موت هشام المؤيد سنة 422هـ، ومن أبرز فقهائها نجد: ابن حزم الظاهري، و من مؤرخيها: ابن حيان القرطبي، ومن شعرائها نجد: ابن زيدون.

5- عهد المرابطين (484- 541هـ): بدأ عهد المرابطين بعد النكبات المتوالية على بلاد الأندلس، و انحصار المنطقة من جهة الشمال بالضغط الإسباني، و المنطقة الجنوبية من المرابطين، الذين اضطر الأندلسيون إلى الاستعانة بهم لحماية الثغور الأندلسية، و محاولة إعادة المدن التي بدأت تنهار أمام الاكتساح الإسباني، و فقدت الأندلس في هذه المرحلة استقلاليتها كدولة، و أصبحت تابعة للمغرب بدءا بمجيء يوسف بن تاشفين، ثم خلفه ابنه علي، ثم تاشفين ابن علي الذي ثار عليه الموحدون، و

---

[46] - ملوك، الطوائف، ويكبيديا، الموسوعة الحرة، www.google.fr .

انتزعوا منه السلطان. يقول يوسف الطويل: «**اختفى البلاط الأدبي من الوجود و انتقل إلى مراكش عاصمة العدوتين معا، لان الأندلس آنذاك قد تمغربت و أصبحت مقاطعة تابعة للمغرب**» (47)

بقيت الأندلس محافظة على استقلالها العلمي، و الأدبي عن بلاد المغرب رغم سيطرة الأخيرة على الأندلس سياسيا، و عسكريا، فقانون ثقافة الغالب هي التي تسود ليس أمرا مطلقا، فكبار علماء و أدباء الأندلس هم من كان يسير أكثر البلاطات في بلاد المغرب مثل ما حدث بالضبط للإمبراطورية الرومانية التي سيطرت على معظم أوروبا، و غرب آسيا، و ضفاف حوض البحر الأبيض المتوسط لعدة قرون لكن الثقافة اليونانية هي التي بقيت سيدة الموقف.

تطورت في هذه المرحلة أشكالا أدبية متنوعة، و مختلفة شكلا، و مضمونا، فلقي الموشح تشجيعا و انتشارا على يد كبار الوشاحين أمثال: الأعمى التطيلي، و ابن بقي، كما ظهر إلى السطح الغناء الشعبي من خلال ظهور الزجل، ووصوله إلى مرحلة النضج في هذه الفترة على يد ابن قزمان أكبر زجالي الأندلس على الإطلاق، و استعاد الشعر عافيته في بلاط يوسف بن تاشفين، و لسبب مهم أيضا انتشر نوع شعري جديد عرف برثاء المدن، و الدول المنهارة، مما فسح المجال لتطور حركة التصوف، و كبار رواده أمثال: ابن عربي و ابن سبعين، و ثورة الحركة الدينية ضد الفلسفة و الفلاسفة على الرغم من تطور الفلسفة و بقوة في هذا العصر، ومن أشهر الفلاسفة: الطبيب و الموسيقي المشهور ابن باجة، على الرغم ما اتسمت به من التعصب الديني الذي يرفض الحديث في أمثال تلك القضايا الفلسفية التي يرونها تسيء للدين الإسلامي، و العقيدة الصحيحة.

و يمكن تقسيم المراحل التاريخية التي مرت بها الأندلس منذ فتحها، و إلى نهاية القرن الخامس الهجري إلى مرحلتين كبيرتين على أساس اتخاذ تطور الحركة الأدبية و الفكرية:

1- تبدأ المرحلة الأولى من مرحلة الفتح إلى نهاية مرحلة الإمارة، وكانت عبارة عن بدايات لتأسيس العقلية الأندلسية المستتبتة في الأرض الغربية، و المتأثرة بالعقلية المشرقية لأبعد الحدود من نقل للكتب، و نسخها، و الرحلات العلمية المختلفة، و الأخذ عن المشايخ، و استجلاب الدواوين، و استقطاب للعلماء المشارقة أمثال: صاعد البغدادي، و أبي علي القالي.

2- تبدأ المرحلة الثانية من مرحلة الخلافة إلى نهاية القرن الخامس الهجري تقريبا، و التي عاشت فيها الأندلس أزهى عصورها الأدبية، و الفكرية، و إنتاجاتها التي شغلت المشارقة، و المغاربة، و الأسبان قديما، و حديثا، مؤثرين بعد ما كانوا متأثرين، ومن مظاهر ذلك ما أخذوه عن الأندلسيين الزرزوريات، و الرسائل،

---

(47) - يوسف الطويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، دار الفكر اللبناني، بيروت- لبنان، 1991، ص 14.

و الرحلات الخيالية مثل: رحلة ابن شهيد الأندلسي، و الموشحات التي ظهر تأثيرها عند الأسبان من خلال شعر التروبادور.

ثانيا: تاريخ التراجم في الأندلس

يعد تاريخ الأدب الأندلسي في القرن الرابع الهجري وحتى الخامس حافلا بتراجم الرجال على أنواعها سواء منها العامة أو الخاصة، وقبل التطرق للحديث عن تفصيلاتها، يجدر بنا إلقاء الضوء على ظاهرة التراجم في القرون الثلاثة التي سبقت مرحلة الدراسة، لنستطيع مناقشتها وإصدار الأحكام عليها بكل موضوعية

1- بدايات كتابة التراجم في القرون الهجرية الثلاثة الأولى: لم يكن ميلاد أي علم أو فن من فراغ بل يبدأ بإرهاصات أولية تمهد لمرحلة نضجه واستقلاليته، وقد أجمعت دراسات البحث التاريخي في الأندلس على أن المدرسة الأندلسية،قد استمدت مادتها الأولى، وأخبارها، ورواياتها من المؤرخين المصريين الأوائل أمثال: موسى بن علي بن رباح (ت 168 هـ)، نقلا عن أبيه الذي صحب موسى بن نصير في فتحه للأندلس، وعبد الله بن لميعة (ت 174هـ)، والليث بن سعيد (ت 175هـ)، وعبد الله بن وهب (ت 197هـ)، وسعيد بن غفير (ت 226هـ)، صاحب كتاب "أخبار الأندلس" الذي وصلتنا منه مقتبسات في مجموعة من الكتب القديمة، مثل: كتاب "فتوح مصر" لابن عبد الحكم، و"رياض النفوس" للمالكي،و"الإكمال" لابن ماكولا.

أ- عبد الملك بن حبيب

يعد عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة بن عباس المرداسي السلمي الألبيري القرطبي أول مؤرخ أندلسي [48]، يكنى أبو مروان، ولد سنة 174 هـ درس في ألبيرة، وقرطبة،ثم رحل للحج، وواصل دراسته في مكة والمدينة ومصر مع كبار فقهاء المالكية، كان فقيها، ومؤرخا و طموحا،وله من المؤلفات ما يقارب الألف كتاب،توفي في سنة 238هـ، يقول عنه محمد بن عمر بن لبابة: **«عبد المالك بن حبيب عالم الأندلس وعاقلها»** [49].

وضع كتابا يتناول فيه تاريخ الأندلس وسماه "بالتاريخ"، وبدأه بمقدمة مطولة في التاريخ العالمي، وتاريخ الأنبياء، والسيرة النبوية، والخلفاء الراشدين إلى أن وصل للحديث عن الأندلس بإيجاز متأثرا

بالمدرسة التاريخية المصرية، يقول فؤاد سزكين: **«زعم دوزي** [*] **في Dozy Recherches الذي تناقله كثيرون أن الكتاب ملفق أو أن تلميذه ابن الرقاع هو مؤلفه»** [50].

---

[48] - ترجم له: ابن الفرضي(أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي)،تاريخ علماء الأندلس،ج 1،ط 2،مكتبة لخانجي، القاهرة، 1988، ص 312، الحميدي، جذوة المقتبس،ص 282-284،بن سعيد، المغرب في حلى المغرب،تح :شوقي ضيف،ج 2، ط 1، دار المعارف المصرية، القاهرة، ترجمة رقم 407، ص 96.

[49] - ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج 1، ص 315.

[50][*] - دوزي: مستشرق هولندي (1820- 1883م).

- فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي،تر:محمود فهمي حجازي، فهمي أبو الفضل، ج 1،ط 1،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،1977،ص 587.

يحمل رأي المستشرق دوزي نوعا من النظرة القاسية أو الإجحاف في حق حبيب باعتبار كتابه هذا المحاولة الأولى في ميدان البحث التاريخي- التاريخي العام- التي تكون عادة تعاني من نقائص كثيرة سواء من ناحية جمع المادة، أو المنهج المتبع في تنظيمها، صحيح أن ابن حبيب أورد في كتابه مقدمة في التاريخ العالمي، بدءا بتاريخ الأنبياء، والرسل، وسيرة النبي الكريم محمد(صلى الله عليه وسلم)، أما الجزء الأندلسي فاقتصر على ذكر الفتح العربي لها، ومن دخلها من الفاتحين ; أي أن ترجماته كانت محدودة جدا وقليلة، وطريقة التدوين هذه لا تعيبه أبدا، ولا تنقص من قيمته كمؤرخ فشأنها شأن طرق التدوين في الكتب الإسلامية المبكرة كتاريخ الطبري.

لا نجد في فترة الثلاثة قرون الأولى إلا كتاب "التاريخ" لابن حبيب، مع أن هناك مؤرخين، وأصحاب تراجم من القرن الثالث امتد بهم العمر إلى القرن الرابع هجري، ولم نذكرهم في هذا الإطار الزمني بسبب تاريخ ظهور مؤلفاتهم في التراجم في القرن الرابع الهجري لا الثالث، وبالتأمل في هذه الفترة يتجلى لنا سبب عدم وجود هذا النوع من التأليفات.

كما نعرف تم فتح القطر في سنة 92 هـ ; أي لم يبق من القرن الأول الهجري إلا ثماني سنوات، وهي بدايات التوغل في الأرض الأندلسية، وفتحها الذي استمر حتى منتصف القرن الثاني للهجرة تقريبا، وعرفت بمرحلة الإمارة حيث كان التركيز فيها على ترسيخ قواعد الحكم الإسلامي في المنطقة، وحماية الثغور الجديدة، وتكالب رجال القبائل الفاتحة على كرسي الحكم إلى مجئ عبد الرحمن بن معاوية وتوليه لحكم الأندلس سنة 138 هـ، واستمر في الفتوحات، وإنهاء كل الفتن، وبداية تأسيس دولة إسلامية موحدة، تعيد أمجاد دولة بني أمية المنهارة في المشرق، و تنافس بغداد، فاستقطب العلماء من كل مكان، واشترى الكتب بأغلى الأثمان،وجمع أحسن الكتّاب لنسخها، ونشرها، في الأندلس،واستمر أبناؤه، وأحفاده على نفس المنوال حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

تعتبر مرحلة نقل، وتأثر بالمشارقة الذين كانوا في حد ذاتهم لم تنضج لديهم فكرة كتابة التاريخ، و التراجم، وما كان منها من محاولات فكما سبق وقلنا نقلا لما هو موجود في المشرق، وما لم ينقل فقد أخذه العلماء الأندلسيون عن المشارقة من خلال رحلاتهم للحج، وطلب العلم، والمعرفة، والأخذ عن الشيوخ مباشرة.

2-فن كتابة التراجم في القرنين الرابع والخامس الهجريين:يعود أقدم كتاب في التراجم الأندلسية بالنسبة للقرن الرابع الهجري حسب الدراسات المتخصصة في الأدب الأندلسي، لعثمان بن ربيعة، نتعرف عليه، ثم نحاول أن نلم بعده بالمصنفات في هذا الفن بالبلاد الأندلسية حتى نهاية القرن الخامس الهجري:

أ-عثمان بن ربيعة: لم تذكر فيه كتب التراجم والمختارات، إلا الاسم، وتاريخ الوفاة، واسم الكتاب، ولكن المفكر الإسباني جنثالث بالنثيا [51] يذكر أنه قرطبي، وأنه صاحب الكتاب الذي توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة فاس، وتوفي سنة 310 هـ.

ب-أبو الفتح بن فارس بن عيشون: [52]هو قاسم بن نصير رقاص بن عيشون بن سليم بن حريش بن ايوب، بعرف بابن أبي الفتح، من أهل شذونه (*)، يكنى أبو محمد، عاش حياته الأولى في مسقط رأسه، وأخذ العلم عن مشايخها،ثم رحل إلى قرطبة وسمع من: محمد بن عمر بن لبانة،وأحمد بن خالد ،وقاسم بن أصبغ.

عرف بفقهه وعلمه الوفير، كان لغويا ونحويا،وشاعرا مجيدا، لا يشق له غبار، مقبلا على الدنيا التي تخلى عنها فيما بعد، فأكثر من شعر الزهد، وذم الدنيا، وتذكير الملوك،ووعظ الغافلين،والدعوة للتقوى،توفي في حدود سنة 338هـ،لم تذكر له كتب التراجم من المؤلفات إلا:

***ديوان شعره:** كتب جزءا من ديوانه في شذونة، والجزء الأخر أكمله في قرطبة، وغلب على موضوعات ديوانه الزهديات باعتباره هجر الدنيا، وفارق ملذاتها، وترفع عن نزواتها، وغلب نفسه الأمارة بالسوء.

***كتاب الشعراء من الفقهاء بالأندلس:** ما جاءنا إلا القليل عن هذا الكتاب في كتب المصادر الأندلسية التي تعرضنا لها،يعتبر من كتب التراجم الخاصة بموضوع واحد، و التي ظهرت مبكرا في الأندلس رغم استمرار وجود كثير من التراجم العامة التي تجمع بين الفقيه، والشاعر، والأديب والمحدث، والوالي وغيره.

تناول الكتاب الشعراء من الفقهاء ويظهر ذلك من خلال العنوان، فهو عند حديثه عنهم لا يذكر المسائل الفقهية أو الفتاوى التي صدرت عنهم بل اكتفى بما قالوه من الشعر سواء كمتون تعليمية، أو تعبيرا عن مواقف حياتية أو ما شابه ذلك.

ت-ابن سعيد الخير المرواني [53]: الاسم الكامل للمؤلف هو محمد بن هشام بن عبد العزيز بن محمد بن سعيد الخير بن الأمير الحكم بن هشام أبو بكر من بني مروان من العائلة الحاكمة في الأندلس، عرف بوقاره، وجلالة المكانة في الميادين السياسية، والعلمية، اشتهر بميله للأدب وقول الشعر، عاش أيام الناصر عبد الرحمن بن محمد، يقول عنه صاحب البغية: **«أديب مشهور بالتقدم في الأدب،يقول الشعر بفضل أدبه، فيكثر ويحسن،...وله كتابه ألفه في أخبار الشعراء بالأندلس»**[54]

كما يظهر من هذا القول نرى أنه صاحب علم كبير، وذوق متميز، وإحساس مرهف،فأكثر ما قال في الشعر كان في الرياض، والورد وغير ها من مناظر الأندلس الطبيعية الخلابة،توفي سنة 340هـ.

---

[51] - جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس،ط 1،القاهرة،ص 285،الحميدي، جذوة المقتبس ترجمة رقم 701، ص 305.

(*)-شذونه: بفتح أوله، و بعد الواو الساكنة نون، مدينة بالأندلس، تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 3، دار صادر، (د، ت)، ص 329.

[52] - ينظر: ابن الفرضي ترجمة رقم 405،1069، ص 405.

[53] - الحميدي،جذوة المقتبس،ترجمة رقم:156، الضبي، بغية الملتمس، ترجمة رقم:298.

[54] - الضبي،بغية الملتمس،ص 130.

***أخبار الشعراء بالأندلس:** ترك لنا ابن سعيد الخير المرواني مؤلفا بعنوان أخبار الشعراء بالأندلس،ولم تزد كتب التراجم على ذكر اسم الكتاب، لكن من خلال العنوان نرى أنه في ترجمات الشعراء الأندلسيين الذين عاصرهم، ومن قبلهم بفترة زمنية، فهذه طبيعة هذا النوع من الكتب، فذكر مختارات شعرية للشعراء المترجم لهم، والأرجح أنها في شعر الطبيعة،حسب ميوله الخاصة.

وما جعل كتابه متميزا وثريا عيشه في القصر ومخالطته المباشرة للحكام، والشعراء في بلاط الحكم الذي انتمى إليه.

ث-**أسرة الرازي القرطبية:** كان لأسرة الرازي في الأندلس الدور الكبير، والمؤسس لحركة تدوين التاريخ الذي توارثته العائلة تسجيلا منذ جدهم محمد بن موسى (ت 273هـ).

ويعد أحمد بن محمد بن موسى بن بشير بن حماد بن لقيط الرازي الكناني من أهل قرطبة ويكنى أبو بكر، أبا للتاريخ في الأندلس وفي هذه العائلة بالذات، ولد بالأندلس سنة 274هـ، يقول عنه ابن الفرضي: **«سمع بالأندلس من احمد بن خالد، وقاسم بن أصبغ وغيرهما، كان كثير الرواية ،حافظا للأخبار وله مؤلفات كثيرة في أخبار الأندلس وتواريخ دول الملوك فيها»**(55).

أخبرنا ابن الفرضي أنه كتب الكثير في تاريخ الأندلس، لكنه لم يأت على ذكر أي عنوان من مصنفاته أثناء الترجمة له، بينما صاحب الجذوة يخبرنا بأن له العديد من المؤلفات التاريخية التي تخص ملوك الأندلس، وقرطبة، والأنساب، ومشاهير أهل الأندلس(56)، ومن أشهر كتبه التي وصلت إلينا:

***أخبار ملوك الأندلس:** غطى كتابه الكبير كل العصور التاريخية حتى العصر الذي عاش فيه، فذكر الملوك بالأندلس، وأخبارهم،وخدمتهم ورحلاتهم، وغزواتهم، ومنازل العلماء بها، وعنايتهم بالأدب ورجاله.

لم يصلنا الكتاب كاملا، فالجزء الكبير منه ذهب نتيجة ما تعرضت له البلاد من نكبات وأحداث محزنة، وما بقى منه إلا القليل من الاقتباسات التي أخذها مؤرخون من الأندلس أو من المشرق في مؤلفاتهم: كابن حيان (ت 469هـ)،وابن الآبار (ت 658هـ)، والمقري(1041هـ)، كما وجدت له نسخة مترجمة إلى القشتالية والبرتغالية،فحاول ليفي بروفنسال إعادة جمع الكتاب، وتكوينه اعتمادا على المقتبسات والترجمة (57).

خلف أحمد بن موسى الرازي على عرش تدوين التاريخ وفن التراجم في أسرة الرازي ابنه عيسى بن أحمد بن محمد الرازي القرطبي (ت 379هـ)، لم يكتف بإكمال ما بدأ به والده بل أضاف كتابا تاريخيا قيما أهداه للخليفة المستنصر (ت 350هـ)، وكتابه هذا مفقود.

---

(55) - ابن الفرضي،تاريخ علماء الأندلس، ص 54.

(56) - ينظر الحميدي، جذوة المقتبس،ترجمة رقم 175.

(57) - فؤاد سزكين،تاريخ التراث العربي،ج 1،ص 588.

ويتجلى من خلال المقتبسات،والنصوص الباقية منه في كتاب ابن حيان القرطبي "المقتبس"،وكتاب ابن عذارى المراكشي "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"،وكتاب ابن الآبار "الحلة السيراء" وغيرها.

واتبع في جمع مادة كتابه طريقة الحوليات، فقد رتب الأحداث على حسب السنوات الهجرية لكن هذه الطريقة لم تمنعه من الاسترسال في نقل أخبار عامة تتعلق بنواحي الحياة في الأندلس، وذكر العمران وله كتابين آخرين الأول خصه بتراجم الوزراء ووسمه بـ" الوزراء والوزارة" والثاني خاص بالحجاب، وأهداهما معا للمنصور بن أبي عامر .

ج-ابن مغيث [58]**:** اسمه الكامل عبد الله بن محمد بن مغيث بن عبد الله الأنصاري من أهل قرطبة عرف بعلمه الوفير، وبقدره الكبير، عاش في كنف الحكم المتسنصر،أصبح ولده أبو الوليد يونس بن عبد الله قاضيا في قرطبة.

تروي كتب التراجم في سبب تأليفه للكتاب،أن الحكم المستنصر عندما عزم الخروج للجهاد سنة 352هـ، طلب من ابن مغيث أن يكون في صحبته في الجهاد،فاعتذر عن ذلك بحجة علة في جسده تمنعه السفر، والغزو،فأعذره مشترطا عليه تأليف كتاب في شعراء بني أمية في المشرق و الأندلس، معارضا به كتاب الصّولي(*) و الذي سماه الأوراق في شعراء بني العباس، فكان له ذلك، ويقول أبو الوليد يونس عن عبد الله القاضي بأنه توفي في نفس السنة أي؛ سنة 352هـ، لم تذكر له كتب التراجم أي مصنف عدا

***شعراء الخلفاء من بني أمية:**عندما خرج الحكم المستنصر للحرب عكف ابن مغيث في دار الملك التابعة للحكم المستنصر، عوضا عن داره للتفرغ التام لوضع كتابه قبل عودة الخليفة من الحرب فكان له الأمر،فخرج الكتاب في مجلد واحد، أخذه عامل الخليفة أحمد بن نصر إلى الخليفة فلقيه في الطريق إلى قرطبة قريبا من طليطلة فسربه، وعدّه الكنز الثمين بالنسبة إليه ; لأنه ضم بين دفتيه أشعار الخلفاء من بني أمية، فحفظها من الضياع، والتلف يقول عنه الحميدي: **«رجل مشهور بالعلم والأدب، جمع في أشعار الخلفاء من بني أمية كتابا أثيرا عند الحكم المستنصر مثل كتاب الصولى في أشعار خلفاء بني العباس ».**[59]

يؤكد قول الحميدي مدى أهمية الكتاب بالنسبة للملك، و بالنسبة لنا أيضا لو وصلنا، و تطلعنا لما يحويه من أخبار عن خلفاء بني أمية، و حياتهم العامة، و

---

(58)- الحميدي، جذوة المقتبس، ترجمة رقم 533، ص 252، الضبي،بغية الملتمس،ترجمة رقم 883، ص 396.

(*)- الصولي: هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول (ت 335هـ)، جده وأهله من ملوك جرجان، وضع كتابه الاوراق في شعراء الخلفاء من بني العباس،وما سهل عليه ذلك إضافة لعائلته أنه كان نديما للخليفة الرضي بالله، كما كان معلمه،ونادم المكتفي بالله و المقتدر، فامتدحهم وأرّخ لهم (ينظر: مي يوسف خليفة، مصادر تراثية ،دار غريب، القاهرة،(دت)، ص 216).

(59) - الحميدي،جذوة المقتبس، ترجمة رقم 2526، ص 253.

الخاصة، ذلك أن ابن مغيث كان نديم الخليفة ومن أقرب المقربين إليه، كما أن الرجل صاحب علم و دين- صاحب خلق- و ما سيأتي على لسانه جميعا سيكون صحيحا، و موثوقا منه.

ح-ابن الفرج الجياني [60]**:** اسمه أحمد بن محمد بن فرج الجياني، يكنى أبا عمرو ينسب أحيانا إلى جده، فيقال أحمد بن فرج، وافر الأدب غزير الشعر ينتمي إلى عائلة عرفت بعلمها، وعلمائها، ورواتها، وإخباريها الكبار، فأخواه عبد الله، وسعيد من كبار الشعراء.

ولد في جيان، وعاش في قرطبة، وقصورها،كان مقدما لدى الحكم المستنصر ،أما عن صفاته وأخلاقه فلا نعرف إلا ما قاله عنه ابن خاقان من كونه شديد الزهو بنفسه،خليعا،ثم نقم عليه الحكم المستنصر فأودعه السجن، و له من الشعر في السجن الكثير، توفي سنة 359هـ، وأثنى عليه ابن بسام في كتاب "الذخيرة" لعلمه الكثير وذوقه المتميز في شعره الشخصي، وفي المختارات الشعرية التي اختارها في كتابه "الحدائق"،وله كتاب آخر لم تزد المصادر الأندلسية على ذكر اسمه "المنتزين والقائمين بالأندلس وإخبارهم".

***كتاب الحدائق:** يعد الكتاب من أشهر المؤلفات التي حوت تراجم الشعراء، ومختاراتهم، ونقطة التحول إذ غلب عليه جانب الأدب أكثر من الأخبار فحسب، قبل يكتفي بذكر الشاعر، والأبيات التي اختارها،فالكتاب قائم في حد ذاته على مواضيع الأبواب التي وصلت مائتي باب في كل باب مائتي بيت معارضا بكتابه هذا كتاب "الزهرة" لأبي بكر محمد بن داوود بن علي الأصبهاني الذي قسمه إلى مئة باب، وكل باب مئة بيت.

ترجع أسباب تأليفه إلى سببين هما إهداؤه للخليفة المستنصر الذي كان يهتم بالعلماء كثيرا ويؤثرهم على غيرهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى افتخاره، واعتزازه بما تنتجه قرائح شعراء الأندلس،فلم يورد فيه لغيرهم شيئا فأحسن الاختيار، وبلغ الغاية والمراد، فترجم للشعراء في المائة الرابعة يقول ابن بسام: **«كان ابن فرج الجياني قد رأى رأيا في النصفه، وذهب مذهبي من الأنفة، فأملى في محاسن أهل زمانه«كتاب الحدائق» معارضا لـ «كتاب الزهرة،للأصبهاني فأعرضت أناعما ألف»**[61]**.**

لم يترجم ابن بسام لعلماء المائة الرابعة تفاديا للتكرار لأنه يرى ابن فرج الجياني قد وفّ حق شعراء وأدباء هذه الفترة، وأدرك قيمتهم،فمكنهم المكانة التي

---

60) - الحميدي،جذوة المقتبس، ترجمة رقم 176، ص 104،الضبي، بغية الملتمس ترجمة رقم 311، ص 120، الثعالبي، يتيمة الدهر،مج 1،ق 2،ص 27.
ابن سعيد،المغرب في حلي المغرب،ج 2،ترجمة رقم 353، ص 34.

61) - ابن بسام،الذخيرة ،ق 1،مج 1،ص 13.

يستحقونها،لم يذكر أحد من المحدثين أنه عثر عليه لحد الآن،فالكتاب كغيره من الكثير من الكتب الأولى في هذا الميدان مفقودة.

خ- الخشني:[62] ذكره الحميدي في كتابه الجذوة، ذاكرا اسمه، وتاريخه، وشيوخه ثم ذكر مؤلفاته، ومن روى عنهم، والكتب التي وضعها، وكل كتب التراجم التي جاءت على ذكره نقلت ترجمته عن الجذوة، إما عن وجهها وإما تلخيصا كمعجم الأدباء.

هو أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد الخشني الأندلسي، يذكر فؤاد سزكين بأن مولده كان في القيروان[63]، ثم انتقل إلى الأندلس، فاستقربه المقام في قرطبة و حظي بمكانة كبيرة في بلاط الحكم المستنصر الذي ألف له مجموعة من الكتب،وعاش من العطارة بعد وفاة الخليفة،توفي أبو عبد الله سنة 361هـ، ترك العديد من المؤلفات منها: في الحديث ككتاب" الاتفاق والاختلاف لمالك بن أنس وأصحابه"،وكتب في فن التراجم الخاصة منها: ما كان خاصا بالقضاة، ومنها الخاص بالفقهاء وأيضا الخاص بالعلماء.

***أخبار الفقهاء والمحدثين:** يسمى أيضا" أخبار الفقهاء بالأندلس"أو "تاريخ علماء الأندلس" وهناك من سماه أيضا "طبقات علماء إفريقية"والتسمية الأثبت"أخبار الفقهاء والمحدثين بالأندلس"، فقد ذكرها الحميدي في كتابه لذا اعتمدناها كتسمية العلماء والمحدثين.

يعد أمير كتب التراجم التي اتسمت بمنهج واضح، فقد خصصه لتراجم المئة الثانية والثالثة الهجريتين،وحوى معلومات دقيقة عن العلماء في الأندلس وماورووه، ونقلوه أثناء رحلاتهم للمشرق، بلغ عدد التراجم في الكتاب ثمانية و عشرين وخمس مائة ترجمة (528)، مقسمة على ثمانية وعشرين مدينة أندلسية،معتمدا في ترتيبهم على أحرف الهجاء، والغالب عليهم تراجم فقهاء قرطبة باعتبارها مازالت تمثل مركزية الثقافة في الأندلس في هذه المرحلة، يقول طه عبد المقصود:**«كان له بعيد الأثر في كثير من المؤرخين الأندلسيين التالين ممن نقلوا عنه كثيرا من النصوص كابن الفرضي وابن حيان، والحميدي والضبي وابن الآبار ومن المشارقة: ابن ماكولا،وابن خلكان».**[64]

توجد نسخة محفوظة من الكتاب لدى محمد بن أبي شنب [*] في الجزائر، وقد نشره بعد تحقيقه وترجمته إلى اللغة الفرنسية ضمن:

.Publications de la faculté des lettres d' Alger, L II , Alger 1916,1921

أعاد بعد ذلك تحقيقها عزت العطار ،اعتمادا على المخطوطة والكتاب المترجم، وطبع بالقاهرة سنة 1954،مما فتح المجال للدارسين المختصين في التراث الأندلسي

---

[62] - الحميدي،جذوة المقتبس ترجمة رقم 41، ص 53،ابن الفرضي،تاريخ علماء الأندلس،ج 2،ترجمة رقم 396 الضبي،بغية الملتمس،ترجمة رقم 95، ص 61،وقد اختلطت ترجمته مع ترجمة محمد بن أبي حجيرة، ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، مج 6، ص 565 .

[63] - فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي،ج 1،ص 589

[64] - طه عبد المقصود،الحضارة الإسلامية،ج 2،ص 852.

[*] - بن أبي شنب: مكتبي جزائري اشتهر بحيازته لكثير من المخطوطات، و نشر العديد منها بعد تحقيقها.

للتعرف على علماء تلك الفترة وأشهر ما امتازوا به دفعا لكل الظنون، والاحتمالات التي تجعل الدراسات عادة تعاني من نوع من الضعف.

ويذكر له الحميدي كتابا آخر "القضاة بقرطبة" ويحوي من خلال عنوانه تراجم لقضاة قرطبة، وتوجد له عدة نسخ مخطوطة في بودليتانا وأخرى في ليدن [65]،وهناك اقتباسات منه في "المقتبس" لابن حيّان القرطبي، و "المدارك" للقاضي عياض،و نشر كل هذا عزت العطار في نفس السنة التي نشر فيها كتاب "أخبار الفقهاء والمحدثين بالأندلس "سنة 1954.

د- ابن القوطية[66]:يكنى أبو بكر واسمه محمد بن عمر بن عبد العزيز،يعرف بابن القوطية، ولد في قرطبة،اشتهر كلغوي متمرس أكثر من أنه أديب،امتاز بموهبة شعرية، سمع من قاسم بن اصبغ،وروى عنه ابن سعد الخير الوشقي، توفي بقرطبة سنة 367هـ.

تكلمت أغلب كتب التراجم، والفهرسة التي تعرضت لابن القوطية على كتاب "الأفعال"،وكتاب" تاريخ افتتاح الأندلس".

***تاريخ افتتاح الأندلس:** تحدث في كتابه هذا كما هو واضح من العنوان، فذكر الفاتحين ومن دخل معهم، والشعراء، والعلماء فهو من كتب التراجم العامة، ظهر الكتاب أول مرة للنور من خلال نسخة باريس 1967م، أعادت طبعه من جديد دار الكتب المصرية بالقاهرة ،ويفترض رابييرا أن هذا الكتاب دونه أحد تلامذته اعتمادا على أقاصيصه،والواقع أن مثل هذه الأقاصيص ولفظه"أخبرنا" إنما تدل على أن تلامذته أخذوا الكتاب عنه لروايته،ويقول عنه الثعالبي: **«من أعلم أهل زمانه باللغة العربية،وأرواهم للأشعار والأخبار»**[67].

رأي الثعالبي هذا يفتح المجال لطرح الكثير من الأسئلة عن التراث الذي خلفه ابن القوطيه، هل كان له من مؤلفات غير هذين المؤلفين؟ وإن كانت موجودة، لماذا لم يذكرها المؤرخون الذين ترجموا إليه؟ أو لماذا لم يترك لنا رجل بهده الثقافة غير هذين الكتابين؟.

ذ- ابن الفرضي [68]: هو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي ، المعروف بابن الفرضي، اشتهر بخطة الوافر في الأدب وكان متقنا عالما، سمع من كثير من علماء، وكبار شيوخ الأندلس منهم: أبو زكريا يحي بن مالك بن عائذ، و محمد بن أحمد بن يحي بن مفرج القاضي،وابن الجزار وغيرهم.

وخرج من الأندلس في رحلة إلى المشرق، فسمع بإفريقية من ابن أبي زيد، و القابسي (أبي الحسن علي بن محمد بن خلف)، وسمع بمصر من أبي بكر أحمد بن

---

(65) - ينظر فؤاد سزكين،تاريخ التراث العربي،ج 1،ص 589.

(66) - الحميدي،جذوة المقتبس ترجمة رقم 111، ص 76، الضبي، بغية الملتمس، ترجمة رقم 223، ص 106، الثعالبي، يتمية الدهر،مج 1،ق 2،ص 74، فؤاد سزكين،تاريخ التراث العربي،ج 1، ص 590.

(67) - الثعالبي ،يتيمة الدهر،مج 1،ق 2،ص 74.

(68) - الحميدي، جذوة المقتبس، ترجمة رقم 537، ص 254، الضبي، بغية الملتمس، ترجمة رقم 888، ص 321، ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة، ص 3-7.

إسماعيل المهندس،وأبو محمد بن ضرار، و سمع بمكة من ابن الدخيل الصيدلاني المكي، و أبي محمد علي بن أحمد، و قال عنه الحميدي أخبرني أبو الوليد بن الفرضي قال: **« تعلقت بأستار الكعبة، وسألت الله الشهادة؛ ثم انحرفت وفكرت في هول القتل، فندمت وهممت أن أرجع، فأستقبل الله ذلك فاستحييت»**[69].

رحل لطلب العلم وإن مات فهو شهيد في سبيله، ويطلب الشهادة أيضا ويلح عليها، في وقت بدأت فيه الأندلس تنهار شيئا فشيئا، فكر في الفوز بالدار الآخرة، وحسن المآب، والقرار المكين، فهو يؤمن بأن كل مذكور سينسى فاختار حسن الذكر في الدارين والفوز بالمقامين.

استفاد كثيرا من رحلته إلى المشرق، فاطلع على علوم الدين من فقه، ورواية، و حديث،كما كان أيضا للمشرق والغربة عن البلاد الأثر الفعال الذي حرك قريحته، فشدت بأحلى الترانيم الشعرية سواء في الحنين أو الشوق والغزل ومن ذلك قصيدة كتب بها إلى أهله أثناء رحلته إلى المشرق، لكن كتب التراجم والمصادر لم تثبتها كلها،منها هذه الأبيات[70]:

مَضَتْ لِي شُهُوْرٌ- مُنْذُ غِبْتُمْ-ثَلاَثَــةً وَمَا خِلْتُنِيْ أَبْقَى-إِذَا غِبْتُمُ-شَهْــرًا

و َمَالِيْ حَيَاةٌ-بَعْدَكُمْ-أَسْتَلِذُّهَـــا وَلَوْ كَانَ هَذَا لَمْ أَكُنْ فِي الهَوى ،حُرًا.

و لَمْ يُسْلِنِيْ طُولُ التَنَائِي، هَـوَاكُـمُ بَلَى زَادَنِيْ وَجْدًا، وَجَدَدَ لِيْ ذِكْـرَىَ

جعل طلب العلم من ابن الفرضي رحالة ينأى عن الأهل والأحبة، وطلب العلم أيضا هو الذي أوصله إلى المكانة العلمية الكبرى في المشرق والأندلس.

كان له الحظ في العودة إلى الأهل والديار على خلاف غيره من علماء الأندلس الذين رحلوا إلى المشرق ووافتهم المنية هناك، اتفقت جل المصادر على وفاته مقتولا سنة 403هـ، أثناء الفتنة البربرية التي جنت على كثير من علماء الأرض الغربية، فمات منهم خلق كثير، ورحل منهم أيضا خلق كثير.

قال أبو محمد: فأخبرني من رآه بين القتلى، فدنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف –وهو في آخر رمق-:**« لا يكلم أحد في سبيل الله-والله أعلم بمن يكلم في سبيله- إلا جاء يوم القيامة، وجرحه ينزف دما، اللون لون دم والريح ريح مسك»**.
[71]

ألف كتابين كبيرين واحد في المؤتلف، و المختلف، وكتاب في تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس:

---

[69] - الحميدي، جذوة المقتبس، ص 255.

[70] - المصدر نفسه، ص 256.

[71] - البخاري (أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل ابن إبراهيم ابن المغيرة ابن بردزبة البخاري الحجفي)، الصحيح، مج 2، ج 3 ط 1، دار الشهاب، 1990، ص 204.

***تاريخ العلماء و الرواة للعلم بالأندلس:** لم يختلف في عنوانه جميع المصادر التي ترجمت لابن الفرضي، فترجم فيه كما هو موضح في العنوان للعلماء، والفقهاء بالأندلس، ورواة العلم، وأهل العناية، والاهتمام بهم.

بدأ كتابه بالترجمة لخلفاء بني أمية من عبد الرحمن بن معاوية وحتى آخرهم هشام المؤيد، اختصارا منه، وتحديدا لمعالم الفترة التي يترجم لعلمائها، ثم تلاها بالتراجم المرتبة على حروف المعجم، بدءا بمن اسمه إبراهيم،خلافا للفكرة الأولى التي أراد فيها أن يجمع كتابا يضم الأخبار، و الروايات، والتراجم بأدق تفاصيلها، ويقسمه حسب المدن، لكنه أعرض عن ذلك تجنبا للطول، والخروج عن أهم أهداف الكتاب.

جاءت تراجمه مكتوبة على أساس ذكر أسماء الرجال، وكناهم، ثم أنسابهم، ثم العلم الذي غلب عليهم خاصة رواية الحديث، وحفظ الرأي، ثم من كانت له رحلة إلى المشرق، ومن سمع منهم، ومن روى عنهم، خاصة من كبار العلماء والشيوخ، ومن ولى منهم خطة القضاء وأشهر مؤلفاته.

ركز ابن الفرضي في كتابه على الإسناد واهتمام به، و استخدمه بطريقة ذكية، فقام في مقدمة الكتاب بوضع أسماء الذين أخذ عنهم، تجنبا لتكرار الأسانيد واكتفى فقط بذكر الأخير يقول: **«وتركنا تكرار الأسانيد مخافة أن تقع فيما رغبنا عنه- من الإطالة-وبينا ها في صدر الكتاب، فما كان في كتابنا هذا عن أحمد –دون أن ننسبه- فهو أحمد بن محمد بن عبد البر، أخبرنا به عنه محمد بن رفاعة، الشيخ الصالح، في تاريخه»**[72].

يظهر من خلال اهتمام ابن الفرضي بالأسانيد مدى أمانته في نقل الأخبار وتدوين التراجم حفظا لها من الضياع، وحفظا لذمة الذين روى عنهم، ونقل من كتبهم، و أضافه لمعلوماته التي وظفها في كتابه وتخص الذين عاصرهم.

ويبين في آخر مقدمة الكتاب رغبته في جمع الكتاب الذي أعرض عنه آنفا، إذا امتد به الوقت وطال به العمر فيقول: **« وأملنا جمع الكتاب الذي تقدم ذكره على البلدان، وتقصي ما اختصرناه في كتابنا هذا-من الحكايات والأخبار –إن تأخرت بنا مدة، وصحبتنا من الله المعونة»**[73].

لم يتسن لابن الفرضي أن يعيش ليجمع مثل هذا الكتاب؛ لأن المنية وافته قبل تحقيق غايته، إلا أن كتابه تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس أفادنا بدرجة كبيرة في الإحاطة بالفترة الزمنية التي ترجم لها والرجال الذين عاشوا فيها، وما تركوا لنا من مصنفات.

ر- عبادة بن ماء السماء:[74] اسمه الكامل عبادة بن عبد الله بن ماء السماء الأنصاري، يذكر ابن بسام أنه من ذرية سعد بن عبادة ،أما ماء السماء فقيل نسبة لجدهم الأول، يكنى أبو بكر، من فحول الشعراء وفرسان النثر، اشتهر بصناعة

---

[72] - ابن الفرضي،تاريخ العلماء و الرواة للعلم بالأندلس، ص 9.

[73] - المصدر السابق، ص 10.

[74] - الحميدي، جذوة المقتبس، ترجمة رقم 662، ص 293، الضبي، بغية الملتمس،ترجمة رقم 1123، ص 282، ابن بسام الذخيرة، ق 1،مج 1،ص 468-470.

التوشيح كأنها لم تنبغ لأحد قبله، يقول عنه ابن بسام: « **كان أبو بكر شيخ الصناعة، وإمام الجماعة سلك في الشعر مسلكا سهلا، فقالت له غرائبه: مرحبا وأهلا وكانت له صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها...وقوم ميلها وسنادها، فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه»**[75]

اهتم ابن بسام بإثبات الكثير من أشعاره في الكثير من الأغراض من مدح، و هجاء، و غزل، ووصف، و غيرها من الأغراض الشعرية، و الغريب في الأمر أنه لم يثبت و لو مقطوعة صغيرة من موشحات عبادة، رغم ما وصفه بها، و ما منحه لهذا النوع الشعري المستحدث في البلاد الغربية، لم يتحدث كذلك عن أي مؤلف للشاعر خاصة كتابه "أخبار شعراء الأندلس" مع أنه نقل ترجمة عبادة عن كتابي "الجذوة" و "البغية" الضبي واللذان أثبتا الكتاب.

ولد في مالقة وعاش في قرطبة، فعاصر الدولة العامرية، و الحمودية، وعرف بمدح رجالها و التشيع لهم، وعاد إلى مالقة، وتوفي بها حسب ابن شهيد في شوال سنة 419هـ، فتم عليها، و يروى عن أبي محمد بن حزم أنه توفي سنة 421هـ، وكلتا الروايتين ذكرتا في الجذوة.

يرجح الحميدي رواية ابن حزم لسببين هما ما عرف من صدقه في الرواية، والثاني المقطوعة الشعرية التي تركها تتحدث عن البرد العظيم الذي كان في ذات السنة ويقول فيها [76]:

يَا عَــبْرَةً أُهْدِيَتْ لِمُعْتَــبِرِ ... عَشِيَــةَ الأَرْبُعَاء مِنْ صَفَــرِ

أَقْبَــلَنَا اللهُ بَأسَ مُنْتَقِــمٍ ... فِيْهَــا وَثَنَى بِعَفْوِ مُقْتَــدِرِ

أَرْسَــلَ مَلْءَ الأكُفِ مِنْ بَــرَدِ ... جَــلاً مَدًا تَنْهَمِي عَلَى البَشَــرِ

سيقول الكثيرون أن المقطوعة قد تكون لشاعر آخر ثم نسبت لعبادة، و الواقع يقول غير ذلك فكل الذين نقلوا المقطوعة الشعرية كانوا من الثقات في الميادين التي عرفوا فيها، و الحميدي بشكل خاص، ويعود ذلك لان كتب التراجم التي أوردت ترجمة عبادة إنما نقلتها عنه بوجهها أو ملخصة أو بتفاصيل أكثر.

***أخبار شعراء الأندلس:** وضع كتابه في تراجم شعراء الأندلس، ولا نعرف شعراء أي فترة ترجم لها، أو المنهج الذي اتبعه في مصنفه فجل المصادر لم تتحدث عنه، وإن تحدثت عنه فمجرد ذكر عابر دون أي تفاصيل.

ز- ابن حيان القرطبي: [77] هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان يكنى أبو مروان، ولد في 377هـ، لم تذكر كتب التراجم عن تفاصيل حياته الكثير فلا نعرف من همم أساتذته؟ ولا كيف تلقى تعليمه؟

والمنطقي أنه تتلمذ على يد كبار علماء قرطبة في ذلك الوقت باعتباره عاش حياة حظوة و تبجيل بخاصة في دولة بني جهور الذين تحدث عنهم بكل خير في

75() - ابن بسام،الذخيرة،ص 368-369.

76() - الحميدي، جذوة المقتبس،ص 293 .

77() - الحميدي، جذوة المقتبس،ترجمة رقم 397، ص 200،الضبي، بغية الملتمس،ترجمة رقم 679، ص 260، ابن بسام الذخيرة ،ق 1،مج 2،ترجمة 13، ص 573.

كتبه، كما يعد من كبار مؤرخي العالم العربي، إن لم نقل زعيمهم،كيف لا وهو بمنزله ابن جرير الطبري، وأقول أنه فاقه لعدة أسباب علمية وتاريخية وموضوعية، و التي سنفصلها في الحديث عن مؤلفاته المتعددة والمتنوعة.

اكتفى الحميدي بذكر اسمه، وكتابه وأدركه قبل وفاته بمدة طويلة قاربت التسعة والأربعين سنة، لذلك لم يسرف في الحديث عنه كثيرا، وجاء الضبي، ونقل عنه الترجمة كما هي بسبب نقله لكتاب الحميدي في كتابه، أما ابن بسام فتكلم عنه، وذكر فصولا كثيرة من كتابه "المتين".

أحدث ابن حيان نقلة نوعية في كتابة هذا النوع من الفن بفضل أسلوبه المنمق، والمسجع، والمأخوذة جل ألفاظه من القرآن الكريم، وكان يعتمد صدق الروايات في تدوينه مجافيا كل كذب أو ريب في الأخبار التي ترد إليه، نتعرف عليها وعلى سمات أخرى من خلال استعراض كتبه في تاريخ الأندلس العام بكتابه المقتبس ثم المتين، وأخبار الدولة العامرية، و البطشة الكبرى، ومجموع كتبه الأربعة يصطلح عليها الدارسون بالتاريخ الكبير، و هذا العنوان ذكره الحميدي في الجذوة، وفيه إشكال سنذكره في محله.

***المقتبس:** يعد كتاب المقتبس من أوائل كتب ابن حيان، واختص في تراجم الرجال، واختلف في عنوانه الكامل، فهناك من يسميه "المقتبس في أبناء أهل الأندلس"، و هناك من يسميه "المقتبس في تاريخ الأندلس"، و رجحت التسمية الأولى عن الثانية و قام محمود علي مكي بإثباتها عندما نشر القطعة الأولى من الكتاب،وتبدأ بأحداث (سنة 262-267هـ)، و تليها القطعة الثانية وتضم أحداث (سنة 275-300هـ)، و قام بتحقيقها، وشرحها، والتعليق عليها إسماعيل العربي، ونشرتها دار الأفاق الجديدة بالمغرب سنة 1990م، ثم القطعة الثالثة المشتملة على أحداث (سنة 300-330هـ)، ونشرت بالتعاون بين المعهد الإسباني العربي للثقافة بالرباط ومدريد سنة 1979م، والكتاب كما هو ملاحظ لم يصلنا كاملا.

ذكره ابن حزم ضمن الكتب التي افتخر بها في رسالته عن الأندلس فيقول:

«ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس تأليف أبي مروان بن حيان نحو عشرة أسفار من أجل كتاب ألف في هذا المعنى، وهو في الحياة بعد لم يتجاوز الاكتهال»[78].

أخطأ ابن حزم في نقل عنوان الكتاب فذكر كتاب المتين، والذي يحمل اسم التاريخ الكبير عوضا على عنوان المقتبس في أخبار أهل الأندلس فجاء بعده ابن سعيد وصحح الخطأ فقال: **«وأما في التواريخ فكتاب حيان المعروف بالمتين في نحو ستين مجلدة، وإنما ذكر ابن حزم كتاب المقتبس وهو في عشر مجلدات»**[79]

---

[78] - المقري (أحمد بن أحمد المقري التلمساني)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (رسالة فضل الأندلس لابن حزم)، تح: إحسان عباس،مج 3،ط 1،دار صادر ،بيروت،1986،ص 174.

[79] - المصدر نفسه، ص 181.

حملت جل كتب التراجم التي ترجمت لابن حيان هذا الرأي وأخطأت في تسيير العنوان مساره الصحيح، فتبادله الكتابان، واتسع هذا الخطأ حتى ضم كتبه الأربعة في التاريخ، وذهب هذا المذهب طه عبد المقصود،والجدير بالذكر أن التاريخ الكبير يخص كتاب المتين وحده حسب ابن سعيد والمقري.

لا يظهر في كتاب المقتبس منهج علمي معين، فابن حيان استخدم منهج الحوليات، فذكر السنين وأهم الأحداث، وتعلق ذلك بالأمور السياسية والعسكرية،كما سرد تفاصيل حياة كل أمير من الأمراء ومن صحبه من العلماء وغيرهم، ونجد منهج الطبقات حاضرا، فذكر الحجاب، والوزراء، والفقهاء و القضاة، و العلماء كل بمواقفه، وهذا من أهم الأساليب المرنة المتميزة التي ساعدت ابن حيان على الانتشار والشهرة والتجديد في مسار الكتابات التاريخية، وتراجم الرجال بخاصة ففصل فيها و طال الحديث.

وأوضح صورة في الحديث عن منهج ابن حيان القرطبي، اتباعه منهج الحوليات الممزوج بالطبقة،فخص رجال كل طبقة بما اشتهروا و عرفوا فيه، مرتبا إياهم حسب السنوات.

***المتين في التاريخ الكبير:** من أضخم كتب التاريخ التي عرفها العهد القديم ضم تراجم الرجال بالإضافة إلى كبار الأحداث التي سادت الفترة المترجم لها، بدءا بالفتنة البربرية سنة (399هـ-1008م) إلى غاية سنة (436هـ-1071م)، وصفه ابن سعيد في تذييله على رسالة ابن حزم، بأنه كتاب كبير يذكر فيه أخبار و أحوال الأندلس في عصر الطوائف بما فيها من أحداث سياسية، أو اجتماعية، أو أدبية عاصرها بنفسه على مدى أربعة وستين سنة.

ضاع الكتاب الضخم المكون من ستين مجلدا، وما يعرف عنه إلا النقول الواردة في طيات كتب من جاء بعده من المؤلفين،بخاصة منهم كتاب الذخيرة لابن بسام الأوفر حظا في نقل نصوص كتاب "المتين"، التي استخرجها عبد الله جمال، وأضاف عليها ما ورد في المصادر العربية الأخرى، وقارن بينها وبين ما وجد في المصادر الأوربية من نصوص قام بتحقيقها، وذلك في إطار تحضيره لشهادة الدكتوراه بالإسبانية سنة 1988م بمدريد،ثم بعدها قام بترجمتها إلى العربية ونشرها.

ونذكر مما جاء في مقدمة كتابه المتين: **«الحمد لله الذي علا في سمائه، وتفرد ببقائه، وتسمى الجبار بجبروته، فله الأسماء الحسنى،والمثل الأعلى، خلق الإنسان علمه البيان،وأجرى بيده فلك القلم العظيم الشأن، فعلمه ما لم يعلم، وأشهده ما لم يحضر، وكرر عليه ما لم يلحق من القرون الماضية،والأمم البائدة وأراه سبيل مطلبهم عن هذه الدنيا الفانية، التي استعمرهم فيها قرنا بعد قرن ليبلوهم فيما آتاهم، لا الآخر بما انتهى إليه عن الأول معتبر، ولا الغابر المار على الماضي مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر إذ كل مقدر كائن وكل مربوب مسخر».**[80]

---

[80] - ابن بسام، الذخيرة، ق 1، مج 2، ص 575.

نرى من خلال هذه الفقرة حدة لسان ابن حيان في الحق، وبصيرته النافذة، وذكاؤه المتوقد، ورأيه الفارق بين الحق والباطل،فهو صاحب حق عظيم، وقلم كريم، وقلب أمين، استخدم الجمل القصيرة، و الأسلوب المركز المشحون بالعبر و الأمثال، أبرزت مدى تحكم ابن حيان في الأساليب البلاغية، وفصاحته التي جعلت الكلام ينساب كالجمان المتلألئ.

أما منهج الكتاب فقسمه حسب المدن والأقاليم، فذكر كل دويلة من دويلات الطوائف وتفاصيل حكمها، ومتى انتهت، ومن عاش في زمانها من علماء، وشعراء، وأدباء، وقضاة وغيرهم، فترجم لهم.

يضاف إلى الكتابين الأولين كتاب" أخبار الدولة العامرية" المتضمن كل ما يتصل بالدولة العامرية على مدى الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري، وكتاب "البطشة الكبرى" وموضوعه النكبة الكبرى التي مرت على دولة بني جهور، وأدت إلى انهيار دولتهم على يد بني عباد الزاحفين إليهم من اشبيلية، وخصص ابن حيان هذا الكتاب لهم لمدى حبه للجهوريين، لما شهدته البلاد في زمانهم من استقرار، وأمان وتطور في الحياة من جميع نواحيها.

س- ابن بسام: لم تمنحنا كتب التراجم النبأ الكافي عن تفاصيل حياته، ولا ذكرها في مقدمة كتابه الذخيرة، فلو ترجم لنفسه لاستنقصنا حميته وحملنا عليه ابتعاده عن الموضوعية، والتواضع، وتوغله في المفاخرة بالنفس، والانسياق وراء الحديث عن الذات إلا أنه مع الوضعية الآنية لواقع غياب ترجمته من الكتب، والمصنفات الخاصة بالتراجم، تمنينا لو وضع ترجمة حياته في أول كتابه، أليس هو أيضا أديب وشاعر يشهد له؟

وتوجد هناك فرضية أخرى، ربما ذكرت ترجمته ضمن مجموعة من المؤلفات المفقودة، فالأمر محير جدا، كيف لرجال مثل ابن بسام لا يذكره الضبي أو ابن سعيد أو ابن الآبار أو غيره من المترجمين؟

لم يبق لنا سوى العودة إلى كتابه الذخيرة، ومحاولة استخراج، وتتبع الإشارات الموجودة عن حياته في المقدمة المخصصة للكتاب.ينتمي ابن بسام أصلا إلى قبيلة تغلب،القبيلة العربية المشهورة بالأمجاد والقوة والسؤدد،ويظهر في حادثة قدوم أبي الحكم بن مذحج بن حزم بإرسال ابن بسام رسالة لهذا الأخير مهنئا إياه بقدومه ويمدحه، فرد عليه بالثناء ومدح أصله ونسبه فقال[81]:

مِنْ تَغْلِبَ أَنْتَ فِي عَلْيَاءِ مَرْكَزِهَــا فَمَــنْ يُبَارِيْكَ فِي مَجْدٍ وَفِي كَــرَمٍ

يذكر أنه من مدينة شنترين، أول معقل إسلامي يقع في أيدي الفرنجة سنة (485هـ-1092م)، ولا نعرف تاريخ مولده، وبما أنه عاش حوالي 90 سنة، وتاريخ وفاته المعروف 542 هـ، فالمرجح أنه ولد قرابة 450 هـ، وتربى في بيت عز وجاه أو على الأقل ميسور الحال مشهورا بالعلم وأشرنا لذلك في الحديث عن أصله سابقا.

---

[81] - ابن بسام، الذخيرة، ق 2، مج 2، ص 597.

عاش بعدها حياة تشرد وخوف بعد سقوط شنترين وعدم مجئ أي أمير لنجدتها، والدفاع عنها فخرج هاربا متخفيا تحت جنح ليل داهم وبارد تترصد هم سيوف الأعداء، وأنياب الوحوش المفترسة يقول: **«كان من شنترين، قاصية الغرب، مروع السرب بعد أن استنفد الطريق والتّلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، بتوافر طوائف الروم، علينا في عقر ذلك الإقليم، وقد كنا غنيا هنالك بكرم الانتساب عن سوء الاكتساب،واجتز أنا بمذخور العتاد عن التقلب في البلاد، وحين أشتد الهول هنالك، اقتحمت بمن معي المسالك على مهامه تكذب فيها العين الأذن، وتستشعر فيها المحسن:**

مَهَامَـةٌ لَمْ تَصْحَبْ بِهَا الذِئْبُ نَفْسَــهُ   وَلاَ حملَــتْ فِيْهَا الغُرَابُ قوادِمَهُ»(82)

كما يتضح من قوله أن حياته كانت ميسورة رغم الغزو الإسباني، واستمر على ذلك الحال إلى أن خرج منها متجها إلى حمص (*) حاملا حزنه وآلامه بالاغتراب عنها زادا في سفره الطويل متقلبا بين أشبيلية و قرطبة حتى استقر به المقام في حمص، وعرفت حياته نوعا من الاستقرار، و بدأت المياه تعود إلى مجاريها.

بعد رحيله من شنترين واستقراره، عاد اتصاله بالعلماء ومجالس الحكام فنجد منهم أبو بكر الخولاني المنجم، و ابن وهبون، و المعتمد بن عباد، حاظيا منهم بكل تكريم وتبجيل حتى أنه تولى أعمالا سلطانية في حكم بني عباد في أشبيلية مع أنه كان مجبرا عليها فلم يستطيع التملص منها تفاديا للإحراج.

اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته بين سنوات 541و 542و 543هـ، و اتفق الكثير على أن وفاته كانت سنة 542هـ و على رأسهم صاحب النفح، أما بالنثيا فقد رجح أنه توفي بين سنتي 541هـ أو 542هـ، وكما بدأت حياته بغموض واختلاف انتهت حياته كذلك كأنه لم يترك بصمة مشهودة على جبين الأدب العربي الإسلامي.

أحسن ما قام به ابن بسام ذكره للعديد من مؤلفاته في كتاب الذخيرة دون تعمد أو قصد إنما جاءت عن عفو خاطر منها: "الاعتماد على ما صح من شعر المعتمد بن عباد"، و "الإكليل" ويختص بشعر ابن وهبون، و "سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر" وهذا الكتاب يظهر أنه ترجمة مطولة لما يخص حياة ابن طاهر، ومن طرأ عليه من العلماء وغيرهم، وأشهر كتبه على الإطلاق كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

***كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:** تذكر المصادر الأدبية تاريخ تأليف الكتاب بين سنوات 499هـ إلى 503هـ، فالجزء الأول قد يكون أخرجه سنة 499هـ، ثم أتبعهُ بالأجزاء الأخرى في السنوات اللاحقة حتى نهاية 503 هـ، بسبب استعادة المرابطين لمدينة شنترين 504هـ، وابن بسام لم يذكر شيئا عن الحادثة والكتاب يحوي تراجم للرجال مع التركيز على مختاراتهم شعرية كانت أو نثرية.

---

(82) - المصدر السابق، ق 1،مج 1،ص 19.

(*) – حمص: اسم يطلقه الأندلسيون على أشبيلية.

وما دفع ابن بسام إلى وضع كتابه ما رآه من تقليد للمشارقة، وإهمال الأندلسيين لمآثرهم، ورجالهم الذين يضاهون الشمس سموا وضياء فقد قام بإرسال رسائل إلى ذوي الأمر من أدباء، و أمراء، و أصدقاء معلنا رغبته طالبا منهم موافاته بما لديهم من إنتاج فكري فيقول: **«أخذت من حسنات دهري وتتبع محاسن أهل بلدي و عصري غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة و تصبح بحاره ثمادا مضمحلة مع كثرة أدبائه و وفور علمائه ...... وقد كتب لأرباب هذا الشأن، من أهل الوقت والزمان مجانس تبهر الألباب وسحر الشعراء والكتاب»**[83].

واضح من كلامه الأهداف الأساسية التي أدت به ودفعته دفعا لوضع هذا الكتاب بالإضافة إلى حنينه للوطن المنهار قطعه قطعة في أيدي الروم، و الفرنجة وتفادي الترجمة لشعراء الدولة المروانية درءًا للتكرار، إذ كان سبقه إليها ابن فرج الجياني في كتابه "الحدائق".

قام بتقسيم كتابه حسب الأقاليم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: لأهل حضرة قرطبة وما يصافيها من بلاد موسطة الأندلس، ويشمل جملة من الأخبار، وأسماء الرؤساء، والكتاب، وأعيان الشعر. نذكر منهم: المستعين بالله بن الحكم ، وابن دراج القسطلي،وابن برد الأصغر،وابن حيان وغيرهم.

و القسم الثاني: لأهل الجانب الغربي من الأندلس، وذكر أهل حضرة أشبيلية، وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي، و فيه من أخبار وأسماء الحكام والشعراء ، والكتاب منهم: المعتمد بن عباد، و الأديب أبو الحسن علي بن حصن، أبو الوليد الباجي، ابن وهبون، ابن قزمان وغيرهم.

و القسم الثالث: ذكر فيه أهل الجانب الشرقي من الأندلس، و من نجم من كواكب العصر في أفق ذلك الثغر الأعلى، إلى منتهى كلمة الإسلام هناك، و فيه من القصص وأسماء الرجال الكثير منهم:" ذو الوزارتين أبو عامر بن الفرج، ابن اللبانة، ابن أبي الخصال، وابن لبون، ابن خفاجة.

و القسم الرابع: أفرده لمن طرأ على هذه الجزيرة في المدة المؤرخة من أديب شاعر، و أوى إلى ظلها من كاتب ماهر، واتسع فيها مجاله،وحفظت في ملوكها أقواله،ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهوري أهل تلك الآفاق،ممن نجم في عصرنا بإفريقية، والشام، والعراق، فيستعمل منهم على جملة نذكر منهم: مهيار الديلمي،أبو منصور الثعالبي،أبو إسحاق الحصري،ابن رشيق التلمساني،أبو العلاء صاعد اللغوي،وابن القابلة السبتي.

سار في تقسيمه هذا إقتداء بالمؤرخ المشرقي الثعالبي، الذي قسم كتابه يتيمة الدهر إلى أربعة أقسام خصص جزءا منها لأدباء الأندلس فكان الرّد بالمقابل،ومن الملاحظ كذلك أن ابن بسام يذكر تفاصيل حياة المترجمين، و جاءت ألفاظه مجموعة وجمله قصيرة،كما لم يقم بشرح ما جاء من نماذج شعرية، واكتفى بتعليقات قصيرة، وإصدار الأحكام عليها، تكلم أيضا عن الكتب التي أخذ منها، وهذا يبين مدى الأمانة

---

(83) - ابن بسام الذخيرة، ق 4،مج 1، ص 12.

العلمية و الخلقية التي امتاز بها، و الكتاب لم يضم نماذج شعرية في الهجاء، و خصص لها كتابا منفصلا يعد تذييلا عن الكتاب الأول وسماه "ذخيرة الذخيرة"، وتفادى الإطناب، وذكر الأخبار، والقضايا التي لا تنتمي إلى متن الذخيرة وأعطاه عنوانا لا يبتعد عن العنوانين السابقين "سر الذخيرة".

تعتبر النماذج التي تعرضنا لذكرها من كتب التراجم الشاهد على حضارة اعتنت بكتابة تاريخها وافتخرت برجالها،و دافعت عن إبداعاتهم وتخلصهم من اعتناق عقيدة التقليد، والموت في قوالب المشارقة على الرغم من تأثرهم بهم وأخذهم عنهم، إما في المناهج أو في طرق التدوين وغيرها، والنماذج التي أوردناها تضم أيضا تراجم رجال الأدب سواء كانوا شعراء أو كتاب أو فقهاء أو حكام أو قضاة قالوا الشعر، سيقول الكثيرون، لماذا ذكرنا كتبا تحوى تراجم القضاة؟ أو تحوي تراجم المحدثين أو غيرهم؟ وما يخصنا نحن كتب تراجم الأدباء فقط.

تتنوع كتب التراجم كغيرها، إما كتب تراجم عامة ; وتحوي كل مجالات العلم والعلماء، من الحاكم وحتى الشاعر، ونحن أوردناها لغرض التعرف على الأدباء الذين ضمتهم بين دفتيها،وانتشر هذا النوع مع بداية فن كتابة التاريخ، و التراجم ثم بعده بدؤوا يتجهون إلى الاختصاص رويدا رويدا فظهر النوع الثاني من كتب التراجم ; تترجم للقضاة، و الحجاب، و الوزراء و الشعراء وغيرهم.

كما لم نذكر كل كتب التراجم الخاصة بالأدباء أمثال: كتابي الفتح بن خاقان "مطمح الأنفس"،و "قلائد العقيان في محاسن الأعيان"، وكتاب الحميدي "جذوة المقتبس" على الرغم من أهميتها ذلك أن هذه الكتب خصصت لها مساحات أكبر في الفصول القادمة.

واهتمام الأندلسيين بوضع تراجم لأعلامهم لم يكن وليد عشية أو ضحاها إنما كان وليد أسباب ذكر جلها في الصفحات الماضية و لابأس في التذكير بأهمها:

أدت غيرة الأندلسيين على أدبهم، وأدبائهم، وتراثهم الثقافي بصفة عامة إلى وضع مصنفات تجمع شتات ما خلفوه حفظا له من الاندثار، و مباهاة به أمام من يستنقص من قدرهم، و يراهم تابعين لغيرهم كأنهم لا حول لهم ولا قوة، وممن صرح بذلك ابن بسام في مقدمة كتابه "الذخيرة"، و الحميدي في كتابه "جذوة المقتبس"،وابن حيان في "المقتبس" وغيرهم كثير .

وعي الأندلسيين بأنفسهم، وإدراك ما وصلوا إليه من إبداع، وتجديد يخالف ما هو موجود في المشرق ومنهجهم، هذا الشعور بالاستقلالية والتحرر من العقدة التي تحدث عنها الكثيرون أمثال: منذر بن سعيد وما حدث له في مجلس الحكم المستنصر،و الشاعر يحي الغزال ; والمشاكل التي وقعت بينه وبين زرياب الموسيقى القادم من المشرق، و أبو محمد بن حزم الذي قال[84]:

أَنَا الشَمْسُ فِي جَوِ العُلُومِ مُنِـــيْرَةٌ وَلِكِنْ عَيْبِيْ أَنَ مَطْلَعِيْ الغَــرْبُ

---

84) ـ المصدر السابق، ص 173.

وَلَو أَنَنْي مِنْ جَانِبِ الشَرْقِ طَالِـــعٌ لجَدّ عَلَيّ مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِ النَهْــبُ
وَلِى نَحْـــوَ أَكْنَافِ العِرَاقَ صَبَابَـــةٌ وَلاَ غَرْوَ أنْ يَسْتُرَ حَسْنُ الكَلَفِ الصَبُ

اقتطعت هذه الأبيات من قصيدة طويلة تكلم فيها عن معاناة الأندلسيين، واضطهادهم أمام المشارقة، ودفاعهم أمر مشروع، فلا يمكن القول إذا بأن عظماء في الأدب أمثالهم يعانون من داء الإقليمية، إنما يعد تصرفهم مرسخا ومقويا للشخصية الأندلسية المحتاجة إلى تغذية صحيحة، لتنشأ كما لاحظنا نشأة سليمة تبقيها على مدى قرون حتى بعد انتهاء إمبراطورية الأندلس العربية، وقيام الدولة الإسبانية.

3-قادت الظروف السياسية، والاجتماعية للأندلس إلى اضطرابات كبرى، وفتن أدت إلى انقسامات، وحالة عدم الاستقرار هذه أوصلت إلى إهمال الأدب إهمالا كبيرا سعيا وراء تأمين حياتهم من القتل إما بالسيف من طرف رجال الفتن أو الروم أو القوط أو الموت جوعا من الفقر، والأدب مرآة عاكسة لما هو موجود في المجتمع ومنه شهدت حركة التأليف نوعا من الركود والتفسخ واللامبالاة، نجد الفتح بن خاقان يقول: **«رأيت عناية (الأدب) في الامتهان و ميدانه قد عطل من الرهان، و بواتره قد صدئت في أغمادها، وشعلة قد قذيت برمادها»**[85]

يقدم لنا من خلال كلامه صورة أوضح في إهمال الأدب وانحطاطه، فالتكسب بالأدب والتصنع فيه يجعله كأنه شيء جامد لا حياة فيه تبعث على التفاؤل في جميع الأغراض.

4-تشجيع أصحاب السلطة من حكام و وزراء للأدب والأدباء، وحضهم على التأليف، إما معارضة أو تأصيلا، وحكام الأندلس كلهم تقريبا كانوا أصحاب علم وشعر، ومجالسهم كانت لا تخلو من المناظرات، والمناقشات الأدبية سواء في عصر مركزية قرطبة عاصمة الثقافة الأندلسية أو حتى بعد تفككها أمثال ذلك: كتاب" شعر الخلفاء من بني أمية" لابن مغيث، وكتاب "الحدائق" لأبي فرج الجياني اللذان ألفوهما للحكم المستنصر، و أخبار الدولة العامرية لابن حيان الذي ألفه للمنصور بن أبي عامر، و مثلهم الفتح بن خاقان الذي ألف كتابه لأجل إهدائه إلى صاحب نعمته الأمير المرواني إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وظاهرة إهداء الكتب للحاكم كانت معروفة ومشهورة بينهم.

يبقى المجال كبيرا وواسعا في حصر الحديث عن فن التراجم في الأندلس، والأخذ والرد بينهم وبين غيرهم من المشارقة، والمغاربة في قضية اهتمامهم بشخصيتهم، وإثبات وجودها، ومن أشهر قوائم الفهرسة[*] التي ضمت العديد من كتب التراجم في شتى العلوم رسالة أبي محمد علي بن حزم رادا من خلالها على أبي علي الحسن بن محمد بن أحمد ابن الربيب التيهرتي[*]، والتي بعث بها إلى أبي المغيرة بن

---

[85] - الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، تح: محمد العنابي، ط 1، نشر المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص 9.
[*] محمد بن اسحاق الأندلسي، روى عن الكثير من أهل الحديث وكان أديبا فذا (الجذوة ،ص 42).

حزم التي يقول في مقطع منها : **«كتبت يا سيدي وأجل عددي، كتب الله تعالى السعادة وأدام لك العز و السيادة، سائلا مسترشدا، وباحثا مستخبرا، وذلك أني فكرت في بلادكم إذا كانت قرارة كل فضل، ومنهل كل خير،ومقصد كل طرفة... إن بارت تجارة فإليها تجلب، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق مع كثرة علمائها، و وفور أدبائها، و جلالة ملوكها و محبتهم في العلم و أهله... و كثر الحذاق في جميع الفنون، ثم هم مع ذلك في غاية التقصير، ونهاية التفريط، لم يتعب أحد منهم نفسا في جميع فضائل بلده»**[86]

لم يستنقص ابن الربيب من الأندلسيين قدرهم إنما تساءل عن أسباب ركونهم، وتعودهم على إهمال كتابة مآثر حكامهم، وأدبائهم، ورجالهم، فتح رسالته بالحديث عنهم بكل ذكر حسن داعيا إياهم إلى إخراج مكنونات صدورهم ، وأرضهم في مدونات تحفظ تاريخهم في الغابرين.

ويذكر ابن بسام أن أبا المغيرة رد عليه في رسالة طالت كثيرا، وأطنب فيها، وختمها بذكر العديد من مؤلفات الأندلسيين غير أن ابن بسام لم يثبت الجزء الأخير الذي يحوي عناوين المصنفات بسبب رؤيته أن ذكرها وقوع في تكرار معلومات، معروفة ومشهورة، أما رد أبو محمد بن حزم فكان قويا رصينا ومركزا، يظهر مدى التزام صاحبه بموقفه، ومعرفته الجيدة بما يقول مستغلا كل ما أمكنه من المكان والزمان المسموح بهما يقول في بعضها: **«الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، وعلى أصحابه الأكرمين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته الفاضلين الطيبين.**

أما بعد يا أخي أبا بكر ...وإني لما احتلت بك، وجالت يدي في مكنون كتبك، ومضمون دواوينك، لمحت عيني في تضاعيفها درجا، فتأملته فإذا فيه خطاب لبعض الكتاب من مصاقبنا في دار أهل إفريقية، ثم ممن ضمته حاضرة قيروانهم إلى رجل لم يعينه باسمه... فتناولت الجواب المذكور بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات، فصرفت عنان الخطاب إليك ... **ومن لدنك وصلت إلى الرسالة المعارضة، وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا مثل ما غاب عن هذا الباحث الأول...وألفت عندنا تآليف في غاية الحسن:**

ومما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في " أخبار شعراء الأندلس" كتاب حسن، وكتاب"الحدائق" لأبي عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب الزهرة لأبي محمد بن داوود رحمه الله تعالى، إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب في كل باب مائة

86(*) - الفهرسة: استعملت في الاصطلاح للدلالة على نوع من المصنفات، تضم ذكر مرويات عالم أو تعريفا بشيوخه، و لم تبتعد دلالة لفظ الفهرسة في اصطلاحها عن معناها اللغوي فقد ظلت تعني لائحة المرويات الخاصة بعالم، أو لائحة الشيوخ الذين أخذ عنهم. (عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب، ط 1، منشورات كلية الأداب و العلوم الإنسانية، تطوان – المغرب، 1999، ص 36).

(*) - كان أديبا متقدما خبيرا باللغة ،ناثرا شاعرا، بلغ النهاية في الأدب وعلم النسب، وكان قوي الكلام يتكلفه بعض التكلف، توفي سنة 430هـ(عن: الأنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح:بشير البكوش، محمد العروسي المطوي،ط 1،الدار التونسية للنشر،تونس،والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986، ص 111-1112.

() - المقري،نفخ الطيب،ج 3،ص 156-157.

بيت، و أبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر، ولم يورد فيه لغير أندلس شيئا،وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد، فبلغ الغاية، وأتى الكتاب فردا في معناه، و منها كتاب" التشبيهات"من أشعار أهل الأندلس"جمعه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسن الكاتب.

ومن الأخبار تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس، وخدمهم وغزواتهم، وكيانهم، وذلك كثير جدا، وكتاب في صفه قرطبة، وخططها، ومنازل الأعيان بها على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد، وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها، وتواريخ متفرقة رأيت منها: أخبار عمر بن أبي حفصون القائم بريّة، ووقائعه، وسيره، وحروبه،وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالجوف، وفي أخبار بني قسي، و التجبيين، وبني الطويل بالثغر،فقد رأيت من ذلك كتبا مصنفة في غاية الحسن، وكتاب مجرى في أجزاء كثيرة في أخبار ريّه وحصونها، وحروبها، وفقهائها، وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني،وكتاب محمد بن الحارث الخشني في"أخبار القضاة بقرطبة" وسائر الأندلس، وكتاب "في أخبار الفقهاء" بها، وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في" أنساب مشاهير أهل الأندلس" في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها،وكتاب قاسم بن أصبغ في"الأنساب" في غاية الحسن والايجاب، والإيجاز،وكتابه في "فضل بني أمية"وكان من الثقة، و الجلالة ; بحيث أشتهر أمره وانتشر ذكره، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس.

ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى، رأيت منها: "أخبار شعراء ألبيرة" في نحو عشرة أجزاء ،ومنها كتاب "الطوالع" في أنساب أهل الأندلس،ومنها: كتاب "التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس" تأليف أبي مروان بن حيان عشرة أسفار من أجل كتاب ألف في هذا المعنى،وهو في الحياة بعد لم يتجاوز الاكتهال وكتاب"المآثر العامرية"لحسين بن عاصم في سير ابن أبي عامر وأخباره،و كتاب محمد أبن عاصم النحوي "طبقات الكتاب بالأندلس" و كتاب سكن ابن سعيد في ذلك، وكتاب أحمد بن فرج في" المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم"، وكتاب "أخبار أطباء الأندلس"»[87].

نرى في هذه المقطوعة الكم الكبير من المؤلفات المذكورة في مجالي الأدب، وتاريخ الأدب متضمنة كتب التراجم بنوعيها الخاص، والعام، وأفاد في تحديد ماهية بعض المدونات والتعرف على أخرى لم تصلنا ولم نعرف شيئا عنها.

وجاءت الرسالة مطولة زاخرة بأنواع المؤلفات في جميع الميادين الطبية، و الفلسفية، و الكيميائية، و الموسيقية و غيرها، و أخذنا ما يهمنا في مجال الدراسة فقط، وتذكر الكتب التراثية أمثال: "الذخيرة" لابن بسام، أن الرسالة وجهها ابن حزم إلى صديقه أبي بكر إبن إسحاق المهلبي بعد ما عرف أن كاتب الرسالة الأولى، وصاحب

---

[87] - المصدر السابق ، ص 156-165.

الاستفسار قد لحق بالرفيق الأعلى، و اتخذ مقامه ليرد من خلاله على كل سائل غيره و حتى على التاريخ، بأن للأندلس رجالا ألفوا، وكتبوا مصنفات تطرق جميع الميادين، والاختصاصات، وتفيد كل من استعان بها.

ولم يتوقف مشوار الرد على المغاربة، والمشارفة من طرف الأندلسيين عند هذا الحد، فنجد غير بعيد بحوالي قرنين من ظهور الرسالة الثانية في الرد على ابن الربيب رسالة ابن سعيد الأندلسي المتوفى (675هـ) ويذيل بها رسالة ابن حزم، ويصحح فيها أخطاءه ويضيف لها الكتب الجديدة، والمؤلفات التي استخدمت بعد رسالة ابن حزم وغيرها من المؤلفات.

ثالثا:المنهج والخصائص

1- المنهج:

تأخذ الكتابة أشكالا، وتنوعات مختلفة ويختص كل نوع من الكتابة بأساليب، ومناهج معينة، كذلك الشأن في كتب التراجم بالأندلس التي تنوعت مناهج التدوين فيها، حسب الفترات الزمنية، وحسب العمليات التي صنفتها في إطار العلوم، والفنون التي تنتمي إليها.

وتصنيف كتب تختص بتراجم رجالات الأدب، وعظمائه من شعراء، وأدباء، ونقاد وغيرهم ممن اتصل بهم واتصلوا به، تحتاج مناهج كثيرة حسب ما تتضمنه، وعرفت الكتابة في هذا النوع من الفن الكثير من المناهج المختلفة كمّا، وكيفا، وسنعرض لها حسب الأهمية والانتشار.

أ- المنهج الحولي:

يعتبر أول منهج ظهر في كتب تراجم الأندلسيين المنهج الحولي الذي يعتمد على ترتيب الأشخاص حسب السنوات،إما مولدا أو نشأة أو وفاة أو كبار الحوادث،وأغلبها حسب سنوات الوفاة على غرار ما فعل المشارقة في كتبهم الثلاثة المشهورة بالوفيات ثم بعده يقومون بذكر ما توفر لهم حول المترجم له، الاسم الكامل، والكنية، ومكان المولد، والنشأة، ومن أساتذته، وأشهر تلامذته إن وجد من ذاع صيته، ومؤلفاته، والبيت أو البيتين من الشعر الذي تركه إن كان شاعرا.

ويتبين هنا أن المنهج الحولي أصبح أكثر وضوحا على الذي وضع عليه عبد الملك بن حبيب السلمي كتابه، فتراكم الأخبار لديه، وامتزاج صحيحها بخطئها جعل الأمور تختلط عليه، وتنقص من قيمة مؤلفه،ومن أشهر من اعتمد عليه أيضا نجد أبناء أسرة الرازي، وعبادة بن ماء السماء وغيرهم.

المنهج المتكامل:

نقصد بهذا المصطلح الجمع بين العديد من المناهج، فنأخذ بالمنهج الحولي لتحديد الفترات الزمنية التي وقعت فيها الأحداث، واعتماد الأحداث من جانب آخر لتقصى الأخبار من خلال ما ورد عنها في كتب سابقة أو من إخباريين بالإضافة إلى تقسيمهم إلى العديد من الطبقات إن كان هناك تمايز بينهم، وتحري الصدق والعملية يحتم على كاتب الترجمة أن يكون صاحب حس مرهف، وعقل متوقد، يفاضل بين الأشياء دون أن ينقص من قيمتها أو يضعها في مكان أعلى مما تستحق، وأكثر ممن اعتمد هذا المنهج، نجد ابن حيان في كتابه "المتين"،حيث ذكر ملوك الأندلس إبان الفتنة، وكبار الأحداث التي وقعت في زمن ولاياتهم بالتحديد الدقيق للسنوات،وما انجر عن ذلك من أمور سياسية واجتماعية في المجتمع الأندلسي،وكيفية انعكاس كل تلك الوقائع على المناخ الفكري والأدبي،ونفس المسار احتذاه في كتابه "المقتبس" وغيره من مدوناته.

ويعد هذا المنهج على تداخله، وعدم وضوحه الأكثر جمعا للكثير من المعلومات والشواهد التاريخية لم نجدها ذكرت في كتب التاريخ.

ج- منهج الترجمة حسب الإقليم:

لا نعثر على الكثير من كتب التراجم الأدبية، المصنفة على أساس الأقاليم فالمنهج يعتمد على تقسيم الرجال المترجم لهم حسب المقاطعات السياسية، فيتحدث عن الإقاليم جغرافيا، وتاريخيا، ثم كبار الحوادث ويتبعه بالترجمة لحيوات العلماء بكل ما يخصهم وتوفر لديه، وأكبر أنموذج وجد في الأندلس سار على هذا المنهج كتاب ابن بسام "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، الذي قسم كتابه على أساس المقاطعات أو الحواضر العلمية، والسياسية الكبرى في الأندلس، ثم ختمها بجزء يترجم فيه للراحلين عنها و الطارئين عليها مقتديا في ذلك بالثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر"، و ألف أبو القاسم مطرف بن عيسى بن لبيب كتاب"فقهاء ألبيرة" وأيضا أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن مظاهر الأنصاري الطليطلي في "تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها".

كما نلاحظ في عناوين الكتب الأخيرة أنها تختص بإقليم أو مدينة معينة، ولكن الأمر سيان ما ينطبق على الذخيرة ينطبق عليهما.

د- المنهج الألفبائي:

يعد الأكثر انتشارا في مصنفات التراجم الأندلسية على الإطلاق فالمؤرخون يقومون فيه بترتيب تراجمهم حسب حروف المعجم من الألف إلى الياء، ذاكرين الاسم الكامل،والكنية،والمولد والبلد،والمشايخ،والرحلات إن قام برحلات، وذكر مؤلفاته،وختامها إيراد نماذج من أدبه شعرا أو نثرا أوهما معا.

سن بعض مؤرخي الأندلس سنة حميدة في ترتيب تراجم مدوناتهم على حروف المعجم، فقبل ذكر أي ترجمة يضعون فصلا أو فصلين لتراجم المحمديين، ويقصد بهم من كان اسمهم محمد، ويتبعونه بمن كان اسمه أحمد، تيمنا بالرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ثم إيراد التراجم المراد تقديمها حسب الترتيب المعجمي للحروف، ومن أشهر الكتب التي وضعت على هذا المنهج: كتاب "جذوة المقتبس" للحميدي، وكتاب "البغية" للضبي.

وتجدر الإشارة إلى وجود كتب تراجم لا يظهر فيها منهج معين كأن يترجم صاحبها لحيوات الرجال حسب مزاجه فإن كان يحبه وعلى وئام معه، منحه أحسن ما في اللغة العربية من حلو الكلام و أعذبه، حتى و أن كان لا يستحقه أما أن كان العكس فيمنحه أسوأ ما في كلام العرب كافة من عبارات الذم المقذعة، حتى وإن كان صاحب مكانة مرموقة، مثلما حدث مع ابن خاقان في كتاب "قلائد العقيان في محاسن الأعيان".

وتوجد كتب أخرى تظهر فيها المختارات أكثر من صاحبها،فلا يتكلم عنه المترجم إلا السطر أو السطرين، ويفسح المجال لإيراد المختارات فنجد القصائد الطوال، والرسائل الكثيرة أو المقامات أو غيرها من الفنون التي اشتهر بها المترجم له، ومن أشهر الكتب التي وضعت في مثل هذا النوع: قلائد العقيان في محاسن

الأعيان" المذكور آنفا، و كتاب "الحدائق" لابن فرج الجياني، و كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"،فالكثير من الكتب المفقودة أعيد جمعها من خلال هذه المدونات،مثل كتاب "المتين" لابن حيان، و "رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد الأندلسي.

2- الخصائص:

تعرفنا على مسار التراجم في الأندلس وأسباب انتشارها وقوة وجودها وتمنح الحياة عادة مقومات،وخصائص لكل كائن حي،كذلك الأدب وفن التراجم منه،امتازت كتبه في البلاد الغربية بخصائص كثيرة،تميزها عن فن كتابة التراجم في المشرق وغيره من الأقطار العربية،مقتبسينها أصلا من خصائص العقل، والبيئة، والمجتمع الأندلسي الذي كان مختلفا عن المجتمع العربي في المشرق في جميع تفاصيله ودقائقه،رغم اتفاقهم في الكليات العامة لتكوين المجتمع العربي.

نرى في الكثير من الكتب التي نتصفحها عنوان "بين المشارقة والأندلسيين"، مجسدين بها الرؤية السابقة،ولن نقول مثلما قالوا: بين الأندلس و المشارقة، إنما سنقول: ما الخصائص التي نستطيع من خلالها معرفة أن المدونة الموجودة بين أيدينا أندلسية؟ أو هي غير ذلك من مشارقة أو مغاربة أو حتى غربيين؟

نستطيع تحديد الخصائص المميزة عند الأندلسيين عن المشارقة كما يلي:

1- عني جميع كتاب التراجم في الأندلس بوضع مقدمة تاريخية تبرز حدود المنطقة الجغرافية، وحالة البلاد السياسية، ومدى استقرارها، وتطورها الاجتماعي، والحديث عن الفتن التي تنهش البلاد بخاصة منها ما حدث في نهاية الدولة الأموية، والهدف من هذا كله هو الربط بينها وبين تواريخ، حياة ووفاة المترجم ; لأن الكثير منهم يجهل تاريخ وفاتهم بالضبط، لذلك نقول توفي أو عاش في عهد الخليفة أو الأمير كذا.

وأفصحت عن هذه الرؤية جل كتب التراجم التي تعرضنا لها، وتخص فترة الخمس قرون الهجرية الأولى منهم: الحميدي، والضبي، والفتح بن خاقان، وأبو حيان، وابن الفرضي،ويقول آخرهم: **«ولما رأيت كثيرا من الوفيات، ترتبط بدول الملوك،لم أجد بدا من ذكرها في صدر هذا الكتاب-لتكون – دليلا على ما تعلق بها، وأضيف إليها، مع ما في علم ذلك، من الفائدة –فرسمنا على المعنى الذي بنينا عليه الاختصار»**[88]

تجلى من خلال قول ابن الفرضي الهدف الأساسي الذي وضعت المقدمات التاريخية لأجله، توضيحا واختصارا لبيئة المترجم لهم وعيوب التكرار.

2- اتسمت كتابات التراجم في الأندلس بالتركيز على الإسناد رغبة منهم في توثيق رواياتهم وتراجمهم،كي لا يدعوا مجالا للشك، والضعف يتسرب لأعمالهم، بخاصة ما اتصل منها بالمؤرخين الحافظين للحديث وروايته.

---

(88) - ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ص 11.

اقتبس عنصر الإسناد واكتسى الأهمية الكبرى من علم الحديث، فهو العنصر الذي يركزون عليه في إثبات صحة الحديث جرحا وتعديلا، فتصل سلسلة الرواية بالإسناد في بعض كتب التراجم إلى حوالي الثلاثة عشر أو أكثر، جاء في الجذوة عن ترجمة خلف بن علي أبو سعيد قال: **«أخبرنا الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ، فيما كتب لنا به، قال: حدثني أبو سعيد مسعود بن ناصر بن أبي زيد السجستاني قال أخبرنا: أبو الحسن عبد الملك بن الحسين الكازروني بنيسابور قال: حدثنا أبو سعيد خلف بن علي الأندلسي ببخارى، قال: سمعت أبا مروان خزر بن مصعب الغساني الأندلسي قال: حدثنا أحمد بن داوود القيرواني، قال: حدثنا سحنون بن سعيد التنوخي...».**[89]

3- اهتموا بالأنساب بدرجة كبيرة، قد لا نجد في ترجمة إلا اسم المترجم له إلى جده الخامس أو السادس عشر، فهم ركزوا عليها على حساب باقي المعلومات الأخرى التي تفيدنا أكثر،لدرجة تصنيف مدوناتهم ضمن كتب الأنساب لا في كتب التراجم.

جاء اهتمامهم بالأنساب نتيجة العصبية التي سادت في الأندلس، والصراع القائم بين المشارقة، والأندلسيين في تحديد أسبقية أحدهم على الأخر، وتفاخرهم بالأنساب، فكتاب الجذوة أو البغية أو تاريخ العلماء، والرواة للعلم بالأندلس تظهر فيها هذه الخاصية بكثرة ،جاء في الجذوة:

« محمد بن سليمان بن أحمد بن حبيب بن الوليد بن عبد الملك،بن مروان بن الحكومة الأموي...»[90]**.**

وصلت سلسلة النسب إلى الجد الثالث عشر للمؤلف الذي ذكر فيما بعد عنه تاريخ وفاته فقط، هذا ما حوته الترجمة التي أخذناها، مبينين من خلالها ما كنا نتحدث عنه سابقا.

4- اتبع الأندلسيون في كتابة تراجمهم أسلوب التذييل أو التكميلات الذي اشتهر لديهم أكثر مما اشتهر عند المشارقة، فنجد كتاب ابن الفرضي"تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس "،بداية سلسلة طويلة،تلاها كتاب ابن بشكوال[*] "الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم"، فسار على نفس خطته ومنهجه وأهم حلقة في السلسلة "كتاب الصلة" الذي نسج على منواله العديد من علماء الأندلس سواء من ناحية المنهج أو طريقة وضع التراجم، و الاستقصاء، والإسناد وتحمل عناوين متشابهة أولها كتاب ابن الآبار [**]" التكملة" جاء في ثلاثة أجزاء،وعقبه كتاب العلامة الكبير أبو جعفر الغرناطي "صلة الصلة"في عدة مجلدات

89() - الحميدي، جذوة المقتبس،ترجمة رقم 420، ص 208.

90() - المصدر السابق، ترجمة رقم 59، ص 58.

(*) - ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد المالك بن مسعود بن موسى بن بشكوال الأنصاري القرطبي (ت 578هـ) الصلة ،ط 1، المكتبة العصرية،صيدا- بيروت،2003، ص 12 .

(**) - ابن الآبار:أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر الآبار القضاعي البلنسي، عالم وصلت كتبه حتى الخمسين كتاب (ت 685 هـ).

رتبه على حروف المعجم عند المغاربة، وأهم إفادة لمصنفه أنه يرسم ملامح الحياتين الفكرية، والاجتماعية في الأندلس، وما جاورها،وختام السلطة كتاب ابن عبد المالك المحاكي "الذيل والتكملة لكتاب الصلة" وطبع بعنوان "الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة" و الطريف في الأمر أن نجد عائلة يتعاقب أفرادها الجيل تلو الآخر على تأليف كتاب يتحدث عن تاريخ الأندلس وهو كتاب "المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد، وهو الآخر الذي أخرج الكتاب إلى القراء، وقام شوقي ضيف بتحقيق الكتاب ونشره في جزئين.

5- ترجم الكتاب الأندلسيون في مدوناتهم للأندلسيين فقط دون غيرهم من المشارقة، والمغاربة بما رأو من إهمال المشارقة، والمغاربة لهم في مصنفاتهم التي وضعوها،وحتى إن تكلموا عنهم،لم يوفوهم حقوقهم، ويصدق هذا الكلام بخاصة على المدونات التي سبقت "يتيمة الدهر" للثعالبي الذي تكلم عن الأندلسيين، ومن جاء بعده قلة وأخذ عنه، فنجد تراجم الأندلسيين منتشرة في كتاب" معجم الأدباء" لياقوت الحمودي ،وكتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" لعماد الدين الأصفهاني.

واستمر الأندلسيون في طريقهم هذا دون أي مبررات فالبعد عن المشرق لم يكن عائقا أبدا،فالمتأدبون بالأندلس كانوا يستخدمون الكتب المشرقية، وينتدبون من يجلبها لهم.

كانت هذه أهم الصفات والخصائص التي مازت المدونات الأندلسية في فن التراجم، التي ما تزال تحوى الكثير من المكونات، وتمد دارسها بقدر تعمقه فيها والبحث في جوهرها.

الفصل الثالث:

فن التراجم في كتاب جذوة المقتبس للحميدي

أولاً: السمة التاريخية.

ثانياً: السمة الفنية.

ثالثاً: السمة الحضارية.

عرفنا في الفصول السابقة حركة تطور فن الترجمة بين أدباء العرب، في المشرق و المغرب، والأندلس، و أسباب انتشارها، و الاهتمام بها من جميع طبقات المجتمع، حتى غير مثقفة منها في هذه البيئات، و ما وصلت إليه، و النتائج التي حققتها، من حفظ لأكثر التراث العربي من الضياع

و اخترنا في الفصل الذي بين أيدينا، نموذجا من كتب التراجم في الأندلس، ذاع صيته، و انتشر خبره بين الأدباء و المؤرخين في الأندلس، و المشرق وهو كتاب جذوة " المقتبس في ذكر ولاة الأندلس" للعالم الفقيه " أبي عبد الله فتوح الأزدي الحميدي"، توسط الكتاب سلسلة كبيرة من المصنفات في فن التراجم، جاءت قبله و أخرى جاءت بعده و هذا ما جعلنا نركز عليه، فهو يعد إحدى التجارب الجادة في مضمارها، مع أننا لا نريد إصدار حكم عليه حاليا، فيكون متسرعا و سطحيا فلذلك موضعه.

و ما يهمنا الآن قراءة الكتاب بدقة الناقد، و تقصي المؤرخ، و حس الأديب، إذا هل نقل لنا ما حوته البيئة الأندلسية من النزاعات، و التيارات الفكرية و السياسية التي سادت بها؟ و ما هي الأسباب التي دفعته لوضع الكتاب؟ و ما المنهج الذي اتبعه في تراجمه؟ و العديد من التساؤلات الأخرى، سنعالجها في مواضعها بالترتيب، بعد القيام بترجمة لحياة المؤلف.

أولا: ترجمة المؤلف:

1. **مولده و نشأته:** اختلفت الكثير من المصادر التاريخية في إيراد اسم المؤلف كاملا، فجاء في معجم الأدباء:**« محمد بن فتوح بن عبد الله بن حميد الأزدي الحميدي الحافظ»**[91]

و قال عنه صاحب البغية:**« هو محمد بن فتوح أبو عبد الله الحميدي و أبوه يكني أبو نصر»**[92]

لم يذكر هذان المصدران باقي بياناته، فالأول ذكره و نسبه للأزد، و القارئ لاسمه ينسبه مباشرة للقبيلة العربية الموجودة بالحجاز و الثاني لم يذكر نسبته لا إلى القبيلة الأزدية أو المدينة التي عاش وعرف فيها، و ترجع أسباب هذا التقصير، إلى سقوطها سهوا من أذهانهما، أو أنهما لم يريدا ذكره، والتدقيق في تحقيق كل المعلومات الخاصة بالمؤلف للشهرة التي حظي بها في بغداد حاضرة العراق والمشرق بأسره، و يراه الثاني أشهر من نار على علم، فقد أخذ عنه كتابه بكامله، و أضاف عليه، و أخرجه باسم " بغية الملتمس".

و كلا الرأيان وارد، و يحتملان الصحة و الخطأ.

---

[91] - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج 6، ص 693.

[92] - الضبي، بغية الملتمس، ص 113.

و يرجح الدارسون الرأي الثاني، استنادا إلى ترجمة المؤلف الواردة في كتاب شذرات الذهب: «**أبو عبد الله الحميدي محمد بن نصر بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن بطل الميورقي الأندلسي الحافظ**»[93]

جاء المؤرخ أبو الفلاح على ذكر سلسلة اسمه إلى الجد السابع، كما شملت ذكر الكنية، و مسقط رأسه، وصفته، فلم يترك مجالا للشك في أن يتداخل اسمه مع غيره، بخاصة وأن الكتاب وضع بعد حوالي الأربعة قرون و نصف، و هذه السنوات الطوال كافية لطمر أي فكر، و محو أي ذكر.

ولد الحميدي بميورقة إحدى جزائر الأندلس الواقعة في غرب البلاد سنة 420 هجرية الموافقة لسنة 1029 ميلادية، و عرف منذ صغره بحبه للعلم، و العلماء، و التبحر في الكتب، و الصحائف التي كانت آنذاك أول شغل لكل أهل الأندلس عامة، لا أصحاب العلم فقط، قال ياقوت الحموي: «**كان يحمل على الكتف للسماع سنة 425 هـ**»[94]

و انفرد ياقوت الحموي بذكر هذا الخبر، و هو أن الحميدي سمع أول مرة من أبي القاسم بن أصبغ، و أبي عمر بن عبد البر الحافظ، و ابن حزم، وروى عنهم كتبهم و رسائلهم، ثم شد الرحال إلى الحج سنة 448 هـ، انتقل فيها لشمال إفريقيا، و مرّ بمصر، وسمع فيها من الضراب و القراعي، و قدم دمشق، و المدينة و مكة، أقام بواسط مدة، ثم بعدها رجع إلى بغداد، و كان له فيها جماعة أنس و ألفة يتدارس معهم، و يقولون الشعر معا، و يقيمون المجادلات و المناظرات في شتى شؤون المعرفة من دين، و أدب، و سياسة و غيرها يقول الحميدي[95]

لقاءُ الناسِ ليسَ يفيدنَا شيئًـــا   سوى الهذيانِ منْ قِيلٍ و قـــالِ
فأقللْ من لقاءِ النـــاسِ إلاَّ   لأخذِ العلمِ أو إصلاح حـــالِ

يبين هذان البيتان مدى دقة سير حياة الرجل في فترة تلك النكبات، التي أحرقت بلاد الأندلس، و لم تكن بغداد بمنأى عنها أيضا بسب الفتن آنذاك.

2- وفاته: سببت حادثة و فاته و دفنه إشكالاً تاريخياً أدى إلى أخطاء في نقلها، و نشرها بين الناس.

ورد في كتاب المختصر لأبي الحسن علي بن الأثير الجزري، أنه توفي في صفر سنة إحدى و تسعين و أربعمائة، و بالعودة إلى كتاب الذيل للسمعاني، وجدنا الحميدي المذكور توفي ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي الحجة سنة ثمان و ثمانين و أربعمائة.

ذكر ياقوت الحموي تفاصيل وفاته، و دفنه، و الوصية الموصى بها فقال: «**أوصي مظفرا بن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند قبر بشر الحافي، فخالف و صيته و دفنه في مقبرة باب البزر، فلما مضت مدة، رآه المظفر في النوم يعاتبه على**

---

93 - أبو الفلاح بن عبد الحميد بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج 1، المكتبة التجارية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 241.

94 - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج 8، ص 693.

95 - المرجع نفسه، ص 695.

مخالفته، فنقل في صفر سنة إحدى و تسعين و أربعمائة إلى مقبرة باب حرب و دفن عند قبر بشر، و وجد كفنه حين نقل و بدنه طريا تفوح منه رائحة الطيب».[96]

دفن كما جاء في مقولة الحموي بباب البزر، و صلى عليه أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي الفقية في جامع القصر، ثم نقل بعدها إلى مقبرة باب حرب، وقرب قبر بشر بن الحارث الحافي كما جاء في وصيته، و الخطأ الذي وقع فيه أبو الحسن عدم تفريقه بين تاريخ وفاته الأول و نقله إلى المثوى الثاني فجعل منهما رجلين مختلفين، توفيا في وقتين مختلفين، و الحقيقة أن الرجل واحد و دفن مرتين.

3. **شيوخه:** لم يقض الحميدي حياته في مكان واحد، بل تعددت الأماكن التي عاش بها، بحكم رحلته الكبرى التي قادته إلى أشهر الحواضر العلمية، و الثقافية في العالم العربي، و كانت كثيرة، و إفادته منها كانت أكثر،و أخذ فيها عن شيوخ كبار منهم من ترجم لهم في كتابه الجذوة، و منهم من ذكرته كتب التراجم الأخرى، و اختلفت طرق أخذه عنهم سماعا، و رواية، و قراءة و من أشهر شيوخه الذين أثروا فيه كثيرا نذكر:

أبو القاسم بن أصبغ[97]: أدركه بميورقة و هو ما يزال صبيا يحمل على الكتف للسماع حافظ مكثر مصنف سمع من الكثيرين بالأندلس، ثم رحل إلى مصر طلبا للحديث له عدة مؤلفات منها: فضائل قريش، كتاب الناسخ و المنسوخ، و كتاب في الأنساب في غاية الحسن و الإيعاب، وروى عنه أيضا ابن ابنه قاسم بن محمد بن قاسم بن أصبغ و غيرهم.

- **أبو عمر بن عبد البر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر عاصم النمري القرطبي**

(ت 458 هـ)[98]: أحد كبار العلماء و المحدثين في بقاع الأندلس، و صاحب التصانيف المتنوعة، و الكثيرة، روى على عدد من المحدثين أمثال: سعيد بن نصر، و عبد الله بن أسد، و قال عنه ابن حزم: «**لا أعلم في الكلام على الحديث مثله، فكيف أحسن منه**»[99]

و ترك العديد من المؤلفات في جميع الميادين، من أشهرها: " كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من المعاني و الآثار"، و كتاب " الاستيعاب " و يخص تراجم الصحابة.

أبو محمد علي بن حزم القرطبي الأندلسي (384-456 هـ)[100]: عاش واحدا و سبعين سنة، جعلته صاحب علم واسع، لم يضاهه أحد من أهل عصره، نبغ في الفقه و الحديث و التفسير و الأدب نظمه، ونثره، و البلاغة، و المعرفة بالسير و التراجم، و

---

96 ()- المصدر السابق ص 694.

97 () - ينظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ترجمة رقم 324، ص 174، الضبي، البغية، ص 433.

98 () - ينظر: الحميدي، الجذوة، ص 367، الضبي، البغية، ص 472، ابن بسام، الذخيرة، ص 125.

99 () - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ص 229.

100 ()- ينظر: ابن بسام، الذخيرة، ص 167، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ص 299، الضبي، بغية الملتمس، ص 314.

الأخبار، و قد اجتمع له حوالي 400 مجلد من تواليفه منها: " جمهرة الأنساب "، " طوق الحمامة ".

أخذ عنه الحميدي مشافهة و مدارسةً، فهو أستاذه الذي صحبه لعدة سنوات، اعتنق أثناءها مذهبة الظاهري، عندما كان نزيل قرطبة حسبما ذكره ابن بسام في الذخيرة.

الخطيب أحمد بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي الحافظ(392-463 هـ)[101]: أحد الأئمة الأعلام و صاحب التآليف المنتشرة في الإسلام، روى عن أبي عمر بن مهدي و ابن الصلت الأهوازي وطبقاتهما، نبغ في الحديث و اللغة و الأدب و التفسير و غيرها من العلوم الإسلامية خاصة القرآنية منها، له عدة تآليف أشهرها: تاريخ بغداد. قال عنه ابن ماكولا:**« أحد الأعيان ممن شاهدناه معرفة و حفظًا، و إثباتًا و ضبطًا لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[102]»**، وله و لابن ماكولا ألفّ كتابه جذوة المقتبس، فهما كانا من ألافه أثناء إقامته في بغداد.

أبو عبد الله ماكولا الحسين بن علي بن جعفر العجلي الجرباذ قاري[*](368-447هـ)[103]**:**عرف بتبحره في المذهب الشافعي، تولى منصب قاضي القضاة ببغداد سنة 420هـ، له مصنف الإكمال في أسماء الرجال، وكان صديقًا و معلمًا للحميدي في بغداد.

4-**شخصيته:** امتلك الحميدي شخصية مثالية في زمن غير مثالي، عرف بتدينه، وصدقه، وسلوكة القويم، و الابتعاد عن كل مجلس إثم، فلم تثبت عنه أيّ من الأخلاق القبيحة و المذمومة.

لزم منذ صغره مجالس العلم، و مصاحبة الشيوخ، و الأخذ عنهم، و رواية كتبهم، ذكر ياقوت الحموي أنه: **« كان يسمع بالأندلس من أبي محمد بن حزم الظاهري، و لازمه و قرأ عليه أكثر مصنفاته، و أكثر من الأخذ عنه، و شهر بصحبته، و كان على مذهبه إلا أنه لم يتظاهر بذلك»[104].**

لم يجعله اعتقاده بالمذهب الظاهري يتجه نحو الغلو، و المجادلة في الدين، خوف التفرقة بين المسلمين، و الخروج عن الصراط المستقيم، مثلما حدث لابن مسرة[*] و تلامذته.

فكان دائما صاحب ذهن ناضج، و فكر متوقد و علم فياض، اشتهر بين الناس بنزاهته، وورعه و تقاه، و مودته لأصدقائه، و احترامه لهم، مما أكسبه تقدير وحب

---

101 () - ينظر : ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ص 311، عبد العزيز الدوري، بحث حول نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، ص 75 ، مارغليوس، دراسات عن المؤرخين العرب، تر: حسن نصار ، طبعة دار الثقافة، ص 162، طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عيبة، الحضارة الإسلامية ص 720.

102 ()- ابن العماد الحنبلي، شذات الذهب، ص 314.

103 () - ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج 3، ص 215، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ص 275.

(*) - جر بذقار: بلدين بين جرجان، و اشراباذ، و أخرى بين إصبهان، و الكرخ.

104 () - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج 6، ص 693.

(*) - ابن مسرة كان ممن اعتقد بالمذهب الظاهري حتى حاد عن الطريق المستقيم، فأحرقت مؤلفاته، و هدر دمه، (ينظر: نخبة من المؤلفين، المنجد في اللغة و الأعلام، ص 500).

الجميع، فلا يغيب عن مجالسهم إلا بعذر قاهر. يقول عنه ابن ماكولا: **« أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدي... و هو من أهل العلم و الفضل و التيقظ، لم أرَ مثله في عفته و نزاهته وورعه و تشاغله بالعلم»[105].**

تمحور جل اهتمام الحميدي حول الجانب العلمي المتمثل في الترجمة لرجال الدين، و الفقه و البحث في علم الحديث، و الأصول متحريا الدقة و التجريح في تقصى الأخبار، و العدول عن ذكر الحوادث التي لم يشهدها رغم معرفته بها، و قال أحد أكابر عصره ممن لقيه من العلماء في ذلك: **« كان ورعا ثقة إماما في علم الحديث و علله، و معرفة متونه و رواته، محققا في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث ».[106]**

بعث فيه اهتمامه بالجانب العلمي، الاهتمام بالجانب الفني و الأدبي، فكان الحميدي شاعرًا و أديبًا يمتلك الحس المرهف و الأسلوب العذب.

يقول في بعض شعره[107]:

كَلامُ اللهِ عزَّ وجلَّ قولِـــــي وما صحتْ بهِ الآثارُ دِيــــني
وما اتفقَ الجميعُ عليهِ بـــــدءًا و عودًا فهو عن حقٍ مبيــــنِ
فدعْ ما صدّ عن هذا و هـــذا تكنْ منهَا على عينِ اليقيــــنِ

يتجلى لنا مع كل خطوة نخطوها في البحث عن تفاصيل شخصية الحميدي، انشغاله الشديد بالجانب الديني، وولوعه بالفقه، و الحديث و غيرها من علوم الشريعة حتى في شعره.

نستطيع القول أن الحميدي رجل صاحب خلق عظيم، و شأن كريم في صفاته، و أخلاقه المثالية، فهو لم يكن يخاف في الحق لومة لائم، و لا سلطانا جائرا، يعطي كل ذي حق حقه، و يجهر به أمام الملأ، فهو الذي ألف في وعظ الملوك، و ذم النميمة و الاختلاف، و مكاتبات الأصدقاء، و الجيران.

سارت حياته سواءً العامة أو الخاصة على خط واحد يحكمها قانون الأخلاق الإسلامية التي احتفت به، احتفاءه بها، و رفعته إلى مصاف كبار الفقهاء و المحدثين الأدباء في الأدب الأندلسي.

5- مؤلفاته: ترك لنا الحميدي ثروة أدبية و تاريخية، و علمية، كبيرة، تكاد تمس جميع المجالات، والعلوم المعروفة في عصره، من شعر، و نثر، و تفسير، و تراجم، و قد أحصت لنا طبعة دار الكتب المصرية زهاء تسعة عشرة كتابًا بين مخطوط و مطبوع، و معظمها منثور و مذكور في أكثر كتب التراجم التي تصدت لحياته من قريب أو من بعيد نذكرها كالتالي:

1- الكتب المطبوعة:

1- كتاب الجمع بين الصحيحين البخاري و مسلم.

---

105 () - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج 6، ص 693.
106 () – الحميدي، الجذوة، ص 694.
107 () - المصدر السابق، ص 695.

2- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس و أسماء رواة الحديث و الأدب.

2- الكتب المخطوطة:

1- تسهيل السبيل إلى علم الترسيل: توجد مخطوطة الكتاب بدار الكتب المصرية تحت رقم: 2350، ذكرها طه عبد المقصود في كتابه الحضارة الإسلامية مج 2، ص 799.

3 - الكتب المفقودة:

1- الأماني الصادقة.
2- مخاطبة الأصدقاء في المكاتبات و اللقاء.
3-ما جاء من النصوص و الأخبار في حفظ الجار.
4- أدب الأصدقاء.
5- ذم النميمة.
6-تحفة المشتاق في ذكر صوفية العراق.
7- المؤتلف و المختلف.
8-وفيات الشيوخ.
9- من ادعي الأمان من أهل الإيمان.
10- الذهب المسبوك في وعظ الملوك.
11- المتشاكه في أسماء الفواكه.
12- نوادر الأطباء.
13- تفسير غريب ما في الصحيحين.
14- بلغة المستعجل.
15- التذكرة.
16- ذكر ابن شاكر أن له ديوان شعر.

ثانيا: التعريف بالكتاب:

1-عنوان الكتاب: وجدنا الكتاب يحمل عنوان **« جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ورواة الحديث و الأدباء »**، و هو العنوان الذي أثبته صلاح الدين الهواري أثناء إخراجه نسخة محققة للكتاب سنة 2004.

و نأتي لمقدمة الكتاب، فنجد الحميدي تكلم عن عنوانه فقال: **«نبهني على أن أجمع ما يحضرني من أسماء رواة الحديث بالأندلس، و أهل الفقه و الأدب، و ذوي النباهة و الشعر، ومن له ذكر منهم، أو ممن دخل عليهم، أو خرج عنهم في معنى من معاني العلم و الفضل أو الرياسة و الحرب ».**[108]

لم يحدد التحديد الدقيق عنوان الكتاب في افتتاحيته، فما كان من الباحث إلا اختصار كلامه حول مضمون المصنف، ووضعه عنوانًا جامعًا شاملاً، فجاء اختصاره واضحا، وغير مخل بالمعنى الذي أراده المؤلف فعبارة " أسماء رواة

---

108 () ـ المصدر السابق، ص 1.

الحديث و أهل الفقه " تندرج تحت جزء " رواة الحديث " و عبارة "أهل الأدب، و ذوي النباهة و الشعر و من له ذكر منهم " فجاءت في الجزء الأخير من العنوان "والأدباء " على عكس ترتيبها في كلام الحميدي، أين جاءت فيه ثانية بعد رواة الحديث، ثم عبارة "ممن دخل عليهم، أو خرج عنهم في معنى من معاني العلم و الفضل " فقصد بها الاختلافات، والفروق المميزة بين الأندلسيين و المشارقة، و رآها زائدة في العنوان ما يضيف عليه نوعا من الإطناب لمربك والخارج عن شروط وضع العناوين من دقة و اختصار، فمضمون الكتاب قادر على إظهار ما للأندلسيين و ما عليهم.

أما الجزء الأخير " و أهل الرياسة و الحرب " فذكرتها المحققة أولاً لأهميتها في التأريخ، و تحديد معالم الفترة المخصصة، فأتى العنوان النهائي كما أسلفنا " جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس و رواة الحديث و الأدباء ".

تطالعنا عدة عناوين أخرى، مما نعثر عليه في الكتب القديمة، أو الحديثة على حد سواء، فما هي إلا اختصارات للعنوان السابق منها: " جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس" أو " الجذوة ".

يحيلنا تحديد هوية عنوان الكتاب إلى تقصى مدلولاته فهو يحمل شحنة معرفية كبيرة:

فالجذوة: في اللغة تعني اَلْقَبَسَ، و اَلْقَبَسُ الجزء الصغير من النار مصداقًا **لقوله تعالى: (إِنِّيَ ءاَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّيَ آتِيكُمُ مِنْهَا بِقَبَسٍ اَوْ اَجِدِ عَلَى اَلْنَّار هُدىً)**[109] و منها اشتق **المُقْتَبِسُ**.

و المُقْتَبِسُ: جاء مشتقًا من الفعل **اقتبس، يَقْتَبِسُ، مُقْتَبِسٌ، اقتباس** و ما يهمنا هنا **المُقْتَبِسُ**: وهو اسم الفاعل المشتق من غير الثلاثي على وزن مفعول بضم أوله و كسر ما قبل آخره، و يعني الآخذ جزءًا من النار.

و الجزء الأخير " في ذكر ولاة الأندلس و رواة الحديث و الأدباء فهي مضافات للعنوان ومكملات للجزء الرئيسي منه.

يكون المقتبس في حالة حاجة للنار، من ناحية حرّها ليقضى بها مآربه المادية، و من ناحية نورها ليضئ ما حوله فيتسع مجال الرؤية، ما يجعل حركته و حريته تزدادان، فيسير بخطى ثابتة، و المؤلف قاد عنوان كتابه نحو الوجهة الثانية ليهدي بنور علمه كل باحث عن رجال الأندلس و علمائها، كما يهتدى التائه بنور النار في الظلام، و هو تماما ما جاءت به الآية الكريمة، و المؤلف عندما و ضع عنوان كتابه، كان يقصده قصدًا، لأن تاريخ علماء، و أدباء، و محدثي، و فقهاء الأندلس كبير، و ما أخذ منه الكاتب إلا النزر اليسير.

2- أسباب تأليف الكتاب: تنحصر الدوافع التي جعلت الحميدي يضع كتابه في سببين رئيسيين هما:

---

109 () - سوره طه، الآية [10].

أ.رحل الحميدي إلى المشرق طلبًا للعلم، و رحيل المرء عن وطنه يثير فيه كل عواطف الشجن و الشوق، متأملا لقاء أحبابه و رفاقه و كل من تركهم وراءه من أعزاء. لذا كان الحنين من الأسباب الداعية لاستذكار أحبته و ألافه، و شيوخه و علماء بلاده و حكامها، فآثر وضع مصنف يضم ما حضره منهم.

ب.حظي الحميدي بمكانة كبيرة في مجالس العلم ببغداد، ما دفع مضيفه و صديقه ابن ماكولا ليطلب منه وضع مصنف يعرفهم أكثر على تفاصيل الحياة الفكرية في الأندلس و من اشتهر من رجالها في الأدب، و الشعر، و السياسة، و الحرب و الفقه، و غيرها من مجالات العلم و الفضل فقال:**« أما بعد فإن بعض من التزم واجب شكره على جميل بره، لما وصلت إلى بغداد، و حصلت من إفادته على أفضل مستفاد، نبهني على أن أجمع ما يحضرني من أسماء...».**[110]

كانت هذه الكلمات أول ما افتتح به كلامه عن كتابه بعد الصلاة و السلام على الرسول الكريم (صلى الله عليه و سلم)، و لعلو مقام الطالب، استحى المؤلف من الرفض على الرغم من قلة ما صحبه من مؤلفات، و بعده عن المكان المطلوب، فأقدم بعد تردد على وضع مصنفه، معتمدا على كل إمكاناته، و أثناء التقديم له بادر بالاعتذار عن أي قصور قد يوجد فقال: **« ...بعدي عن المكان المطلوب، و قلة ما صحبني من الغرض المرغوب، إلا متصديًا لمذمة الطائفتين».**[111]

أقدم الحميدي على الاعتذار، ليبرئ ذمته من أي لائمة تصله من إحدى الطائفتين، رغم خلوصه في الأخير إلى أن اللوم أمر واقع، لذا يعد اعترافه ردًا واضحًا، و مباشرًا لأي موقف نقدي متوقع اتجاه عمله.

أن يصدر موقف نقدي من هذا النوع، و في وقت مبكر من الحياة الفكرية النقدية لكتاب العرب الأندلسيين قديمًا، يوجب علينا طرح سؤال: هل الرجل يملك ذكاءً و فطنة تجعلانه يتوقع من هذه المواقف، فانبرى للرد عليها؟ أم أنها صدرت عن عفو خاطر دون أي تخطيط مسبق لها؟

و لنصل إلى إجابة شافية للطرح المقدم، لابد علينا من الولوج إلى حياته و البحث في شخصيته، و مكونات ثقافته و معالم فكره،عرف الحميدي بورعه، و ثقافته العميقة، و اعتماده على منهج الجرح، و التعديل، و التنقيح، و أمانته في تقديم ما عنده باعتباره رجل حديث وفقه، كلها أصبحت مقومات تكون نمط فكر و حياة لدى المؤلف، فلم يعد يستطيع الانفصال عنها بعدما تمازجا، و أصبحا صورة واحدة.

مما يثبت صحة الطرح الأول، بأن الحميدي قصد تقديم تبريره اتقاءًا لكل ما يستوجب من النقد لوعيه بما سيحدث، كما قصد إلى وضع عنوان الكتاب، لأن الوعي بالقضايا و المقدمات يؤدي إلى نفس النتائج.

فوعي الحميدي بما يوجد في بلاده من إمكانات إبداعية لشعراء و أدباء و علماء دفعة للافتخار بهم و تقديمهم للمشارقة ليتعرفوا أكثر على ما حوته بلاده، متجاوزا

---

[110] – المصدر السابق، ص 1.

[111] - المصدر نفسه، ص 1.

النظر بتحيز ما يسمى في عصرنا "بالإقليمية "، فلدى العلماء الأندلسيين قصب السبق في أمور كثيرة، ثم قدم كتابه هدية لمن بعثه على وضعه.

3 - مصادره: عندما لم يكن باستطاعة الإنسان حمل كتبه معه لطول طريقة، و مشقة سفره، وأيضًا خوفًا عليها من الضياع و النهب في الفلاة، من طرف قطاع الطرق، لذلك لجأ كثير من العلماء والأدباء القدامى إلى حفظ كتبهم عن ظهر قلب، تخفيفًا لأثقالهم في الرحيل،و القعود، و حفظًا لها من النهب و التلف، و التاريخ الإسلامي شاهد على نماذج كثيرة منهم، لكن لا مجال لذكرها هنا.

قام الحميدي بالأخذ عن علماء بلاده و شيوخه كل ما استطاع عندما رحل إلى بغداد، و لما طلب منه صديقه ابن ماكولا، وضع كتاب يخبرهم فيه بأخبار أهل العلم و الفضل في ذلك القطر، أشار إلى قلة جمعه، خاصة و أن علماء بلاده لهم في هذا الميدان الشيء الكثير قال: **« لا سيما و لعلماء أقطار ذلك البلد في أنواع هذا المعنى كتب كثيرة العدد... و سائر المؤرخين هناك على تباين مراتب جمعهم، و اهتمامهم، مما لو حضرني بعضه... ووصلت به ما عندي لأستطيل و أستكثر».**[112]

ينبه الحميدي على كثرة ما حوت بلاده من كبار العلماء، و المؤرخين لفضلاء الأندلس، و ما محاولته إلا قطرة في بحر، بخاصة أنه لا يملك المصادر و المؤلفات التي توفرت لديه، و قام بتلخيصها، وحذف التكرار منها، و استزاد ما في حفظه ليخرج كتابه أحسن و أفضل مما سيكون عليه.

فلا نستبعد أن يكون الحميدي أخذ عن مجموعة من الكتب كمصادر حتى وإن لم يشر إليها بطريقة مباشرة، فضمن المقدمة نجده يذكر كتبا لابن عبد البر، و لأحمد بن محمد، و ابن حيان، ثم يستشهد بأقوالهم في المتن، و منه استنتجنا أن الحميدي أخذ عن كتبهم، و الأمر الأكيد اعتماد المؤلف على ما في حفظه، فأتعب خاطره، و جمع شتات متفرقه، لأجل وضع مصنفه فقال: **« بادرت إلى جمع المتفرق الحاضر، و إخراج ما في الحفظ منه، و إتعاب الخاطر، رجاء الثواب».**[113]

نراه عندما يتكلم عن حادثة أو خبر يقول: أخبرنا فلان، أو أنشدني، و حدثني فلان، أو سمعت منه، فالمشافهة و الرواية كانت ركيزته الأولى على الرغم من صعوبة التوثيق فيها، و أخذه مشافهة جاء نوعان:

أ- مشافهة مباشرة: كانت عن طريق الأخذ من شيوخه مباشرة، و مشاركته في المجالس و اللقاءات بين العلماء، و الفقهاء، و الأدباء، أو عن طريق المراسلة بين أصدقائه و معارفه من رجال العلم و الأدب، فيقول في بعض تراجمه:**« ...و شاهدته هنالك...»، « أنشدني لنفسه »، « و سمعنا منه »، « أنشدت له »، «...أنشدني...»،« و أنشدني قال:...»، «...أنشدت له من قصيدة...»، «...و قد أدركته...»، « و قد لقيناه و كتب لنا بخطه في فهرسة مسموعاته... ».**[114]

---

112 () - المصدر السابق ص 2.

113() - المصدر نفسه ص 3.

114 ()- المصدر السابق، ترجمة رقم: 4 ، 36 ، 37 ، 53 ، 128، 874 ، 952 ، 958.

ب- مشافهة غير مباشرة: أخذ عن طريق الرواية نقلا عن الشيوخ و العلماء دون الاتصال المباشر مع المعنيين فيقول: **« روى عن...»، «فأخبرنا فلان...»، «قال: حدثني...»، «و أنشدنا له غير واحد...»**، و عمومًا أكثر من روى عنهم و نقل أقوالهم في كتابة كانوا شيوخه بخاصة: أبو عمر بن عبد البر، و أبو محمد علي بن أحمد.

4 - مضمون الكتاب: بدأنا الحديث عن كتاب جذوة المقتبس حسب الترتيب المنطقي، فبعد التعرف على العنوان و مدلولاته، و أسباب وضعه، و مصادره، نصل إلى الكلام عن المضمون، الذي أكسب المدونة أهمية كبرى، منحته مكانة مميزة في مصادر الأدب الأندلسي.

جعل الحميدي كتابه على عشرة أجزاء من تجزئة خمسة أصول، نتعرف عليها حسب الترتيب الموجود في الكتاب، ووضعه صاحبه دون أي تغيير:

أولاً - الأصل الأول: تمثل في افتتاحية الكتاب، و تحدث فيها عن فكرة وضع الكتاب، و الأسباب، و الدوافع التي حفزته على المضي قدمًا في إتمام مشروعه، و المنهج المتبع في وضع التراجم الموجودة في المتن، مدعما كل عنصر بالحجج و البراهين الدالة على صحة رأيه، خاتما إياها بلمحة عن فتح الأندلس، و ذكر أسماء بعض الرجال السابقين في الفتح و بعض من تولى حكمها قبل تأسيس دولة بني أمية في الأندلس.

ثانيا - الأصل الثاني: خص الأصل الثاني و فيه الجزء الأول من الأصل، بمقدمة تاريخية تحدث فيها عن الدولة المروانية منذ بدايتها، و حتى سقوطها بداء بعبد الرحمان بن معاوية الملقب بالداخل إلى غاية هشام بن محمد المعتمد، ووصل عددهم إلى غاية ثمانية عشرة خليفة أمويًا.

لم يتجاوز الحميدي الحديث إلى دول ملوك الطوائف، بسبب بعده عن القطر، فهو رجل لا يكتب إلاّ ما يعلم، و لا ينطق إلاّ بما يرى، و لا يعود وضعه إياه يقول فيها: **«...و مع ما في ذكر أمرائها، و أزمانهم من المعرفة، فإن فيه فائدة أخرى و هو أنا إذا لم نقف على تحديد وقت وفاة أحد ممن ذكرناه من غيرهم، نسبناه إلى أيام من عرفنا أنه كان في أيامه من الأمراء، فاستبانت بذلك طبقته، و عرف زمانه »**[115].

بينت الفقرة التالية الهدف الرئيسي و من وجود الفصل و الذي سبقنا و تحدثنا عنه.

ثالثا - الأصل الثالث: جمع فيه بين الجزء الثاني كاملا، و جزء من الجزء الثالث و فيه ترجم للمحمديين- أي من كان اسمه محمدًا- تيمنًا بالرسول الكريم (صلى الله عليه و سلم) ووصل فيه عدد التراجم إلى مائة وواحد و سبعون ترجمة.

---

(115)- المصدر السابق ص 3.

رابعًا - الأصل الرابع: امتد من باقي الجزء الثالث إلى غاية الجزء التاسع، ضامًا عددًا من الأبواب حسب ترتيب حروف الهجاء من الألف إلى الياء، باستثناء باب الراء و الظاء اللذان لم يجد فيهما شيئًا.

ووصل عدد التراجم في الأصل الرابع إلى سبعمائة و خمسة و أربعون ترجمة منها: مائة و أربعة ترجمة للأحمديين- من كان اسمه أحمد- تيمنًا بالرسول الكريم (صلى الله عليه و سلم)

خامسا - الأصل الخامس: احتوى على الجزء العاشر من الأصل، و قسمه بدوره إلى مجموعة من التفرعات جاءت كالتالي:

- باب من ذكر بالكنية (43)
- باب من نسب إلى أحد أبائه (17)
- باب من ذكر بالنسبة (6)
- باب من ذكر بالصفة (2)
- باب النساء (3)

ترجم في باب النساء لثلاث شاعرات هن صفية بنت عبد الله الربي، و مريم بنت أبي يعقوب الفصولى الملقبة بالحاجة، و الغسانية و كن أشهر شاعرات في عصرهن و جالسن الحكام و الأمراء.

ووصل إجمالي تراجم الكتاب إلى 987 ترجمة تنوعت بين تراجم للأدباء و رواة الحديث، و الشعراء، و الفقهاء، و من كان له ذكر في مجال من المجالات، و ذكر الكثير من النماذج الشعرية المتميزة الدالة على رهافة و جودة حسن المؤلف في إخباره لها.

5- شهرة الكتاب: ذاع صيت كتاب الجذوة في المشرق، قبل ذيوعه في الأندلس، لوجود المؤلف في بغداد، كبرى حواضر الثقافة في المشرق، فأقبل الناس يستنسخونه، و يأخذون عنه، و يتداولونه فيما بينهم، لما حواه من نوادر الأخبار و روائع المختارات الشعرية.

فسار كتاب الجذوة رحلة معاكسة، من مشرق الأرض لمغربها عكس المدونات الأندلسية الكبرى التي جاءت قبله و بعده، و سارت رحلتها الطبيعية من منبعها الأصلي، ثم تفرعت إلى المغرب، و مصر، و بغداد و غيرها.

و ما إن وصل الكتاب إلى الأندلس حتى قابله رجال الأدب و الفكر بفرح، و ابتهاج مفتخرين بمولود جديد أضيف إلى المكتبة الأندلسية فأقبلوا عليه يأخذونه، و يروونه عن بعضهم، و اقتباس جزء منه، أو اعتماده و اقتباسه جميعا مثلما حدث مع الضبي في بغية الملتمس، و تكمن أسباب نجاحه و شهرته الواسعة في النقاط الآتية.

1. ترجم فيها لفترة زمنية مهمة في تاريخ الدولة الأندلسية، و أزهى عصورها، فحفظ لنا معالمها، و ملامح ثقافتها، و طبيعة الحياة آنذاك على المستوى الديني، و السياسي و الاجتماعي، التي تصب كلها في مجرى واحد، منذ الفتح إلى نهاية الدولة الأموية في القرن الرابع الهجري بالأندلس.

2. يعد الكتاب ذاكرة جماعية بالفعل، ضم في طياته تراجم لفئات مختلفة من أعيان السياسة و الحكم، و علماء، و فقهاء، و أدباء، و شعراء، فجاء الكتاب بحق موسوعة علمية جيدة على الرغم من اختصار تراجمه.

3. امتازت تراجم الكتاب بالاختصار، و هذا الاختصار لم يكن قط معيبًا لها، فكان جامعًا لأهم المعلومات المتعلقة بالشخصيات المترجم لها، و مفيدًا سهل الأخذ و الحفظ، و قال في مقدمته: **" و كل ذلك على الاختصار المقصود "**[(116)] فهو قصده للغاية الموجودة منه و الإفادة المجزاة من مضمون مصنف.

4.خص الحميدي تراجم كتابه للأندلسيين دون غيرهم ، و اعتزازا لما هو موجود في بلاده من أهل العلم،وكثرة عددهم ،وجودة إنتاجهم وتنوعه فقال **:«وإن قل ما عندي»**[(117)].

تؤكد عبارته السابقة حرصه الشديد على إبراز الإمكانات الإبداعية، والفكرية الموجودة في الأندلس، وتعني أيضًا شساعة ، وعمق الميدان المقصود الغوص فيه ، ولصعوبة الخوض في مجال التراجم بالأدب الأندلسي فإنه يعتقد أن كل ما سيجمعه سيبقى قليلا بالمقابل لما هو موجود في الواقع الأدبي والفكري في الأندلس .

يقودنا التعرف على أسباب نجاح الكتاب إلى ذكر أمثلة لكتب أخذت عن الجذوة منها : الصلة لابن بشكوال (ق 5هـ) ، والحلة السيراء لابن الآبار (ق 7هـ) والمغرب في حلى المغرب (ق 7هـ)، وشذرات الذهب لأبي الفلاح بن العماد الحنبلي (ق 10هـ)، ونجد كتابين أخذا الكثير عن الرجل رغم اختلاف أعمالهما، واهتماماتهما هما :

1- **بغية الملتمس لأبي عميرة الضبي** (ق 6هـ)**:** جاء بعد الحميدي بحوالي قرن من الزمن، فأعجب بكتابه، واستفاد منه، واعترف أنه أخذ الكثير عنه يقول : **«ولم أجد في كتب من تقدم كتابًا أقبل من كتاب أبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي ....فاعتمدت على أكثر ما ذكره »**[(118)].

نستفيد من ذلك أنه ارتكز على كتاب الحميدي واعتمده كما هو، وبعقد مقارنة بسيطة بين الكتابين نجد مايلي:

1- نقل الضبي زهاء ثمانمائة وخمسة وعشرين ترجمة عن الحميدي كما هي فلم ينقص أو يزد فيها، وفي طياتها نجد إشارات لأنه أخذها على حالها فقال مثلا في الترجمة رقم 4: **«...قال أبو عبد الله الحميدي في تاريخه وقد شاهدته هنالك ....»**[(119)].

2- قام الضبي باختصار خمسة عشرة ترجمة، اختصارا شديدًا جعل من بعضها غامضة، كما تخلى فيها عن الإسناد، واكتفى بالإشارة إلى مواطن المشكلة، دون التعرض لها كما في الترجمة رقم 94 حيث قال : **«وذكر ابنه أبو الحسن علي ما اتفق**

---

116 () ــ المصدر السابق ص 3.

117() ــ المصدر نفسه ص 2.

118 () - الضبي ، البغية، ص 1.

119 () - المصدر نفسه، ص 36

ومقابلة الكتاب بينهم وبين القاضي منذر بن سعيد بسبب نسخة كتابه المختصرة في جملة و ما أحضره من الكتب للمقابلة فأضربت عن ذكره» [120].

تقابل الترجمة رقم 94 في كتاب الضبي الترجمة رقم 39 في كتاب الحميدي، وقد فصل فيها المشكلة المختلف فيها حول الكتاب والنسخة المملوءة بالتصحيف.

ج-نقل الضبي سبع تراجم عن الجذوة، وأضاف إليها روايات من عنده قال : **«وزدت ما أغفله....»**[121].

د-تجاهل الضبي ذكر ما يقارب من مائة وأربعين ترجمة ، ولم يعرف سبب لذلك ،ربما لشهرة المترجم له أو قلة المعلومات عنده أو تضارب الروايات لذلك تجنب ذكرها.

ه-كما أضاف الضبي إلى الجذوة ، ما يقارب من نصف تراجمها ، بذلك يكون قد أضاف مادة قيمة للكتاب يقول عنها : **« إلا أنه انتهى فيه إلى حدود الخمسين وأربع مائة ...وتممت من حيث وقف »**[122]

جاءت إضافته للكتاب حصيلة إنتاج قرن من الزمن فصل بين الكتاب الأول والثاني .

2-معجم الأدباء لياقوت الحموي (ق 7هـ) : أخذ ياقوت مجموعة من التراجم الخاصة بالأندلسيين عن كتاب الحميدي ،سواء كما هي أو مختصرة ، غير أن اختصاره لها لم يكن مخلاً ولا معيبًا، وإنما بقيت التراجم واضحة ومست عملية التلخيص الإشكالات الدائرة حول بعض القضايا ، فنجده تجنب تكراراها وأخذ فقط الوجه الصحيح منها ، ومن ذلك يقول في ترجمة **" محمد بن حارث الخشني"** و اختلاف الحميدي مع أبي سعيد في تسميته الصحيحة قال : **« ابن سعيد الحافظ غلط فيه فقال :محمد بن عبد السلام الخشني صاحب التاريخ ، وإنما هو محمد بن حارث فقط ، فهذا تلخيص كلام الحميدي لا على وجهه»**[123].

أثار الحميدي هذا الإشكال في الترجمة رقم مائة ،وتفادى ياقوت ذكرها لطولها وعدم إفادتها في المتن باعتباره أخذ الاسم الصحيح وهو صميم الإشكال وهذا المهم.

ومن التراجم التي أخذها على وجهها ، ترجمة ابن سيد الناس يقول ياقوت : **« قال أبو نصر الحميدي في آخر كتابه، في باب من يعرف بأحد آبائه ابن سيد الناس، إمام في اللغة العربية، وكان في أيام الحكم المستنصر، وهو مصنف كتاب العالم في اللغة العربية في نحو مائة مجلد، مرتب على الأجناس، بدأ بالفلك وختم بالذرة، وله في اللغة العربية كتاب "العالم والمتعلم" على المسألة والجواب، وكتاب شرح الأخفش، وله غير ذلك، ذكره أبو محمد علي بن أحمد وأثنى عليه، ولم يسمّه لنا، ولعله أحمد بن أبان بن سيد المذكور في بابه »**.[124]

---

[120] - المصدر نفسه، ص 61.

[121] - المصدر السابق ، ص 1.

[122] - المصدر نفسه ، ص 1.

[123] - ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ،مج 6 ، ص 565.

[124] - المصدر السابق، ص 704.

فالملاحظ أن ياقوت أخذ الترجمة على حالها، حيث رأى أنه لا يستطيع إضافة شيء لها أو تلخيصها، فهي لا تحوي أي مناقشة لقضية مطولة لذا وضعها كما هي .

ثالثا منهج الكتاب :

أن يقوم الإنسان بوضع مصنف، أمر متاح لكل من يملك الإمكانات الواجبة لتحقيق ذلك، والأهم أن يحدد المنهج اللازم ليسير عليه في كتابة مؤلفه، وترتيب مادته العلمية، وتحقيق الغاية من وضعه، ثم إخراجه للقراء بشكل ممنهج يتيح لهم تلقي الأفكار الموجودة في الكتاب بوضوح، والأخذ منه بسهولة، فأهمية المدونة ترتبط بأهمية المنهج وصوابه وجاء في القرآن الكريم كلمة منهج تحمل نفس المعنى قال تعالى : **«لِكُلٍ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً ومنهاجًا »**.[125]

ويكون تشكل شخصية المؤلف بحسب تشكل منهجه، فكلما ارتبط المنهج بالعلمية والدقة، كانت شخصية المؤلف دقيقة وأمينة في نقل المعلومات وتقديمها لنا، ويؤدي ابتعاده عن المنهج القويم إلى وجود فوضى علمية بسبب تراكم الأفكار، بشكل غير مترابط ومفكك، فينحرف إلى ذكر معلومات خارجة عن إطار تأليفه، أو الخوض في تفاصيل توسع مجال الرؤية وتشتت عملية التركيز حول القضية الحقيقية ، والمقصودة في ذلك الموضع .

يأتي إصدار الحكم النهائي على شخصية المؤلف بعد تقصي منهجه في وضع الكتاب، ومدى مطابقته للمنطق، وهاهنا نقول : هل كان للحميدي منهج علمي واضح في وضع الكتاب أم لا ؟ وإن كان موجودا، فما هي القواعد والأسس التي اعتمدها في سيره ؟ وما هي النتائج التي أراد الوصول إليها؟ وهل استطاع تحقيقها في النهاية أم لا ؟.

تطلعنا المقدمة – جذوة المقتبس – دائما بأجوبة عن أكثر الأسئلة التي طرحناها، أو القضايا التي نستفسر عنها، يقول الحميدي : **« فأول ما نبدأ به أن نذكر وقت افتتاحها، ومن فتحها، ومن وقع إلينا ذكره ممن دخلها من التابعين ، وممن وليها من الأمراء وهلم جرا، ثم نذكر سائر من قصدنا ذكره ... مرتبا على حروف المعجم »**[126] .

يسير كتاب الحميدي على منهج جلي المعالم، بدءا بتحديد الإطارين الزماني والمكاني للفترة المترجم لرجالها، والمبادئ المترجم على أساسها، وبعد التسليم بوجود منهج في الكتاب، قام صاحبه بالتخطيط له مسبقا، لكن أن نحكم على استقامته أو اعوجاجه، فلذلك مكان آخر، نصل له بعد التعرض لأهم عناصر المنهج المأخوذة سواءً من الكتاب بمتنه ومقدمته، أو ما وصلنا له عن طريق التقصي والاستنتاج.

1-تحديد الإطار الزماني: أحب الحميدي الأندلس، كما أحب رجالها وعلماءها ووضع كتابه خصيصًا لإبراز مآثرهم، والدفاع عن منجزاتهم وعبقرياتهم، غير أن هذا لم يكن السبب الحقيقي لتحديد الفترة الزمنية التي عالجها الكتاب، فتحديد الفترة الزمنية

125 () - سورة المائدة]48[.

126 () - الحميدي ، الجذوة ،ص 3

للكتاب من وقت افتتاحها إلى غاية نهاية الدولة المروانية بالأندلس، ما يوافق فترة خمسة قرون ممتدة من سنة 92هـ إلى سنة 422هـ، وما حتم عليه نوعية التحديد هذه أسباب ثلاثة نذكرها حسب أهميتها :

1-يعود تاريخ وضعه للكتاب إلى الفترة الممتدة بين رحيله إلى المشرق ووفاته ، ما يؤكد أنه التزم بما كان عنده من معارف سابقة، فالرحلة في طلب العلم ولقاء العلماء والشيوخ مزيد من الكمال، وأفق رحب يسبح فيه المرء أينما كان. يقول بن خلدون في هذا الشأن : **«... البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم ستارة علمًا وتعليمًا وإلقاءً ، وتارة محاكاة وتلقينًا بالمباشرة ... فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفائدة، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[127].**

فوقف الحميدي على رأس الفترة الزمنية التي خرج فيها من الأندلس ونظره إلى نتاج القطر إلى أول يوم فتحه فيها العرب، فذكر مآثرهم وخطواتهم العملاقة في بناء حضارة العرب في الأندلس.

2-بعده عن الأندلس، منعه من ذكر الكثير من الحوادث، وقعت بعده، وغير أكثرها وجه البلاد، وأعاد تحديد خارطتها، وقلب موازين القوى فيها ، ما جعله يحترم كلمته، ويعرض عن ذكر ما لم يشهده بأم عينه، أو ينقله عن عالم ثقة عرف بروايته وأخلاقه، وصرح بذلك في خاتمة الفصل الأول حيث يقول : **« هذا آخر ما استفدنا أكثره من شيخنا أبي محمد علي بن أحمد وعلمناه نحن ... إلى وقت خروجنا منها ، وهناك ملوك أخر ...لم نتعرض لذكرهم ... وحقيقة أخبارهم قد بعدت عنّا»[128].**

5- قلة ما حمله من الكتب، أو ما كان محفوظا في خاطره، فرض عليه أن يكتب ترجمة كل من خطر بباله ، وكان لهم ذكر، حتى وإن لم يتمكن من معرفة جميع تفاصيل حياتهم، أو أسماء بعضهم، ما جعله يفتح المجال لذكر العديد من العلماء سواء بصفاتهم، أو كناهم ،أو أسماء أحد آبائهم، فجاءت التراجم متنوعة ومختلفة تضم علماء، وفقهاء، وأدباء، وشعراء، ورجال السياسة، والرياسة، والحرب.

يخدم الترتيب الزمني الأهداف العلمية التي وضع لأجلها، فصاحبه أحسن وضعه تقسيمًا وتوظيفًا، فنجده قسمه إلى مرحلتين :

1- أولها بدأ به ذكر وقت افتتاحها في القرن الثاني أحسن القرون بعد قرن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والأمير الآمر بالفتح والقائد الفاتح لها و العروج إلى ذكر الفتن المثارة بين الطرفين السابقين، وما آل إليه الخلاف ثم الأمراء المتوالين على حكمها إلى الفتنة الكبرى التي وقعت بين الأمراء الأربعة : بلج بن بشر، وعقبة بن الحجاج، عبد الرحمن بن عبد الله العكي وعنبسة بن سحيم، وكيف حسمها بعد ذلك القائد أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وختم حديثه عن الفترة بذكر أسماء بعض الفاتحين ،والعلماء ، والتابعين على أن يأتي الباقي في المتن.

---

127 () - عبد الرحمان بن خلدون ، المقدمة ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ،2000، ص 464.

128 () - الحميدي الجذوة ، ص 36

2-وبدأ كلامه عن الفترة الثانية بقيام دولة بني أمية ، بعد انتهاء حكم يوسف بن عبد الرحمان الفهري، وتعتبر أطول زمنًا من المرحلة الأولى والأغزر إنتاجًا فكريًا وأدبيًا، وأكثر استقرارا على المستوى السياسي ،فتناول بالذكر جميع ملوك بني أمية، وأبرز ما حدث من وقائع في زمان كل واحد منهم.

وحديثه عن الفترات الزمنية بكل هذا التحديد والتدقيق ينم عن مدى حرص المؤلف على نقل الأمور كما هي دون تحريف وتزييف ليعلمنا ما حصل في ذلك القطر – زمن الخمسة قرون- التي ترجم لأكثر رجالها شهرة ونبوغًا في جميع المجالات على مدى كل صفحات المصنف لا في فقرة أو فصل.

2- **تحديد الإطار المكاني :** بعد تحديد الإطار الزماني نأتي للحديث عن الإطار المكاني، فمادام الكتاب يتحدث عن الأندلس، فهو مكانيًا يخصها أو يخص جزءً منها، وما دام المؤلف بعيدًا عن بلاده فهو سيسعى للحديث عن كل شبر من ترابها ، ولكن هل تحدث عنها بشكل ممنهج ، أو أنه تحدث عن بقاعها دون أي تحديد ؟.

يتراءى لمتصفح كتاب الجذوة أنه يتحدث عن الأندلس كرقعة جغرافية واحدة من شمالها إلى جنوبيها ، ومن شرقيها إلى غربيها ، فلم يحدد تقسيمًا مكانيًا معينًا كالذي جعله ابن بسام في كتابه الذخيرة – قسمه حسب الأقاليم – تسهيلا للقارئ ، ونمطا عقليًا مرتبًا، ما يفتح المجال لكثير من العبثية في التأليف لولا لجوؤه لترتيب الكتاب حسب الترتيب الألف بائي ما أخرجه من رواق الحسابات الأخرى ، التي تدخل فيها القيم العقلية ، والعاطفية ، والأخلاقية المرجحة لكفة شخصية على أخرى ، فبعده عن سلم القيم أتاح لأبي الفتوح أن يسير بيسر في تقديم تراجمه حسب الألف باء العربية ، رغم رؤية الكثيرين له أنه منهج جاف وجامد ،إلا أن الحميدي بعث في كتابه الروح ، والفعالية ، فلا نجده يسرد تراجمه كما هي تاريخًا وأخبارًا حدثت في رقعة جغرافية أو مدينة أندلسية معينة ، إنما هو يناقش الكثير من القضايا نتعرض لها أثناء الحديث عن الجانب النقدي في الكتاب .

3-**ترتيب المترجمين :** أشرنا كثيرًا أثناء حديثنا عن الإطار الزماني والمكاني عن المنهج المتبع من طرف المؤلف ، وإصراره عليه و التزامه به ،فلطول الفترة الزمانية واعتماده على الاختصار ، فضل ترتيب مصنفه على حروف المعجم ليتسنى له تقديم كتابه في أحسن صورة تسهيلا للحفظ وزيادة في الفائدة

وقد التزم الحميدي على مدار تراجم الكتاب ، بمنهجه ، باستثناء الفصلين الأول والثاني اللذان قدمهما على باقي الفصول المرتبة على حروف المعجم ، فقد خصص الأول لرجال الحكم والسياسة ، من خلفاء بني أمية في الأندلس ، ثم والاه بالفصل الثاني المخصص للمترجم لهم الحاملين لاسم محمد تيمنًا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

أما باقي الفصول فجاءت تضم التراجم حسب الترتيب السابق فيقول : **« وقد آن أن نرجع إلى ذكر المقصود من الأسماء على ترتيب الحروف، ونبدأ بذكر المحمديين و الأحمديين منهم أولاً ثم نفعل ذلك في الآباء مستمرا إلى الانتهاء»[129] .**

أعطى المؤلف الأولوية للأسماء المحمدية و الأحمدية في كتابه أولاً ، للسبب المذكور آنفًا ، ثم يستمر كتابه بعدها على الآباء دون أي خلل أو انكسار ، وبلغت دقته في ترتيب الأسماء إلى مراعاة الحروف الأول فالأول ، وسيتضح لنا هذا أكثر بالخوض في تفاصيل الجزئين الرابع والخامس من الكتاب:

بدأ الجزء الرابع من الكتاب بتتمة ما سبقه من ذكر لأسماء الأحمديين بعد بداية الترتيب الألف بائي في الجزء الخامس من الكتاب ، وعند انتهائه منهم ، توجه إلى ذكر من كان اسمه إبراهيم فذكر منهم 37 ترجمة ، وأتبعهم بمن حملوا اسم إسماعيل فذكر 10 تراجم، ومن كان اسمه إسحاق فذكر 7 تراجم، ووالاه بمن كان اسمه إدريس فذكر رجلان، وعقب إدريس جاء حملة اسم أيوب فذكر منهم ثلاث رجال .

نلاحظ في النموذج الموجود بين أيدينا أن المؤلف احترم ترتيبه للأعلام حسب الحروف العربية، ترتيباً بلغ من الدقة الشيء الكثير ، وأهم ما ميز منهجه في الترتيب حبه وتقديمه لأسماء الرجال الذين حملوا أسماء أنبياء الله ، بدأ كما قلنا سابقا بالمحمديين و الأحمديين ثم من كان اسمه إبراهيم ،وإسماعيل ، وإسحاق ، وإدريس ، وأيوب ، وتستمر طريقته هذه في جميع فصول الكتاب، ففي حرف السين مثلاً : نجده بدأ بمن كان اسمه "سليمان "، وفي باب الياء بدأ بمن كان اسمه "يوسف "، ثم "يحي" ، وكان عندما ينتهي من ذكر الأعلام الحاملين لأسماء الأنبياء ، يكمل أسماء الأعلام على نفس الترتيب ، وبنفس الدقة، وعودًا إلى الجزء الخامس من تجزئة الأصل نراه استأنف ترتيبه بمن كان اسمه "أبان" ثم "أسلم" ثم "أصبغ" وأنهاه بذكر أفراد الأسماء، معتمدا دائمًا الترتيب الألفبائي.

ولجأنا في هذا العنصر للحديث عن تفاصيل المنهج بكل دقة، وتفصيل و استنادا للأمثلة المستخرجة من الكتاب لنفتح من جهة أخرى بابًا آخر للمناقشة، فالكتاب يحتوي على تراجم للكثير من الرجال على اختلاف طبقاتهم وعلومهم، وما يهمنا من تراجم الكتاب رجال الأدب فقط، فبعدما خضنا في تعريف الكتاب ومنهجه، وقبله تعريف المؤلف وشخصيته، سنخصص ما بقى من الفصل للحديث عن الأدباء، ونصيبهم من كتاب جذوة المقتبس ، ولماذا نركز على الأدباء دون غيرهم، بخاصة و أن المؤلف رجل حديث، وفقه والسبب أن موضوع الدراسة ، يهتم بفن الترجمة في الأدب الأندلسي ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ذكر الفقهاء وما تميزت به تراجمهم سيكون حشوًا وتكرارًا، لما سنذكره في الحديث عن تراجم الأدباء، فعناصر الترجمة جميعها متشابهة من ذكر للمولد، والنشأة، والوفاة، والرحلة، والمؤلفات وغيرها.

---

[129] - المصدر السابق ص 36.

كما أننا لن نقتصر في حق الفقهاء الذين كان لهم اهتمام بالجانب الأدبي، وذكر لهم المؤلف نماذج شعرية، فهم أيضا سنتكلم عنهم في باب تراجم الأدباء، فكل من كان له علاقة بالأدب من قريب أو من بعيد في الكتاب، سنحاول ذكره أو الإشارة إليه .

4**ـترتيب الأدباء :** نجئ في ترتيب الأدباء على أهم عناصر الترجمات ، وما امتازت به فالمؤلف اهتم بالأدب من بعض جوانبه فقط، لأن طبيعة شخصية المؤلف تبرز في طيات مصنفه ، فامتناعه عن ذكر بعض الأشعار والقطع النثرية ناتج عن سبب خوضها في الهجاء ، والمؤلف يرى أن الهجاء ذكر عيوب الناس ونوع من النميمة و الغيبة، فأعرض عن ذكر أشعارهم حتى وإن كانت هي النماذج الوحيدة المتوفرة لديه من إنتاج هؤلاء الأدباء ، وتكلم عنها في كثير من المواضع في متن الكتاب ، ولا يكفي الزمان والمكان لذكرها جميعًا ، إنما نكتفي بعرض بعض النماذج منها قوله في الترجمة رقم 252: **« أحمد بن نعيم السلمي،أديب شاعر قديم ، مشهور ،قبيح الهجاء ، أظنه كان في أيام عبد الرحمان الناصر »**[130] .

أن يقول عن أديب أنه شاعر قديم ، فهو يعطيه المكانة العليا بين الشعراء ،وما وصل إليه بفضل إبداعه ، ويضيف على كلامه شهرة شعره ، رجل ملك قيمة أدبية سامية بين الشعراء ، إلا أنه لم يذكر ، ولو مقطعًا قصيرًا من شعره ،أو حتى بيت واحد ، وذلك أن شعره هجاء، وهجاء الشاعر أحمد بن نعيم السلمي قبيح لاذع ، فأعرض عنه جملة وتفصيلاً فجاءت ترجمته بذكر اسمه ومكانته ، وصفته ،ووفاته .

ونذكر نموذجا آخر اشتهر صاحبه بعدة مواقف ، وخاصة في الكثير من الأغراض منها الهجاء، و أشار إليه المؤلف بقوله : **« أحمد بن عبد الله بن زيدون أبو الوليد من أهل قرطبة ، شاعر مقدم ، وبليغ مجود ، كثير الشعر ، قبيح الهجاء،... »**[131].

لم يظلم الحميدي أدباءه ، وشخصيات تراجمه ، وإنما كان صاحب رأي واضح ، ومبدأ لم ينحرف عنه على طول مدونته ، فقد منحه حق التقدم لتقدمه ووصف شعره بالجودة لما بلغه شعره من المتانة ، والشهرة ، والذيوع ، كما تكلم عن هجائه لقوله الكثير من الشعر والنثر في الهجاء بخاصة في ذم منافسه ابن عبدوس ، وأعرض عن ذكر شعره في الهجاء، واختار له بدل ذلك مقطوعتين شعريتين في الغزل، رائعتين بحق، بأسلوبهما الرائق، ولغتهما العذبة السلسة، وموسيقاهما الرنانة .

وتناول بعد موضوع شعراء الهجاء ، موضوع الفقهاء الشعراء ، وعن شعرهم ، وذكر لهم العديد من النماذج الشعرية أخبرنا في ترجمة سليمان بن محمد بطال أبو أيوب البطليوسي بأنه : **« فقيه مقدم ، وشاعر محسن كثير الشعر... وله من قصيدة طويلة :**

نارِ الصبابة في الضلوع تَأَجَجِـــيْ   وغمامة الدمع الوكيف تـَبَعَّجِـــي

فـَأَرى خِلاَل الغَيْمِ مَبْسَمَ بَـــارِقٍ

---

[130] - المصدر السابق ص 148.

[131] ـ المصدر نفسه ص 224.

وفي ترجمة الفقيه عبد الله هارون الأصبحي قال :**« فقيه أديب شاعر زاهد ...من أهل العلم، ذكره لي أبو الحسن علي بن أحمد العابدي ، وأنشدني له أشعارًا أنشده إياها ومنها :**

كم من أَخٍ قد كنتُ أحسبُ شَهْـدةً حـتَى بَلَوْتُ المُرَّ من أخلاقِـهِ
»(133).

وفي ترجمة أخرى خص بها الفقيه عبد الرحمان بن أحمد قال : **« فقيه عالم أديب ... وهو الذي خاطبه أبو محمد بالقصيدة البائية التي يفخر فيها بنفسه وعلومه وفيها :**

ولو أنني خاطِبتُ في الناسِ جاهـلاً لـَقِيْلَ دَعَاوىَ لاَ يَقُومُ لَهَا صُلْـبُ
ولـَكِني خَاطَبْتُ أعْلَمَ مَنْ مَشَـى وَمِنْ كُلِ عِلْمٍ فهو فيهِ لَنَا حَسْبُ(134).

اختار الحميدي نماذج فقهائه الشعراء بعناية وبحسب ما اشتهر به كل واحد منهم، كما نلاحظ أيضا في النماذج التي اخترناها، تنوع الأغراض من غزل، وفخر، ومدح لمن أحبوهم كما في الأنموذج الأول، أو فخر و اعتراف بمكانة العلم والعلماء في قطر الأندلس، من ذلك قول أبي محمد في الفقيه عبد الرحمان أبي محمد، وأحسن نموذج يتراءى لنا من بين النماذج المعروضة، الأبيات التي قالها الفقيه عبد الملك بن حبيب : (135)

صـَلاَحُ أمْرِيْ والذي أبْتَغِـيْ سـَهْلٌ على الرحمنِ في قُدْرَتِـهْ
ألفٌ من الحُمر وأقلِلّ بِهَـا لـِعالِمٍ أوْفَى على بُغْيَضتِـهْ
زرياب قد يأخذها دفعـة وصنعتي أشرف من صنعتـه.

أقر الشاعر بحقيقة الكون ومغزاه في هذه الأبيات، فالعلم والدين أدوم من أي شيئ سواهما، وكما أضاف الفقهاء الشعراء للدين بعلمهم أضافوا كذلك للشعر بلغتهم ، وقرائحهم الصافية المبدعة .

كان شعر الهجاء، والفقهاء الشعراء، ميزتان برزتا في الكتاب عن باقي التراجم، لذا تكلمنا عنها قبل الخوض في تفاصيل عناصر الترجمة المشكلة لكتاب جذوة المقتبس ، والتي تشترك فيها جل الترجمات، وجاءت حسب الترتيب الآتي :

1- ذكر اسم المترجم ولقبه وكنيته : يقوم الحميدي بتقصي اسم المترجم له إلى أبعد جد يستطيع الوصول إليه ، محاولاً ، فصل الأسماء المتشابهة بلقب أو كنية فيقول في الترجمة رقم :59

132() - المصدر السابق ص 222.
133() - المصدر نفسه ص 266.
134 () - المصدر نفسه ص 270
135 () - المصدر نفسه ص 284.

« محمد بن سليمان بن أحمد بن حبيب ، بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، يعرف بالحبيبي الأندلسي »[136].

تعد ترجمته من ناحية الاسم طويلة جدًا ، وصلت حدّ الجد الثالث عشرة ، كما هو الحال في الترجمة رقم 140 عندما تكلم عن محمد بن معاوية فقال : **« محمد بن معاوية بن عبد الرحمان بن عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن إسحاق ، بن عبد الله بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن مروان بن الحكم أبو بكر يعرف بابن الأحمر ...»[137].**

ويقول في ترجمة عبد الله بن كامل : **« ... ويقال له أيضاً طُلَيْبٌ بن كامل ولعل طليبًا لقب ، وكنيته أبو خالد »[138].**

فقد حاول تقصي حقيقة اسمه، والتمييز بين اللقب والكنية والاسم ، توجد الكثير من الأعلام طغت ألقابهم وكناهم على أسمائهم الحقيقية فمحتها تقريبا من الوجود، وخصص المؤلف جزءً من الفصل العاشر لذكر من حضره من الأعلام بكناهم، وصفاتهم، بالإضافة للذين ذكرهم في الفصول الأخرى ومن ذلك قوله:**«غلام الفصيح الأندلسي شاعر ادعى أنه عبيد الله بن المهدي محمد بن عبد الجبار»[139].**

توجد الكثير من الألقاب كالجرفي واليحصبي، والخندفي، والبزلياني، واليربوعي، والمصنف غني بهذه الألقاب، و ما ذكرنا فقط إلا أشهر النماذج من تقصي حدود اسم المؤلف، وتحديد معالمه، والفصل بينه وبين لقبه، وكنيته، أما من احتجبت أسماؤهم، وسيطرت ألقابهم وكناهم على أسمائهم فاكتفى بذكرها كما هي .

2- **ذكر الألقاب الرسمية والعلمية :** بعدما فرغ الحميدي من ذكر أسماء أعلامه، وكناهم، قام بذكر ألقابهم مرافقةً لأسمائهم، سواء كانت ألقابًا علمية أو رسمية فذكر ذوي الألقاب الرسمية بالوزير فلان، أو ذي الوزارتين فلان أو صاحب الرياسة، كما أدخل فيها أيضا ألقاب الخلفاء المضافة إلى أسمائهم الحقيقية كلفظة الجلالة .

أما الألقاب العلمية فنجده يذكر الأديب الشاعر فلان، أو الأديب العالم، أو الفقيه العالم الأديب، أو النحوي الفقيه الشاعر، أو من كان واحدًا من هؤلاء فيقول الشاعر ...، أو الأديب ... أو الكاتب.

ونجده في كثير من الأحيان يزاوج بين الألقاب الرسمية والعلمية للأعلام الجامعين لصفة العلم والرياسة فيقول: القاضي الأديب أو ذو الوزارتين الشاعر المجيد، و الأديب صاحب الرياسة فلان، وغيرها من الألقاب المتنوعة المتناثرة في طيات المصنف .

3- ذكر الأدباء من ذوي الرياسة وبيوت العلم : لا يتوفر عنصر انتماء الأدباء جميعًا إلى بيوت ذات علم أو رياسة أو هما معاً ، وإنما يوجد في البعض منها، فعندما يفرغ من ذكر اسم المترجم له، ولقبه العلمي أو الرسمي، يقوم بتحديد نهاية

---

(136)- المصدر السابق، ص 57.

(137) - المصدر نفسه، ص 88

(138) - المصدر نفسه، ص 265

(139) - المصدر السابق، ص 411.

نسبه إذا كان من بيت علم، أو بيت رياسة أو هما معاً فيقول مثلاً : **« ومن بيت أدب ووزارة »**[140]، و **« من أهل بيت جلالة ورياسة ومن أهل الحديث والأدب »**[141]. **وأخرى يقول فيها: « من أهل بيت علم ورياسة يتداولون القضاء »**[142] ، **وأيضا: «... محدث من أهل بيت حديث»**[143].

كانت هذه أشهر النماذج المذكورة في عموم الكتاب، استخرجناها من التراجم لنبين مدى اهتمام العائلات الأندلسية بالعلم و اعتنائها به ، وإن كانت ذات رياسة فهو يدعمها، ويعطيها أكبر مصداقية، فالفرق كبير بين حاكم عالم و حاكم جاهل، وما يشهد للأندلسيين وحكامهم تشجيعهم على العلم، وتعليم أبنائهم، وتأديبهم على يد كبار المشايخ، والعلماء، كما أسسوا لهم المكتبات الضخمة، والمجالس، وحلقات الدرس.

3- **ذكر الوظائف الرسمية التي تقلدها المؤلف** : ارتأى الحميدي أن يذكر الوظيفة الرسمية التي تقلدها الأديب، لذا نراه ذكر في تراجمه كل وظيفة تقلدها الأديب أو الفقيه ففي رأيه أن الأديب يستحق أعلى المراتب في السلطة لجدارته، واستحقاقه إياها، فبدأ بالوزارة إلى الكتابة، فيذكر الأديب أحمد بن عبد الملك فيقول : **« ابن شهيد ذو الوزارتين من أهل الأدب البارع ، له قوة البديهة ، كان في أيام عبد الرحمن الناصر»**[144] .

وصل الأديب للوزارة بفضل جهده، وبراعته لا بشيئ آخر، وقد تقلد الأدباء وظائف أخرى، كوظيفة صاحب الشرطة فيقول أن: **« عبد الله بن عاصم صاحب الشرطة، كان أديبًا شاعرًا سريع البديهة كثير النوادر، ومن جلساء الأمير محمد بن عبد الرحمن»**[145].

وتولى وظيفة القضاء الكثير منهم: عبد الرحمن بن الفضل بن عميرة بن راشد الكناني، وتولى القضاء في تدمير، وشبطون بن عبد الله الأنصاري ولى القضاء في طليطلة وغيرهم... .

وأغلب من تولى مثل وظيفة القضاء والمناصب العليا، عرفوا بالذكاء، وسرعة البديهة، والفصاحة، وقوة البلاغة، وكلها تعد الإجراءات المثالية للمحاججة والإقناع.

4- **ذكر من كانت له رحلة من الأعلام :** تعتبر الرحلة من أهم الأركان لتمام العلم فحتى ابن خلدون سمى فصلا من مقدمته المشهورة بـ: **« أن الرحلة في طلب العلوم ، ولقاء المشيخة مزيد كمال من التعليم »**[146] فهي لازمة لاستكمال الفائدة وجاء ذكرها تقريبًا في كل الكتب القديمة ، وأكثرها أصحاب العلم ، وكبار العلماء ، و الأدباء كانت لهم رحلات ، ومن لم يرحل كثيرًا رحل مرة واحدة ومن ذلك جاء تركيز

---

[140] - المصدر نفسه، ص 286.
[141] – المصدر نفسه، ص 284.
[142] - المصدر نفسه، ص 276.
[143] - المصدر نفسه، ص 230.
[144] - المصدر نفسه ،ص 231.
[145] - المصدر نفسه ،ص 264.
[146] - ابن خلدون، المقدمة، ص 464.

الحميدي على ذكرها في كتابه فيقول في ترجمة عبد الله بن قاسم القيسي: **« ... أندلسي مشهور بالرحلة ، والطلب ...»**، ويقول في ترجمة أخرى وتخص عبد الله بن الوليد الأنصاري: **« ... رحل من الأندلس ... فتفقه بالقيروان، وسمع من أبي زيد وطبقته، و رحل إلى مكة وسمع فيها كثيرًا، وأقام بها مدة وبمصر، ثم انتقل إلى بيت المقدس ...»**[147]

يمكن الحديث عن ترجمة عبد الله الأنصاري، كنموذج أمثل للرحلة، فقد أنفق عمره في طلب العلم عبر كامل ربوع البلاد الإسلامية، من أقصى غربيها إلى شرقيها، ومن مات في طلب العلم فهو شهيد.

تتعدى استفادتنا من الرحلة طلب العلم ، فهي تعرفنا على بقاع أخرى من الأرض، وتعرفنا بأنواع من العلوم، لم نكن نعرفها، وعمران يختلف عن العمران السائد في مواطننا الأصلية، كما أن أهم شيء فيها تعريفها لنا عن أجناس بشرية تختلف تماما عنا من ناحية العادات والتقاليد، والأعراف، والدين، والأخلاق، ففوائد الرحلة جمة لا يمكن أن يحصيها إلاّ من قام بها.

5- **ذكر المحن التي أصابت الأدباء:** عاش العديد من الأدباء، والفقهاء الكثير من المحن، والمصائب، كدرت حياتهم، بعدما كانت حياة صفو، وغنى، وجاه، وسلطان، وترف، فالملك عندما يصل الحكم يبدأ بوضع حاشية أكثرها من الوزراء، والحجاب، وغيرهم، ويختارهم بعناية شديدة، وعادة ما يكون أكثرهم من الأدباء لإتقانهم صنعة الكلام، والتملق، وجودة خطوطهم عادة لاستخدامها للكتابة في الدواوين، وكسفراء خارج بلادهم.

لا تتوقف محن الأدباء، والشعراء عند انحدارهم من سلم الجاه، والسلطة، إنمّا توجد محن أخرى عاشها الأدباء مع أناس قريبين لهم، سواء كانوا أصدقاء أو محبين، وعشاق، و الحميدي في كتابه ذكر العديد من القصص الشيقة في أسلوبها ،والحكمة المتزنة فيما تحمله من عبرة، ومثال يقتدى به الناس في حياتهم، من ذلك قصة: سليمان بن وانسوس البربري: عرف بعزة النفس، والعقل، كان أثيرا عند الأمير عبد الله بن محمد ولما وقع بينهما ما وقع غضب سليمان البربري و قال له: **« أمل إذا صارت جالبة للذل، فلنا دور تسعنا، وتغنينا عنكم، فإن حِلتُم بيننا وبينها فلنا قبور تسعنا لا تقدرون على أن تحولوا بيننا وبينها ... »**[148].

ومازال خبره طويلاً إلا أننا ذكرناها اختصارا، وبعدها أعاده الأمير إلى جانبه ، بعدما كان قد عزله لأمانته وصدقه في نصحه، وليست قصة ابن وانسوس القصة الأكثر إيلامًا في الكتاب ،لما أصاب الأدباء ،إلا أننا اخترناها لما فيها من عبرة و مثل، فالعلم يبقى صاحب السلطة، والمكانة حتى وإن ضيق عليه السلطان الخناق،

---

(147) - الحميدي الجذوة، ص 226 .

(148) - المصدر السابق، ص 226.

كما يتبين لنا مدى اهتمام الحكام بالأدباء، وأصحاب العقول المنيرة، واستجلابهم إياهم، وإحاطتهم بالرعاية .

ولم تكن حال عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وحال الأديب المشهور أحمد بن كليب النحوي ومحنته في الحب عندما عشق أبو الحسن أسلم بن أحمد بن سعيد قاضي الجماعة، فاضطره للقعود عن المجالس العلمية والسوق وغيرها ،وحبس نفسه في بيته ، فمرض أحمد بن كليب، وقضى نحبه على إثرها وترك لنا بيتين شعريين، هما آخر ما سمع عنه قبل مفارقته الحياة فقال[149] :

أَسْلَمُ يَارَاحَةَ العَلِيــــــلِ رفقًا على الهَائِمِ النَحيــــلِ
وَصْلُكَ أَشْهَى إلى فـــــؤادي من رحمة الخالِق الجليـــــلِ

6-**ذكر المؤلفات الخاصة بالمترجم له** : كما ركز الحميدي على ذكر جوانب عديدة من حياة المؤلف، من ألقاب، ومناصب، ورحلة سلط اهتمامه على عنصر آخر يعد مهمًا جدًا، لا يقل عن سابقيه، إن لم نقل أهمها جميعا هو ذكر المؤلفات الخاصة بالأدباء الذين كانت لهم مؤلفات، ولاسيما المهتمة بالتراجم ، والتاريخ، والفقه، والأدب فذكر في أكثر تراجمه مؤلفا أو مؤلفين، أو أكثر إن كانت موجودة فحفظ لنا كتابه أسماء العديد من الكتب،لم نعثر عليها نهائيا، قد تكون اندثرت أو مرمية في خزانة من الخزائن في هذا العالم الواسع، ويقول في ترجمة أحمد بن عبد الملك بن شهيد: **« ... وله كتاب "حانوت العطار" في نحو من ذلك وسائر رسائله وكتبه نافعة الجد كثيرة الهزل »**[150]

وأخبرنا في ترجمة سلمة بن سعيد الأستجي عن مؤلفاته فقال له كتاب " التأمين خلف الإمام"، وكتاب "شرح قصيدة ابن أبي داود" وذكر في ترجمة صاعد بن الحسن الربعي العديد من المؤلفات منها كتاب " الفصوص" وكتاب " الهجفجف بن غدقان بن يثربي مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف" وكتاب آخر سماه " كتاب الحواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء".

وتدوين الكتب واقتباس أجزاء منها في كتب أخرى عملية نافعة ، تحفظ الكتب التي ضاعت، أو تعرفنا عليها كما حدث مع كتاب المقتبس لابن حيان، ضاع ولم نعثر له على مكان مع الكتب الضائعة ، غير أن ابن بسام اقتبس العديد من أجزاء كتابه في كتاب الذخيرة ، وعلى أساسه قام المحققون بجمع الكثير من أجزاء الكتاب، وإعادة تكوينه مجددًا، زد على ذلك أن وضع كتاب ليس بالأمر الهين، لذا وجب الاعتناء به .

8- **ذكر تاريخ وفاة الأدباء:** تنتهي حياة الأشخاص دائمًا بعد عمرٍ طويلٍ أو قصير، و يذكر الناس بعدها الأشخاص أصحاب المواقف الكبرى، و من كان له صيت، فمن لم يكن له مكانة في المجتمع لا داعي لذكر وفاته و خبره، و نجد الحميدي لم يغفل ذكر تاريخ الوفاة للأعلام الذين ترجم لهم، و هي ركن ثابت في تراجمه، اللهم إلا بعض الاستثناءات لأعلام لم يتيقن من تاريخ و فاتهم الحقيقي فذكر في عهد من

---

(149) - المصدر السابق، ص 146.
(150) - المصدر نفسه، ص 133.

كانوا، أو ذكر الحال على ما هو عليه يقول في ترجمة يحي بن عمر بن يوسف: **« قال لي زياد بن يونس المغربي إنه مات بسوسة سنة خمس و ثمانين و مائتين، و قال لي أبو زكرياء عبد الرحيم بن أحمد البخاري: رأيت على قبر يحي بن عمر هنالك أنه مات سنة تسعة و ثمانين و مائتين»(151).**

و تأتي وفاة بعض الأدباء مبكرة فتحرمنا لذة الاستمتاع بما ينتجه هؤلاء الأدباء، مثلما قال في ترجمة عبد الرحمن بن أبي الفهد: **«...لم يستوف الثلاث و العشرين، ثم خفي علينا خبره، و كان أشعر من أنبتته الأندلس»(152).**

توفي صغيرًا جدًا في بداية عمر العطاء لكل إنسان إلا أن نبوغه منحه أكثر مما كان سيمنح شخصًا غيره في عمر طويل، فقد استطاع بنباهته و نبوغه المبكر الإلمام بعلمٍ واسع، و معرفة كبيرة لدرجة أنه نقض كل شعر قاله يماني في مفاخر المضرية.

9- **ذكر من كان له اتصال معهم من الأدباء:** لا يستطيع أي إنسان أثناء الحديث عن أشخاص يعرفهم تجاهل علاقته بهم، و الحميدي ذكر في معرض حديثة عن مجموعة من الأدباء علاقته بهم، سواء كانوا أصدقاؤه أو شيوخه أو معارفه فممن كان يعرفهم من بعيد فيقول « أدركت زمانه» أو « رأيته بالأندلس» أو «...و قد رأيته هنالك...و سمعته يقول...» و يقول في ترجمة من كانت علاقته بهم وثيقة كما في ترجمة عبد الرحمن بن أحمد بن خلف: **«...و له مع ذلك في الأدب و الشعر بضاعة قوية لقيه بالمرية و أنشدني كثيرًا من شعره»(153).**

تكلم بصراحة وثقة ناجمة عن علاقة وطيدة بين الرجلين فهما قد تعارفا و تجالسا وسمعا عن بعضهما و روى عنه " أنشدني كثيرًا من شعره" فالمدة طالت بينهما، و الجميع يعرف أنه كلما طالت مدة التعارف و التلاقي بين الأصدقاء، توطدت علاقتهم و كثر أخذهم عن بعضهم.

لا يعتبر المثال الذي سقناه الوحيد في الكتاب إنما نجد العديد من الأمثلة الأخرى، و ترجمة الفقيه عبد الله بن عثمان بن مروان تؤكد ذلك، فقال عنه: **«... قرأت عليه الأدب و مات قريبًا من سنة أربعين و أربعمائة، و مما أنشدني لنفسه رحمه الله»(154).**

بقي الحميدي يكن التقدير و الاحترام لشيوخه حتى بعد رحيله عن الأندلس و وفاتهم هم أيضا، فخصص لهم جزءًا من مصنفه كنوع من الاعتراف بالجميل و الامتنان لكل ما قدموه.

10- **ذكر المختارات الشعرية:** تستوجب المصنفات من هذا القبيل التعرض لذكر العديد من المختارات الأدبية سواء كانت نثرية أو شعرية، و كتاب الحميدي ينتمي لنفس الدائرة العلمية، فتجسدت المختارات الشعرية في كتابه بكثرة

---

(151) - المصدر السابق، ص 377-378.
(152) - المصدر نفسه، ص 277.
(153) - المصدر السابق، ص 270.
(154) - المصدر نفسه، ص 263.

على حساب المقطوعات النثرية التي لا نعثر على أثر لها في الكتاب بسبب ما تفرضه طبيعة المنهج المؤسس على الاختصار، و نحن أردنا أن نوضح هذه النقطة، لكي لا نقول أن الحميدي لا يهتم بالنثر فأسقطه، أو أغفله، و كما أشرنا سابقا في حديثنا عن تراجم الأدباء أنه أسقط شعر الهجاء متعمدًا، فإنه أكثر من ذكر النماذج الشعرية المختلفة في المعاني، و المتعددة في الأغراض، فذكر الغزل و الفخر و المدح و الزهد و شعر التصوف و شعر السخرية، و الملح الشعرية الموجودة بين الأدباء، و في الحكمة و حتى المراسلات التي عرضها في متن الكتاب كما في الترجمة رقم 598 و كانت بين عبد الرحمن بن سليمان البلوي و صديقه يمازحه فيها و يستهديه كسوة فقال[155]:

أَيَا هَضْبَةَ الآدَابِ دَعْوَةَ وَالِـــــهِ يـُنَادِيْكِ مُنْبِتُ القِوَىَ وَ يَثُــــوبُ
وَ يَأَيَّها المَشْغُولُ عَنْ فَرْطِ لَوْعَـــتِيْ بِشَيْطَانِ أَهْلِ الطَّارِقِ يَلْهُو وَ يَلْعَـبُ
وَ مُسْتَهْتِرًا دُونِيْ بِصَالِـحِ قُبَـــةٍ وَ لِذَلِكَ بَابِ لِلضَلَالِ مُخَـــرَّب

حتى قال:

وَ قَدْ أُخْلِقَتْ أَثْوَابُ عَبْدِكَ وَ انْطَـوَى عـلَى جَمْرَةٍ فِي صَدْرِهِ تَتَلَهَــبُ
وَ أَنْتَ العَلَمُ الطُّب أيُ وَصِيَـــةٍ بِـهَا كَانَ أَوْصَي فِي الثِيَابِ المُهَلَبُ

و توجد أيضًا مراسلة الشاعرة مريم بنت يعقوب المعروفة بالحاجة و ابن المهند و المصنف يضم الكثير من الأبيات الشعرية في أغراض مختلفة، و جميلة جدًا، لا نستطيع اختيار إحداها عن الأخرى كما لا نستطيع ذكرها جميعًا، و نستبقي البت في الشعر و حسنه و علو ذوق المؤلف لعنصر الآراء النقدية.

وعودًا للنثر فالحميدي عندما تكلم عن أصحاب الرسائل و المناظرات و التأليفات النثرية اكتفى فقط بذكر أسماء الكتب أو الرسائل مثل رسالة: أحمد بن محمد بن برد الموسومة بـ " رسالة في السيف و القلم والمفاخرة بينهما " وكتاب " الوجازة ".

11- المواقف و الآراء النقدية في الكتاب: لا ينفصل العنصر السابق عن عنصر النقد، و الآراء النقدية الموجودة في الكتاب، لأنه عبارة عن قراءة متفحصة، و ممحصة للنماذج المذكورة في المدونة، و تعد رؤية الحميدي في كثير من المواقف المعروضة في الكتاب، رؤية نقدية حقيقية ناتجة عن بصيرة واعية بالنقد، و أحكامه، و الشعر و أسراره، و قواعده المسيرة له، و يمكن معرفة ثلاث اتجاهات نقدية سار فيها الحميدي بكل وضوح، و لم يحد عنها ملتزمًا بمنهجه، من أول الكتاب إلى آخره، وهي الاتجاهات الثلاثة: اتجاه فني أدبي، و يفرضه ذوقه الفني، و حسهُ الأدبي، و اتجاه أخلاقي وتفرضه شخصية المؤلف وفكره، و اتجاه لغوي و تفرضه ضرورة الحفاظ

---

(155) - المصدر نفسه، ص 270.

على سلامة اللغة، وهو ناتج عن الاتجاهين الأولين، ويمكن التعرف أكثر على هذه الاتجاهات الثلاثة بعرضها بالتفصيل فيمايلي:

1-**الاتجاه الأخلاقي:** ظهر النقد الأخلاقي في الكتاب من الوهلة الأولى، بإعراضه عن شعر الهجاء، و ذكر الغزل الماجن، و غزل الغلمان حتى و إن عرض لنا أنموذجًا، أو أنموذجين كحادثة أحمد بن كليب النحوي مع أسلم بن عبد العزيز قاضي الجماعة، و في معرض حديثة عن اليحصبي، تكلم عن موقفين نقديين، أولهما أشرنا له مسبقًا و يقول عنه: **« و لليحصبي عندي أهاج قبيحة كرهت أن أوردها عنه...»**(156)

أمر مفروغ منه أن يتجاوز الأهاجي لدى أدبائه إنما لا يمكنه تضييع حق من حقوقهم، فعندما تكلم عن قصيدة مدح بها اليحصي بعض اللئام، و عيب عن أخذه لشئ تافه فيها فردّ عليهم بيتين هما(157) :

ألام على أخذ القليل و إنمـــــا   أعامل أقوامًا أقلّ من الـــــذّرّ
فإن أنا لم آخذه كنت مقصـــــرا   و لا بد من شيء يعين على الدهـــر

جاء الحميدي مستدركًا القول في البيتين السابقين، و نسبها لصاحبها الحقيقي بعدما ذكرهما كدفاع له عن نفسه، بعد الملامة التي تعرض لها، فجهله بصاحبها الحقيقي و سماعها من اليحصبي فحسبها من قوله، ثم سمعها أثناء رحلته إلى **واسطة**، أن البيتين هما للشاعر **محمد بن مهران الدفاف** وجاء على النحو الآتي:

ألاَمُ عَلَى أَخْذِ القَلِيْلَ وَ إِنَّمــــَا   أُصَادِفُ قَوْمًا هُم أَقَلُ مِنَ الـــذّرُّ
فإن أَنَا لم أَخُذْ قليلاً حُرِمْتُـــــهُ   وَ لا بُدَ من شيء يُعِيْنُ عَلَى الدَّهْـــرِ

خرج بنا الحميدي إلى قضية انتحال الشعر بعدما كان يتكلم عن الهجاء، فأخلاقه كانت لا تسمح له باللهو في مثل هذه المواقف، فالانتحال يضيع دائمًا حقيقة الشعر وجوهره، فقمة الشعر وحلاوته بعلاقة الوصل بينه و بين صاحبه فمهما أشبهتنا بعض القصائد أو المقطوعات الشعرية، ووجدنا فيها متنفسنا، وخلاصة همومنا ومشاكلنا، فلا يمكن أن تشبهنا تمامًا، إنما نأخذها دائما من أحد جوانبها فقط ما يشبهنا ويعنينا، و بالمقابل فهي تشبه صاحب القريحة الذي جاد بها، و تطابقه مهما حاول الانفلات و التملص منها فهي وليدة أفكاره، و خلاصة مشاعره، و أهون أن يأخذ منه كل شيء في الدنيا، ولا تأخذ منه أشعاره، فالكلمة و سلطتها أكبر من أي سلطة في الكون لذا فالله سبحانه و تعالى يوصينا بالعلم، و يحثنا على طلبه، و السعي له و أن أول ما نزل من القرآن الكريم كلمة واحدة تلخص جميع ما قلناه **" إقرأ"**.

و يتجلى لنا في ترجمة سعيد بن فتحون السرقسطي، موقفٌ نقديٌ، هو الآخر أخلاقي إنمّا يختلف عن سابقه، فجاء يتكلم عن ذم الناس للعلوم التي لا يستطيعون

(156) - المصدر السابق، ص 409.

(157) - المصدر السابق ، ص 409.

التمكن منها، و معرفة أسرارها، فيقولون عنها كل ما يستطيعون من كلام سيئ، فانبرى سعيد السرقسطي للدفاع عن علمه المفضل ومجال اختصاصه المنطق فقال(158)

ظَلَمُوْا ذَا الكِتَابِ إِذْ وَصَفُـــوهُ   بِالذِيْ لَيْسَ فِيْهِ إِذْ جـــوه
لَوْ دَرَوْا حَقَّـــهُ لمَاَ أَنْكَـــرَوهُ   أَوْ دَرَوْا فَضْلَهُ إِذَنْ فَضَّلُــــوهُ
كَذَبُوْا و الإِلَهِ لو عَرَفُـــوهُ   لَنَفُوا عَنْهُ كُلَ مَا نَحَلُـــوهُ

بدأ دفاعه بكلمة ظلموا، و الظلم عادة يأتي كعقاب لمن لم يرتكب جرمًا، عكس العقاب الذي يسلط على مرتكب الجرم فيساوي عقابه جرمه، لذا يستوجب تأديبه و عقابه، ثم أضاف على نفس المنوال بأنهم وصفوه، بما لا يوجد فيه من أوصاف، و هذا جهل، و جهلهم به مصدر ظلمهم له، فلو دروا كما قال لاعترفوا به، و بفضله، و تسارعوا لاكتسابه، فلا يجب على الناس ذم الأشياء، والأشخاص، و غيرها ما لم يعرفوها، و يستجلوا حقائقها و يتجنبوا الأحكام الأولية المسبقة، فهي لا تجلب لهم إلاّ المتاعب، و أخيرًا يجب احترام العلوم أيّن كانت، فكل له فضله، ومهمته، و فائدته لبني البشر.

تتوالى الأحكام النقدية الكثيرة الخاصة بالجانب الأخلاقي في الكتاب إلا أننا لم نفسح المجال لذكرها جميعًا، فهذا يستدعي مصنفًا وحده، و منهجًا مغايرًا تمامًا لمنهج الدراسة الحالية.

2- النقد الفني الأدبي: كما كان الحميدي ناقدًا أخلاقيا يهتم بالقيم و تعديلها و تصحيح الاعوجاع الموجود فيها، اهتم بالنقد الأدبي الفني و النماذج الشعرية في الكتاب تدل على ذلك منها قوله في ترجمة أحمد بن عمر بن عصفور بأنه كثير الشعر في الزهد و الحكم و المواعظ، و في ترجمة عبد الرحمن بن الخطابي أنه شاعر منتجع طويل النفس كثير المادة، و في ترجمة أبي محمد الحجازي المعروف بابن الأوريوالي يقول عنه أنه زاهد يتكلم في الحديث و معانية، و له أشعار كثيرة في الزهد و غيره.

تبدو ملاحظاته النقدية في الجانب الفني جلها قصيرة، إلاّ أنها مركزة تهدف للمعنى الموضوعة له، كما أنه لم يحاول التطويل فيها و في شرحها بسبب موضوع الكتاب و منهجه اللذان يفرضان نمطاً معيناً من الكتابة و الدراسة و كمثال نقول عن ترجمة الأوريوالى بأنه رجل ذو حس فني و دراية عالية بالأدب، كما أن الحميدي حين نظر له و لشعره تبين لنا ذوقه الفني المتميز لتفرسه في المعاني و التدقيق حولها.

و يأتينا بما هو أوضح لما كنا نقول ففي **ترجمة أحمد بن عبد المالك** بن شهيد يقول: **«...من العلماء بالأدب، و معاني الشعر و أقسام البلاغة، و له خط من ذلك سبق فيه، و لم ير لنفسه في البلاغة أحدًا يجاريه، و له كتاب " حانوت عطار" في نحو من ذلك، و سائر رسائله و كتبه نافعة الجد، كثيرة الهزل، و شعره كثير مشهور، وقد ذكره أبو محمد علي بن أحمد مفتخرًا به، فقال: و لنا من البلغاء أحمد**

---

(158) - المصدر نفسه، ص 409.

بن عبد الملك ابن شهيد، و له من التصرف في وجوه البلاغة، و شعبها مقداراً ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل».

يتبين لنا في الأنموذج الخاص بأحمد بن عبد الملك بن شهيد، ما للرجل من مكانة في مجال العلوم اللغوية، و الأدبية و البلاغة حتى يفتك اعترافًا كهذا، قلما يحصل عليه الأدباء، وصل به إلى الجمع بين بلاغتي عمرو بن بحر الجاحظ، و سهل بن هارون، و الرجلان معروفان في عالم الأدب العربي القديم و الحديث.

كما جمع النص النقدي الموجود بين أيدينا رأيي الحميدي، و شيخه أبي محمد علي بن أحمد المفتخر بصاحبه، و ابن بلده، حتى و صلت به إلى تفضيله على إمامي اللغة في المشرق، بماله من سبق في كثير من الوجوه البلاغية و الآراء المستحدثة في البلاغة و الأدب، و لم يخلف لنفسه نظيرا في العالمين جملة.

3- **الاتجاه اللغوي:** لا يقل الاتجاه اللغوي عن سابقيه كما يعد أساس بنائهما معا لأنه يهتم بتقويم اعوجاجهما، و توجد العديد من نماذجه في الكتاب لذا سنقتصر على ذكر واحد أو اثنتين منهما، ترجمة أبي عبد الله الفهرى و ما حدث له و لأصحابه مع أحد الظرفاء، وما أوقعهم فيه من خطأ في اللغة، وما قبلهم فيما بعد لنفس الحادثة مع أهل العلم و الأدب، فأحرجوا و ندموا على أخذهم عنه، وأخذوا المعلومة الصحيحة عن أبي علي القالي.

و يأتينا أنموذج آخر في النحو بعد الأول الذي كان في التصريف، و نص الرواية أن أبا محمد قاسم بن محمد القرشي، قال: **«كتب ابن كليب إلى محمد بن خطاب شعرا يتغزل فيه بأسلم، فعرضه ابن خطاب على أسلم، فقال: هذا ملحون، و كان ابن كليب قد أسقط التنوين في لفظة في بيت من الشعر، قال: فكتب ابن خطاب بذلك إلى ابن كليب، فكتب إليه ابن كليب مسرعا:**

أَلْحِقْ لي التَنْوِيْنَ في مَطْمَـــع فَإِنَنِي أُنْسِيــتُ إِلْحَاقَـــهُ
لاَ سِيَمَا إِذْ كَانَ في وَصْلِ مَــن كَدَّرَ فِي الحُـــبِ أَخْلاَقَهُ»[159]

اعترف صاحب الأبيات الشعرية بخطئه، إنما قال أُنسيتهُ و ليس نسيته و الأمر مختلف بين الأول، و الثاني فألصق علة نسيانه بصاحب المعضلة التي مر بها في حياته، و كدرت صفوه، و نغصت عيشه، و حكمت عليه بالموت، و الحميدي عرض لنا مثل هذه القضية ليوضح لنا اهتمام الأدباء باللغة و شغفهم بالمناظرات و الجدل و السعي لما هو أفضل.

مررنا في الفصل الثالث بكتاب جذوة المقتبس للحميدي فتعرفنا على الكثير من الجوانب الموجودة في الكتاب، و ما لم يكن لنا الحظ للتعرف عنه منها توجب علينا الإشارة إليها، علنا نعود لها في يوم من الأيام من ملح و طرائف وقعت بين الحكام و الأدباء، أو بين الأدباء أنفسهم، و غرائب الأخبار و حوادث الزمان الكثيرة التي مرت على الأندلس.

---

(159) - الصدر السابق ص 146.

و جاء في كتاب الحميدي أيضا ذكرًا لبعض أدباء الجزائر في الحقب القديمة من تكون كيان العالم العربي، فتكلم عن عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمداني الوهراني نسبة إلى بلد بالمغرب يقال له وهران، بالإضافة إلى أنه استطاع الإجابة عن كل الاستفسارات التي طرحناها سابقا في بداية الفصل.

الفصل الرابع
قلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان أنموذجا

أولا: السمة التاريخية.

ثانيا: السمة الفنية.

ثالثا: السمة الحضارية.

نريد في الفصل الأخير من البحث تجاوز الدراسة التقليدية المعروفة لمصدر من المصادر الأدبية إلى أبعد من ذلك، لتوسيع الاستفادة منها، و إخراجها من دائرة الحصار المفروضة عليها، في النطاق الضيق، وكتاب « قلائد العقيان في محاسن الأعيان» لصاحبه الفتح بن خاقان أكبر من أن يدرس دراسة تقليدية جامدة يكتفي فيها الباحث بمعرفة المؤلف، و تاريخ وضع الكتاب و غيرها و نحن عندما نقول مثل هذا الكلام لا نناقض أبدا الكلام الذي قلناه سابقا عندما تعرضنا لكتاب « جذوة المقتبس»، فلا سبيل للإنقاص من قيمة أي كتاب، فصاحبه قد اجتهد في وضعه، وتعب من أجل إخراجه للناس للإفادة منه، بل نسعى لتوسيع مجال الرؤية، وتعدد الزوايا في النظر لظاهرة التراجم في الأندلس، و خصائصها، و تأثير مؤلفيها، ووجهات نظرهم في المجتمع و الحركة الفنية الإبداعية كما لا ننسى النظرة التاريخية، و لكل الأسباب و الدواعي التي ذكرناها سنركز على البحث في السمات الفنية و الحضارية، و التاريخية الموجودة في الكتاب، و مع أهمية الجانب الفني في الكتاب إلا أننا سندعه في المرتبة الثانية بعد التعرض للسمة التاريخية، لأجل تحديد النطاق الذي نما و ترعرع فيه الكاتب، و الكتاب، كما سيبين لنا الكثير من الدوافع و العوامل التي أنتجت القصائد، ووضعت الشكل الفني في الكتاب، ثم سنختم بالجانب الحضاري لتحديد الرؤية الجديدة المعادلة و المتممة للرؤية الأولى الموجودة في الفصل السابق – كتاب جذوة المقتبس-.

أولا- السمة التاريخية:

تحتوي السمة التاريخية المتعلقة بالكتاب عدة عناصر منها ما هو داخلي، و منها ما هو خارجي، فالداخلي يتكلم في التواريخ و الحوادث المعروضة ضمن الكتاب، و تسلط الضوء على مواطن وجودها، أما الخارجي فيتعلق بمن وضع الكتاب، و أسباب وضعه، و تاريخ وضعه و أمورا أخرى منها:

1.ترجمة المؤلف[160]: لم يختلف العديد ممن تعرض لترجمة المؤلف عن قلة ما وجد عنه من معلومات، و أمّا ما وجود فأكثره غير ثابت و مختلف فيه، و من الأمور المتفق عليها اسمه و هو أبو نصر الفتح محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، اشتهر بـ: « ابن خاقان»(*)

أما عن مسقط رأسه فهناك من قال أنه من قلعة الوادي إحدى قرى يحصب، و قيل إحدى أعمال غرناطة، يقول عنه ياقوت الحموي: « **من أهل الأندلس، أديب فاضل شاعر بليغ فصيح بذئ اللسان، قوي الجنان، في هجاء الأعيان، و كان متهم الخلوة**»[161]

[160] - ينظر: ابن سعيد المغرب في حلى المغرب، ج 1،ص 254-255، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج 6، ص 137 العماد الأصفهاني خليدة القصر و جريدة العصر، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، ج 3 ، الدار التونسية للنشر، تونس،1972، ص 532، المقري نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح : إحسان عباس ، مج 3-4 ، دار الصادر، بيروت – لبنان، 1988 ص 207.

(*) - ابن خاقان: جاءت من الكلمة التركية الأخفاقان و تعني الملك، وكيف له أن يتصف بذلك الملك و هو الفقير المعدوم خالي االوفاض.

[161] - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج 6، 137.

عرف بين الجميع بفصاحته و بلاغة بيانه، و قوة حجته في الكلام، و كأنه يغترف من بحر، فالعلماء الذين أخذ عنهم كانوا كثيرين جدا منهم: أبو بكر بن سليمان، و أبو الحسن بن سراج، و أبو خالد بن بشتغير، وأبو الطيب بن زرقون، كما سمع من شيوخ و أصحاب علم آخرين منهم: أبو علي و قرأ عليه أدب الصحبة للسالمي، و سمع كذلك من أبي محمد البطليوسي كتاب الانتصار.

و قد روى عنه أدباء، و مؤلفون كثيرون و متعددون أهمهم: أبو عبد الله بن زرقون روى عنه جميع تواليفه، وعرف عن الفتح ذكاؤه الشديد ووفرة لغته و تمكنه منها، كما عرفنا مع قول ياقوت الحموي السابق، بالإضافة إلى العربدة و المجون و معاقرة الخمرة مما أبعده عن مراتع الأدب و مجالس الحكام يقول في ذلك العماد الأصفهاني الكاتب:**« ...كان يضع من نفسه بشدة تبدله، و كثرة تنقله، وغضه من ذوي الرّتب، و إساءة الأدب على الأدب، و تحليه من الخلاعة بما تعرف عنه نفس كل ذي عقل رصين، و اشتفافه من الدنايا إلى ما لا يرضاه أهل المروءة و الدين»**[162].

قام الفتح بوضع نفسه في ما أزق أخلاقي كبير بسبب ما كان يصدر عنه من قلة أدب و عربدة جراء تماديه في شرب الخمر و هجائه للناس حسب أهوائه، و مزاجاته المتقلبة، فمن منحه مدحه، ومن منعه قدحه، وعض في نسبه بسبب أو غير سبب، خاصة بعدما جاب البلاد شرقًا و غربًا، و حتى سفره لبلاد المغرب لم يخرجه من حالة الغربة النفسية التي كان يعانيها و أتعبته جدًا، و أثرت على حياته سلبًا، من الجانب الاجتماعي، و المادي فكان فقيرًا معدمًا.

أن يكون المؤلف فقيرًا فهذا ليس عيبًا، فالفقر أحيانًا مصدر الحالة الإبداعية للإنسان تبدأ من رغبته في تغيير وضعه و تحسين مكانته، و الغربة النفسية نافذة تعرفنا على النفس البشرية و خباياها و آلامها و مشاكلها و ما تحمله من أعباء تثقل كاهلها فيقول في إحدى رسائله:**« الدهر – أعزك الله – إن بنى مشيدًا هده، و إن وهب نفيسًا استرده، و إن حل نعمة أصارها شرقا، و إن كحل نومه أعقبها أرقا، ولا برهان إلاّ ما شاهدته غداة لقيتك بظهر الفلاة، و سقيتك ألذ من طيب الحياة، و السرور قد غار في جو الجوى، و القرب قد حار في جيش النوى،...إلا دون وجدي غداة كففت دمعي المتسرب»**[163].

يعاني المؤلف من مجموعة مشاكل نفسية واضحة من خلال الفقرة المقتبسة من رسالة وجهها لأحد أصدقائه، يبثه حزنه، و ما تركه أثر رحيله من فراغ في ذاته، ما أشعل نار الجوى في فؤاده، واستوقد فتيل الغربة و الحنين لديه، فحاول إطفاءها بدموعه إلاّ أنه لم يستطع ذلك، فما يشعر به ويحسه أكبر من أن ينتهي بالبكاء و العويل.

---

(162) - العماد الأصفهاني الكاتب، خريدة القصر و جريدة العصر، ج 3، ص 538.

(163) - المصدر السابق، ص 541.

و بفضل الأسباب التي ذكرها في باقي الفصل، أنتج مجموعة من التأليفات المتميزة في نوعها أسلوبها و قيمتها يقول العماد الأصفهاني:**« غزير رَكِيَةِ البيان، كأنما يغرف من بحر زاخر، أو يقطف من زهر ناضر، حسن صناعة، وسعة براعة، وله تواليف تشهد له بدراية، وتصانيف تدل على توسعه في الرواية...»[(164)].**
خلف الفتح مؤلفات عديدة نذكر منها:

1.**مطمح الأنفس، و مسرح التأنس:** جهة في ملح أهل الأندلس، و استدرك فيه أيضا مافاته في كتاب قلائد العقيان، و يقال في بعض المصادر أنه ثلاث نسخ كبرى و صغرى، و متوسط، وقد طبع المؤلف في الفترة الأخيرة و هو عبارة عن كتاب صغير.

2- **راية المحاسن وغاية المحاسن.**

3- **مجموعة تراسلاته.**

4.**ترجمة ابن السيد البطليوسي،** معاصره و يختلف عن كتاب قلائد العقيان في المنهج و هو في ثلاث كراريس.

5.**قلائد العقيان في محاسن الأعيان،** وهو من أشهر تآليفه، و أقربها إلى المقامات في أسلوب كتابتها و لغتها، و هو ما سنحاول التعرف عليه من خلال الفصل الموجود بين أيدينا.

توفي الفتح بن خاقان بعد رحلة مريرة في الحياة القاسية، وحتى في هذه اختلف المؤرخون فيها فهناك من يقول أنه توفي في سنة 533 هـ على حدّ قول ياقوت الحموي، أما صاحب الإحاطة فيقول أنه توفي سنة 529 هـ، و مات قتيلا بمدينة مراكش في المغرب، و اكتشف أمره بعد ثلاثة أيام من وفاته في أحد الفنادق، تقول المصادر أنه قتل بأمر من أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، بسبب المؤامرات المحاكة ضده.

2.**عنوان الكتاب:** قد يطرح الكثيرون السؤال: لماذا أدرجنا عنوان الكتاب في السمة التاريخية، وليس في السمة الفنية؟

يمكن الإجابة على السؤال عن طريق العديد من الأشكال و أوضحها التعرف على معنى العنوان ثم ربطه فيما بعد بمناسبة وضعه، و الظروف التي جعلت صاحب المصنف يختار له هذا العنوان وبهذا الشكل و الصياغة:

قلائد العقيان[(*)]: كما يظهر في العنوان فالمؤلف جمع أحلى القطع النثرية، و القصائد الشعرية وصاغها في أحسن صياغة فبدت له محاسن، و نوادر، وملحً، لجميع من ترجم لهم، و شكلها بعد ذلك في قلادة كل واحدة منها على حدى، و عندما جمعها في كفه وصففها في مصنفه جاءت قلائد جذابة، مذهلة للعقل و الذوق على حد سواء، كما هو الحال بالنسبة للحلي التي يدهش الناظرون لشكلها وتلونها، و كذا قيمتها

---

(164) - المصدر نفسه، ص 538.

(*)- العَقَيَانُ: الذهب الخالص، قيل هو ما ينبت نباتا و ليس مما يحصل من الحجارة (محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح باب العين، تح: مصطفى ديب البغا، دار الهدى الجزائر، (دت)، ص 290).

العظمى، فجمعها «قلائد العقيان»، و المؤلف لم يخرج عن طريقة قومه و لا أساليب معاصريه في الرؤية العنوانية، فأغلبية هذا النوع من المؤلفات سمى بأسماء متنوعة من الأحجار الكريمة، مثل: الدر الكامن، الذهب المسبوك في وعظ الملوك، وغيرها، مما يجعل الدارسين للمكتبة الأندلسية – مصنفات التراجم – بصفة عامة يتعثرون بالحلي و الحلل أثناء سيرهم و ما هذا العنوان إلاّ أحد النماذج منها، و منه توصلنا لتبرير وضعنا للعنوان ضمن المرحلة التاريخية في الكتاب، فالإنسان يبقى ابن بيئته يؤثر فيها و تؤثر فيه.

3. **بواعث وضع الكتاب:** ورد في مقدمة الكتاب حديث مطول عن أسباب و دوافع المؤلف لوضع الكتاب استفتحها بالكلام عن الأدب، و مكانته في هذه الأمة التي تعتز بلسانها، و تفتخر ببيانها، ونثرها و شعرها كأنهما نجمان في سماء الأمة الإسلامية، و الملوك تحتفي بهما في كل وقت وحين و تبجل قائليها من علماء، و شعراء و أدباء، و لمّا رأي الكاتب الإهمال الذي بدأ يعاني منه الأدب و ما أصابه من أفول نجمه بسبب الفتن فحزّ في نفسه ضياع مثل تلك القصائد و الإبداعات فوضع كتابه هذا، و في ذلك يقول: « **الأدب أجمل ما التحفته الهمة، و عرفته هذه الأمة و مازالت صدور الملوك لهما محلاً...ثم تقلص ذلك البرد الضافي، وتكدر ورد الأمل الصافي، وزهد في اقتناء المعارف...و همت البدائع فلم توقِعْ لها الرغائب حين صابت، فأصبح الأدب قد دجت مطالعه و لمّا رأيت عنانه في يد الامتهان، و ميدانه قد عطل عن الرهان... وشعلة قد قذيت برمادها، تداركت منها الذماء الباقي...** »(165)

مازال كلام الفتح طويلاً جدًا، إلاّ أننا اختصرناه، و اخترنا فقط ما يخدم قصدنا و يوصلنا لهدفنا، ففي هذه الفقرة نجده يذكر بالتفصيل السبب الذي ألح عليه، و بعثه لوضع كتابه، رغبة منه في حفظ الآثار الأدبية من الضياع و الاندثار كما ضاع غيرها.

يكمن السبب الثاني لوضع الكتاب في التكسب من ورائه، كما يفعل جميع الأدباء بإنتاجاتهم والشعراء بقصائدهم، فعندما أراد وضع كتابه، قام بإرسال رسائل للعديد من العلماء و الأدباء و الشعراء يخبرهم فيها بما عزم عليه فالذين ردّوا عليه و أكرموه مدحهم، أما من أهمل رسالته فقد هجاه هجاءًا مقذعًا، و عندما يصر الكثير من الدارسين على وصف الكاتب بهذه الصفة، و الإصرار عليها فهو يعد ظلمًا في حقه إذا عدنا لحياته و الأسباب النفسية التي جعلته يقف مثل موقفه هذا، فالضغوط عادة تجعل الإنسان يتصرف دون وعي، و بعنف اتجاه المحيطين به، و بخاصة لو عرفنا أن الفتح تكلم عن العديد من الشخصيات و أعطاها حقها، هذا من ناحية، و من ناحية أخرى عثورنا على رسالة كتبها لأحد أصحابه يوصيه فيها بأمانة وضعها عنده، لم تكن مالاً إنمّا كانت عبارة عن كتب منحه إياها ليحفظها له حتى عودته يقول الفتح: «**...و في علمك ما استودعته أمانتك، و استحفظته صيانتك، من كتبي التي هي أنفس ذخائري**

---

(165) - الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص 2.

و أسوالها، و أحقها بالصيانة و أحراها، و ما كنت أرتضي منها بالتغريب، لولا الترجي لمعاودة الطلب القريب»[166].

أن يتكلم رجل عن الكتب بهذه الطريقة، و يفتخر بحيازتها و يسعى للحفاظ عليها و يراها أغلى ما يملك، و أنفس ما لديه، محال أن يكون المال همه و مبلغ مناه، و حجة القائلين بها باطلة و إن صحت في إحدى جوانبها.

أما الدافع الآخر، فهو رغبة المؤلف في منحه كهدية لصاحب نعمته و مولاه الأمير **إبراهيم بن يوسف بن تاشفين**، لما رآه منه من اهتمام بالعلماء و رجال الأدب و تشجيعهم و الوقوف إلى جانبهم.

4. **مضمون الكتاب:** أشار المؤلف في بداية وضعه لكتابه أنه يترجم لأدباء مغمورين فيقول:

« ليعلم أن بالأوان افتتانا... فأبقت منه أثرًا لأعيانًا ورجالاً...لم تفسح لإبداعهم مجالاً فتلفعت محاسنهم في نقابها»[167] هؤلاء الأدباء الذين لم يعرفهم إلاّ القليل من الناس، فأراد التعريف بهم و تقديمهم للناس، ولكن المتصفح لكتابة يجد أنه ترجم لأناس أشهر من نارٍ على علم، كما أن الكثير منهم قدّمهم بشكل مبالغ فيه، من مدح و تطرية، وكذلك التكلف في صنعة البديع و سنبرز اهتماماته بالبديع في مكانها و في ما يلي استعراض أقسام كتابه الذي وضعه في مقدمة، و أربعة أقسام عنوانها كالتالي:

1-في محاسن الرؤساء و أبنائهم و درج أنموذجات من مستعذب أبنائهم.

2-في غرر حلية الوزراء و فقر الكتّاب و البلغاء.(*)

3-في لمع أعيان القضاة و لمح أعلام العلماء السراة.

4-في بدائع نبهاء الأدباء و روائع فحول الشعراء.

القسم الأول- في محاسن الرؤساء و أبنائهم: و قد قام بتصدير هذا القسم بترجمة لأبن عباد وجاءت قطعة نثرية تحمل روعة العبارة و جمال نسقها و طرافة الصور و بديعها ثم ذكر خصاله و أعماله و فصاحة لسانه و هو يرتجل الشعر في المواضع التي تثير عاطفته و إحساسه الكبير مثل البيت الذي قاله عندما جاء الحديث عن مدينة شَلَبْ[168]

ألاّ حيّ أوطاني بشَلْبِ أبا بكرٍ وَسَلْهُنَّ هل عَهْدُ الوِصَالِ كَمَا أدْرِي؟

كما أنه مولع أيضًا بوصف الأمكنة و الأزمنة و مجالس اللهو، و أكثر من إيراد النصوص التي ترد بأقلام الكتّاب و يدعمها دائمًا بمناسباتها، زد على ذلك أيضًا أنه يؤرخ للوقائع الحربية في عهد الإمارة، و يؤرخ كذلك للمدن و عمرانها و خرابها بصياغة أدبية أنيقة مثل: « **مدينة الزهراء** » فقال:

---

166) - العماد الأصفهاني، الخريدة، ص 542.

167) - ابن خاقان، القلائد، ص 3.

(*) - توجد اختلافات في عنونة القسم الثاني من الكتاب بين مجموعة من المصادر فتوردها كالتالي: « في غرر الوزراء و الكتّاب و البلغاء»

168) - ابن خاقان، القلائد، ص 6.

« مازالوا ينتقلون من قصر إلى قصر، و ينتقلون في تلك الغرفات، ويتاعطون الكؤوس بين تلك الشرفات حتى استقروا بالروض، بعد أن قضوا من تلك أوطارًا...»[169]

و نلاحظ أن المؤلف قوى الصلة بالتراث العربي القديم وقام بتوظيفه كثيرًا في نصوصه و في هذا القسم الخاص ببني عباد أبرز الجانب المضيء في أيامهم و كذا نكباتهم.

القسم الثاني- في غرر حلية الوزراء و فقر الكتاب و البلغاء، قام بالتصدير فيه لابن زيدون الشاعر المتميز في عصره لما له من مكانة سياسية و أدبية عظيمة فقد لقب بشاعر الأمراء و مرّ على محنة سجنه و الرسالة الرائعة التي كتبها لأبي حزم بن جهور يسترضيه فيها و التي وظفّ فيها التراث بصفة واضحة و كبيرة مثل قوله:

«...قد بلغ الماء الزّبي، ونالني حسبي به و كفى، وما أراني أمرت بالسجود لآدم فأبيت و استكبرت، وقال لي نوح: (اركب معنا)، فقلت:(سآوي إلى جبل يعصمني من الماء... وعكفت على العجل، و اعتديت في السبت»[170].

و أتبعها برواية هروبه إلى بني عباد و الحظوة التي لقيها عندهم، و تشوقه إلى حبيبته ولادة التي راح يكتب فيها و لها قصائد حنين و شوق، و ساعده على ذلك كله قربة من عصر ابن زيدون.

وانتهج في كامل هذا القسم الأسلوب نفسه، و من الشعراء الذين ذكرهم أيضًا ابن عمار صاحب المعتمد، و كذا لبون صاحب ذي النون و كذلك أبو محمد بن القاسم كما نجده ختم هذا الجزء من الترجمة بذكره للرسائل و الكتب التي تبادلها مع بعض معاصريه.

القسم الثالث- في لمع أعيان القضاة و لمح أعلام العلماء السراة، باديا بذكر **أبي الوليد سليمان بن خلق الباجي**، وصدّر الحديث عن عظم منزلته في المشرق و المغرب و اهتم بمواهبه و معطياته فتحدث عن نظمه في أغراض كالمدح و الرثاء، لكننا لم نر له الترجمة الوافية كغيره من أصحاب المؤلفات، و في هذا القسم نجده يذكر الصفحات السوداء في حياة بعضهم كشخصية الوزير الكاتب أبي محمد عبد الغفور الذي صدرّ الكلام عنه بقوله:**« قد كنت نويت ألاّ أثبت له ذكرًا، و لا أعمل له فكرًا، و أدعه مطرحًا...لتهوره، و كثرة تقعره، فإنه كان بادئ الهوج و عرّ المنهج، و له ألفاظ معقدة و أغراض غير متوقدة»**.[171]

و يدل في كل هذا على عدم استقرار علاقته بالمحيطين به و أيضًا ما ميز هذا القسم هو صبغته الأدبية حتى بالنسبة للفقهاء و القضاة و ذلك أنه مشدود كل الانشداد إلى الآليات الأدبية أكثر من أي علم آخر. فلا نجده قال أفتى بكذا بل نظم روائع.

---

(169) - المصدر نفسه، ص 11.

(170) - المصدر السابق، ص 80.

(171) - المصدر نفسه، ص 44.

القسم الرابع- في بدائع نبهاء الأدباء و روائع فحول الشعراء: بدأ **بأبي إسحاق بن إبراهيم بن خفاجة** الأندلسي مادحًا و مقرظًا كما عودنا فنجده يقول: «**مالك أعنة المحاسن و ناهج طريقها، العارف بترصيعها و تنميقها الناظم لعقودها..تصرف في فنون الإبداع كيف شاء »**.[172]

يبدو **ابن خفاجة** أمام الشعراء خبيرًا بكل أغراض الشعر خاصة الوصف منها فنجد الفتح بن خاقان يكثر من إيراد نماذجه في هذا الباب و ذكر مساجلات و مكاتبات شعرية بينهما، و يركز في هذا القسم دائمًا على الانزلاقات الأخلاقية للشعراء بتغزلهم بالغلمان و السعي وراءهم و لا يذكر الأحداث التاريخية إلاّ لأجل النص.

قام أخيرًا في هذا القسم بذكر ألقاب المترجم لهم قبل الأسماء و من هذه الألقاب: الأديب الأستاذ، الأديب الكاتب أو الحكيم، زد على ذلك أنه قام بإضافة كتّاب و فقهاء في هذا القسم من قبل الاستدراك للقسم الثالث.

5- الجانب التاريخي في الكتاب :

تظهر ملامح التاريخ في جميع الكتاب خاصة القسم الأول منه ، وتناول فيه ترجمة لمجموعة من الأمراء، والملوك ركز على الجانب الفني، والإنتاج الأدبي في حياتهم أكثر مما ركز على ذكر الحوادث بدقة، وبتواريخها المرتبطة، ربما لغياب المنهج الواضح في وضع تراجم الكتاب، المكونة من مجموعة أخبار قليلة ، وشحيحة بينما الإستشهادات الشعرية طغت عليه أكثر ، فأصبح الكتاب تقريبا مجمعًا شعريا على غرار الأصمعيات، و المفضليات، التي جمع فيها أصحابها أخبار العرب، وشعرائهم، ودونوا جميع ما قالوا.

ويجعلنا التخبط الواضح في كتابة التراجم نبحث ونتقصى الأخبار والحوادث الواردة في الكتاب من خلال القصائد ، بالإضافة إلى العودة لكتب التاريخ محاولةً منا للتأكد من صحتها أو خطئها، مع أن الرجل في مواطن عدة من الكتاب يذكر مصادره، ومن نقل له هاته الأخبار، فيقول مثلا : «**...أخبرني ابن زرقون ...**»[173]، ويقول في موضع آخر: «**...وأخبرني الوزير أبو محمد بن عبدون ...**»[174]، وأيضا يقول : «**... أخبرني الوزير أبو بكر بن القبطرنة...»**[175].

نقل أخباره أكثر ما نقل عن رجال ثقات ، إمّا علماء كشيخه ابن زرقون، أو أصحاب سلطة كالوزيرين أبي محمد بن عبدون، وأبي بكر بن القبطرنة، وعايشوا جميع الأحداث بتفاصيلها فنقلوها لنا على لسان المؤلف، وغيره من الكتاب الآخرين ، فتجلت لنا الكثير من الأحداث، التي كانت غائبة عنا في بر الأندلس، وأكثر الأخبار المذكورة في الكتاب، عنيت بالدولة العبادية في إشبيلية منذ نشأتها، وحتى سقوطها، وما كتبه الشعراء عن أفراح البلاد وأحزانها، ورسموا لنا نكباتها، وهو ما سنحاول استقراءه من خلال ما جاء في الكتاب من حوادث، وقصائد شعرية:

---

(172) - المصدر السابق، ص 46.
(173) - المصدر نفسه، ص 30.
(174) - المصدر نفسه، ص 48.
(175) - المصدر نفسه، ص 45 .

أول ما افتتح به كتابه كان ترجمة المعتمد بن عباد، ودخل مباشرة في وصف زمانه، وما عرفته البلاد من أفراح، وانتصارات على أيامه، والمواجهات الموجودة على الثغور مع الفرنجة ، وكيف استطاع أن يصدها، ويقمعها، فلم تكن الوفود تنقطع عن القدوم إليه ،حتى اجتمعت له قوة كبرى، مقارنة بالممالك الأندلسية الأخرى الموجودة في المنطقة فقال: **«...ولم يصح جوها من انسجام رفد ، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكمة أو مشاهير الحماة ،أعداد يغص بهم الفضاء ... »**[176].

لم يتعد كلامه وصف فيه نوع من المبالغة، مع أن البلاد في زمانه كانت حقا فيها فترات استقرار، وحماية للثغور ، فقارعوا الفرنجة في عدة وقائع، ومصره أحسن مصر على عكس الأمصار الأخرى التي رحتها الحروب والفتن .

ينتقل فيها بعد الكلام عن عائلة المعتمد ،فذكر خبر أبنائه ، فهم كانوا زينة شباب البلاد، وأصحاب حرب و نزال، كما كانوا أهل كرم و صدقة، إلاّ أن الحال لم يدم على ما هو عليه، فقد دارت عليهم دائرة الزمان، و ضيقت عليهم الفسحة، و يحكي لنا عن هجوم البربر أول مرة على قصر المعتمد، فأخذ سيفه و دافع عن حكمه إلى أن ثناهم عن عزمهم، و يبقي أن المؤلف لم يذكر لنا زمن حدوث الفتنة هذه، و لا من قادها، مما يثير الكثير من الشكوك حول عدة حوادث ذكرها، ونقل لنا البيتين لشاعر يلقب بالمصري لكنه لم يعرفنا من هو بالضبط، يصف مجلس المعتمد، و مادحًا له، بعد توليه الحكم و ما ناله من سمعة جيدة و مناصرة رعاياه له فقال:[177]

اشْرَبْ هَنِيْئًا عَلَيْكِ التَاجُ مُرْتَفَقًـــا   بِشَاذَ مُهْرِ وَدَعْ غَمْدَانَ لِلْيَمِـــنِ
فَأَنْتَ أوْلَى بِتَاجِ المُلْكِ تَلْبَسُـــــهُ   مِنْ هَوْدَةَ بن عَلَي وَ ابنُ ذِيَ يَــزَنِ[*]

لم يصل المعتمد ما وصله والده من حنكة عسكرية و دهاءٍ سياسيً، إلاّ أنه استطاع امتلاك الجزء الغربي من الأندلس و فرض عليه سلطانه، لذا نجد الشاعر يصفه في مجلسه أنه أحسن من مجلس غمدان باليمن، و الجميع يعرف ما لليمانيين من براعة في الحكم و من أناقة، و ترف في مجالسهم، و صنيع عروش ملوكهم، ثم انتقل من العرش إلى الجالس عليه فوصفه بأنه أحسن و أحق بالملك و التعصب بالتاج من هوذة بن علي، و ابن ذي يزن، ور بما يكون وجه الشبه بين الرجلين – المعتمد – و سيف بن ذي يزن – ما حدث لهما من خيانة و انقلابات محاولين قتلهما، إلاّ أنهما استطاعا الخروج من مصيبتهما و الفتك بأعدائهما، يضيف لنا استحضار المؤلف للنماذج التاريخية القديمة من تاريخ الجزيرة العربية الضارب في القدم إلى دراية المؤلف الكافية بالتاريخ و حسه الكبير بماله من قيمة كبرى تستدعى ذكره والحفاظ عليه، ما يجعل كلام الذين قالوا باستهتار المؤلف و اتخاذه للأدب كصنعة يسترزق منها فقط، كلام مردود عليهم.

---

[176] - المصدر السابق ص 4 .

[177] - المصدر نفسه، ص 7.

[*] - هوذة بن علي: أحد المرتدين على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأرض اليمن، أما ابن ذي يزن فهو: ملك يماني حميري عاش في الفترة الممتدة بين 561-574م، بطرده للأحباش، (ينظر ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

و يبقى يركز في كلامه دائمًا على ما هو أدبي فني مما كتبه الرجل، أو ما وصل إليه، فأخبرنا عن إحدى المراسلات، و كانت بين المعتصم بن صمادح صاحب مملكة المرية إلى المعتمد بن عباد حملها له الوزير أبو الأصبغ بن أرقم، و رافقه في طريقة الوزير أبو عبيد البكرى، و القاضي أبو بكر بن صاحب الأحباس، فعوض أن يذكر لنا فحوى الرسالة، و ما كان الوضع بين الرجلين، في حالة سلم أو حرب، وحتى تكون الوفادة على هذا الشكل الكبير، تضم وزراء و قضاة، و ذكر الإشعار بالقدوم الذي أرسله رئيس الوفادة إلى الملك فقال:[178]

يَا مَلِكًا عَظَّمَتْهُ العَرَبُ وَ العَجَـــمُ وَ وَاحِدًا وَ هُو فِي أَثْوَابُه أُمَــــمُ
أَنَّا وَرَدْنَاكَ وَ الأَقْطَارُ مُظْلِمَـــــةٌ و البَدْرُ يَرْجَى اِنْتَخَتِ الظُّلَـــمُ

فما يبدو أن العلاقة بين المملكتين كانت سلمية، حتى يقف رئيس الوفادة ويصف الملك –المعتمد بن عباد – و يفتخر أنه ملك عظمته ملوك العرب، و العجم، و سما بمكانته إلى أعلى المراتب ففي العدّ يكون واحدًا، أما في القدر فهو عظيم الشأن، و لهفة المرسل لرؤية القادم إليه تبدو واضحة، فما إن وصلت الملك رسالة الوزير حتى بعث له بالردّ مرحبًا به، و يستعجله الحث في الخطى ليصل إليه مبكرًا فقال المعتمد[179]:

أَهْلاً بكم صحبتكم نحوى الديـــم إن كان لم يتبجح لي بكم حُلُـــمُ
دُثُوا المَطِيَ وَ لَوْ لَيْلاً بِمَجْهَلَـــةٍ فَلَنْ تَظِلُّوا وَ مِن بِشْرِي لكم عَلَــمُ

تشبه سعادة الملك بقدوم الوزير أبو الأصبغ بن الأرقم نارًا على علم يهتدي بها من لا يعرف طريقه في الظلام و يضيف قائلاً:[180]

لاَ غَيَّ أَن رَقَمُوا كُتُبًا وَ لاَ حَصْـــرَ إِذّ يَنْتَدُونَ و لا جور إذا حكمـــوا
أَقَدِمْ أَبَا الأَصْبَغ المودُودَ تَلْقَى هَشَّ المَودَةِ لا يزري به ســـأم فَـــتَى

و كما افتخر أبو الأصبغ بالمعتمد قابلها المعتمد بالمثل، فوصفه ووصف عائلته بالعلم، و الخط، ورقم الكتب ، و أنهم عائلة لا تحكم بالجور و لا تطغى، و هي ذات حسب و نسب عريق.

و تراجعت مركزية قرطبة و كثرت فتنها و تناحر الملوك فيما بينهم محاولين نيل عرشها، حتى نالها المعتمد بفضل ما أظهر من رعاية لأهلها، و محاولة خطب و دهم، و عدم نسيان ما للسيف من مكانة، و لمّا نال حكم قرطبة قال مفتخرًا بنفسه:[181]

مَنْ لِلْمُلُوكِ بَشَأْو الأَصْيُد البَطَـــلِ هَيْهَاتَ جَاءَتكُمُ مَهْدِيَةٌ الـــدُوَلِ
خَطَبْتُ قُرطُبَةَ الحَسْنَاء إذ مَنَعَـــتَ مَن جَاءَ يَخْطِبهَا بِالبُيضِ وَ

---

[178]- ابن خاقان، القلائد ، ص 9.
[179]– المصدر السابق، ص 9.
[180] - المصدر نفسه، ص 9.
[181] - المصدر نفسه، ص 12.

الأسَـــلِ

عَرْسَ المُلُوكِ لَنَا فِي قصْرِهَا عُـــرُس كُلُ المُلُوكِ بِهِ فِي مَأتِمَ الوَجَـــل

فَرَاقِبُوا عَن قَرِيْبٍ لاَ أَبَا لَكُـــم هُجُومُ لَيْثٍ بِدِرْعِ البَاس مُشْتَمِــلِ

نعيب جدًا على الكاتب عدم ذكره لنا الحادثة التي افتخر بها المعتمد، فنيل حكم عرش قرطبة ليس بالأمر الهين و لا من السهل على ملك، و تغييب ذكر تاريخ كبير بهذا الشكل ينقص كثيرًا من قوة الجانب التاريخي في الكتاب، و سقوط قرطبة كما أفادنا المقري كان في بداية النصف الثاني من القرن الخامس هجري.

و يمر إلى الحديث عن تسليم المعتمد مفاتيح حكم قرطبة لابنه الظافر، فسار على نهج أبيه يدبر الحكم و يعمر البلاد زاهدًا فيما سوى ذلك غافلا عن المؤامرات و المكائد يقول الفتح:«**...أعطى ابنه زمامها...و اشتغل بأعبائها عن فتانه، و لم يزل فيها آمرًا و ناهيًا، غافلاً عن المكر ساهيًا...**». (182)

يطول الكلام في ذكر خبر الظافر، و ما كان معه من سكان قرطبة من عدم وفاء و خيانة، فقد ثار عليه ابن عكاشة ليلاً، فقتل من جنده ما قتل، و فرّ من فرّ حتى بقى وحيدًا أمام عدوه الذي قتله، وتركه في الخلاء عاريًا منكشف المنكبين لولا أن ستره أحد أئمة المسجد دون أن يعرفه، و لمّا جاء الغدّ، حزّ رأسه و رفع على رمح، فانشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثأره من ابن عكاشة، فلم يترك لنا الملك الشاعر- المعتمد – كلمة للوعته شافية و لا حفظ لنا منه قافية إلاّ إشارة جاءت في قصيدة مطولة رثى فيها ابنيه الآخرين المأمون و الراضي فقال:(183)

وَ قبْلَكُمَا مَا أوْدَعَ القَلْبُ حَسْـــرَةً تُجَدِدُ طُوْلَ الدَّهْرِ ثكْلَ أبِي عَمْـــرِو

تتوالى حوادث الزمان على المعتمد بن عباد بأحزانها و أتراحها تاركة في نفسه كل انكسار بعدما كان ملكًا مهاب الجانب يخاف منه العربي و العجمي، فلا يقتربون من حماه إلا خفيةً أو غدرًا كما حدث مع من قتل ابنه البكر الظافر و الملقب **بأبي عمر**.

و لمّا عدنا لكتاب نفح الطيب و جدنا أن ابن عكاشة كان قائد جيش المأمون بن ذي النون لمّا هجم على قرطبة و أراد تملكها و قتل واليها، و هو الظافر بن المعتمد بن عباد.(184)

و تستمر قوة المعتمد على المواجهة حتى في أحلك الظروف، و في واقعة له مع الفرنجة يقودها **أذفونش** لم يتراجع، و بقي يدافع عن حماه، و عرضه رادهم على أعقابهم متناسيا الفتنة الداخلية، أين تخلى عنه ملوك الأندلس فلم يدعمه أحد منهم تاركينه لمصيره المحتوم، إلاّ أن الله خيب أملهم، و هزم بعون الله عدوه، وفي ذلك

---

(182) – المصدر السابق، ص 12.

(183) - المصدر نفسه، ص 14.

(184) - ينظر: المقري، نفح الطيب، مج 1، ص 440.

تنافس الكثير من الشعراء في الفخر به، و تمجيد بطولاته منهم **ابن عبادة و عبد الجليل** الذي يقول في قصيدة مطولة منها:[185]

فَثَارَ إِلى الطِعَانِ حَلِيْفَ صِـــدْقٍ تَثُورُ بِهِ الحَفِيْظَةُ وَ الذِمَـــــامَ
دَمَا في حِمْيَر وَ نَمَتكَ لخَـْـــمُ وَ تِلْكَ وَ شَائِجُ فيهَا الْتِحَـــامُ

يفتخر الشاعر ببطولات ملكهم، فقام بوصفه ملكًا لا يهاب الخطوب مبتسمًا في وجهها، و كيف لا و هو نما و ترعرع في قبيلة لخم إحدى القبائل العربية الكبرى القادمة من المشرق، و تعود في أصولها إلى حمير من أعرق الأقوام التي سكنت اليمن، و هذا نوع آخر من البحث في الجانب التاريخي، وتجسد في تقصى الأصول التي ينتمي لها الملك حتى أقدم أصل عرف، فبالآباء يعرف الأبناء، و يستمر في ذكر أطوار المعركة حتى يقول:[186]

عَدِيْدٌ لاَ شَارَفَهُ حِسَـــــابُ فمَا نَقْصَ الشَرابُ و لاَ الطَعَـــامُ
فَيَا أَدْفُونْشُ يَا مَغْرُورُ هَـــــلاَّ تَجَنَبْتَ المَشْيَخَةَ يَاغُـــــلاَمُ

ضم البيتان رسالة تهديد واضحة موجهة **لأذفونش** ملك الفرنجة و قائد الحملة التي اجتاحت الأندلس في فترة ما بين 419هـ إلى 484هـ.

و تعد المعركة التي و صفها عبد الجليل مفتخرًا بملكه من أكبر الوقائع التي جرت بين العرب و الفرنجة و تسمي معركة الزلاقة، و اتحد فيها **المعتمد بن عباد و يوسف ابن تشفين** أمير المرابطين في المغرب ، و هزم **ألفونس (أذفونش)** شر هزيمة مع أن جيشه كان لا يعد و لا يحصى، و تذكر كتب التاريخ أن جيش المسلمين لم يبق منهم إلا فلولاً صغيرة و الخطأ الوحيد الذي ارتكبه العرب أنهم لم يتبعوهم لينهوا خطرهم، و حدثت المعركة سنة 23/10/1086م بسهل الزلاقة [187].

و يستحضر عبد الجليل في نفس القصيدة أقدم أصول نشأ منها العرب مفتخرًا و ممجدًا البطل، و رافعًا ألويته في وجه **أذفونش** الطاغية فقال: [188]

فَإِن شِئْتَ اللُّجَيْنَ فَثَّمَ سَـــــامُ وَ إِنْ شِئْتَ النُّضار فَثَمَّ حَـــامُ

و استطاع المعتمد ردّ **أذفونش** في المرات الأولى بالفعل، إلاّ أنه انهزم فيما بعد و سقطت مملكة إشبلية بعد سقوط معاقل الإسلام واحدة تلو أخرى بفعل الحملات الإسبانية الكبرى، زد على ذلك تحالف الممالك الأندلسية مع **أذفونش** ضد بعضهم، ولم يقنع فيما بعد بالجزية بعدما رآه من تناحر العرب و إمكانية حصوله على الأكثر، ومن المؤامرات التي قوضت ملك المعتمد، ما كان من **المعتصم بن صمادح** عندما حاول إثارة أمير المسلمين ضده، ولمّا علم ما كان منه أرسل إليه قائلاً:[189]

يَامَنْ تَعَرَّضَ لِي يُرِيدُ مُسَاءَتِـــــي لاَ تَعْرِضَنَّ فَقَد نَصَحْتُ لِمُنْـــدِمِ
مَن غَرَّه منّى خَلاَئِقَ سَهْلَـــــةٍ فَالسُّمُ تَحتَ لِيَانِ مَسِّ الأَرَاقِـــمِ

---

185) - ابن خاقان، القلائد، ص 15.
186) - المصدر السابق، ص 15.
187) - معركة الزلاقة،ويكيبيديا الموسوعة الحرة، www.google.fr .
188) - ابن خاقان، القلائد، ص 15.
189) - المصدر، السابق،ص 15.

وجه المعتمد تنبيها واضحا للمعتصم، ناصحا إياه بعدم التلاعب عليه، و خيانته بسبب ما رآه من ليونة في التعامل و المسالمة في العلاقات مع الآخرين، فالأفاعي تخفي وراء نعومة جسمها، وليونة حركتها السم تحت أنيابها دون أن تراه، و يخرج للحاجة فقط.

و يأتي في قصيدة لابن زيدون يمدح فيها المعتمد بعد إنصافه إياه على أعدائه ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم في صورة حلمه على الكفّار، و صبره عليهم، إلاّ أن هذا لم يثنه عن المضي في طريق نشر دعوته الإسلامية بالحق فقال:[190]

مَا كَانَ حِلْمُ مُحَمَدٍ لِيُحِيْلَـــــهُ عَن عَهْدِهِ دَغْلَ الضَمِيْرِ مُذَمَـــمُ

يقر الشاعر على صفاء سريرة الملك، و قوة حلمه، و صبره على المكائد و مواجهة المؤامرات حتى قوى حكمه، و توطد سلطانه، إلاّ أننا نرى الشاعر بالغ في كلامه هذا، فما كان للمعتمد مهما تحلى بالصبر و الحلم أن يصل إلى حلم الرسول صلى الله عليه وسلم فهو منزّه و موجه من الله سبحانه و تعالى، ودستوره القرآن، بينما أكثر ما عرف به المعتمد و اشتهر به حبه للغناء، و تشجيعه عليه حتى أصبحت إشبلية مدينة الأنس و الغناء.

و يواصل **ابن زيدون** في ذكر الشخصيات التاريخية، فجاء على استحضار خبر صخر أخي الخنساء، فلطول ذكرها لأخيها و بكائها عليه، بين الشاعر لنا أن خبر المعتمد أكبر من خبر صخر، و سمعته أشهر من نار على علم فقال:[191]

دَعْ ذِكْرَ صَخْرٍ وَ ابنَ صَخْرٍ بَعْـــدَهُ أَنْتَ الحَلِيْمُ وَ غَيْرُكَ المُتَحَكِـــمُ

يستمر الفتح في سرد خبر دولة بني عباد بالتفصيل مقدما بعض الحوادث و مؤخرا أخرى حسب ما يقتضيه النص الشعري الذي يورده، و يعود بنا إلى خبر الملك **المعتضد مع الملك المرابطي باديس بن حبوس**، و ما كان بينهما، فلمّا رأى **المعتضد باديس** لاهيًا عابثا لا يعينه من شأن رعاياه إلاّ ما يجمعه من جزية، دون أن يبالي بما يحدث لهم، فاستغل فرصة انشغاله، و هجم على مدينة مالقة مسلمًا ألوية الجيش لابنه المعتمد بن عباد فركن إلى رأي حاشية السوء فاستطاع الملك المرابطي أن يدحره عن حمى مدينة مالقة، و يستولى عليها منهيًا حكم بني حمود فيها و يقول المؤلف يصف الحادثة: «**...وكان باديس بن حبوس بغرناطة عاثيا في فريقه، عادلاً عن سنن العدل و طريقة...فسدد إلى مالقة سهمه و سنانه، و عليه سيفه المحتل، ابنه المعتمد سهام الأعادي...و قد أشار على المعتمد برابرة بتنفيس الممتنعين، و لووه عن مساورتهم...فخاب سعيه...**».[192]

و استمرت الحرب سجالاً بين **بني عباد و باديس** إلى أن سقطت طليطلة في يد الإسبان سنة 478هـ، و يذكر في نطاق الفتنة الدائرة في قرطبة خبر ابنه **الراضي** الذي حكمهّ والده على الجزيرة الخضراء، ورندة، وبعد هزيمة أخيه **المأمون بن عباد** و

---

(190) - المصدر السابق، ص 18.

(191) - المصدر نفسه، ص 19.

(192) - المصدر السابق، ص 20-21.

قتله حاصره المغاربة في حصن رندة، فبقي يقاومهم وقتًا طويلاً إلى أن سمع ما كان من خبر أبيه، و سقوط سلطانه و سجنه، فأسلم القلعة آخذًا عهدًا من قائد الحامية على حفظ أهله، إلاّ أن القائد أعمل فيهم السيف، و لم يراع فيهم عهدًا و لا وعدًا، فقتل الراضي، و انتهى حكم بني عباد في إشبيلية، و قرطبة و كل الأندلس.

و لكن يبقى ورود أسمائهم في الكتاب لارتباط بعض الشخصيات التراجم لها في الكتاب ببلاط الدولة العبادية، و ملوكها و خاصة منهم ابن عمار، و ابن زيدون، و المتوكل، و ابن صمادح و غيرهم، وجاء خبر المتوكل بن الأفطس قليل في الكتاب بمقابل ما كان من أبناء عباد، غير أن المعلومات المتوفرة عنه لابأس بها، و لا سيما القصيدة التي قالها ابن عبدون في رثاء دولة بني الأفطس بعد سقوطها، و جميع فيها أكثر الحوادث في ذلك الزمن، و يروي الفتح قبل ذلك حادثة مقتل المتوكل، و ابنه الفضل، و العباس، فبعد الحروب الدائرة بينه و بين مملكة إشبيلية و ألمرية، و سرقسطة و غيرهم، سقطت دولته ووقع أسيرًا هو وولديه لدى الجيش المرابطي سنة 488هـ، و اقتيدوا إلى السجن، و ثمة قتلوا ابنيه أمامه فصبر و احتسبهما عند ربه، و طلب من سجانه أن يقوم فيصلي، وعندما وقف للصلاة قتل و هو بين يدي ربه ما حزّ كثيرًا في نفس من قتله، وفي نفس ابن عبدون أيضًا فقال:[193]

الدَّهْر يَفْجَعُ بَعْدَ العَيْنِ بالأثَـــــرِ ... فَمَا البُكَاءُ على الأَشْبَاحَ و الصـُّـوَرِ

كَمْ دَولَةَ وُ لِيَت بِالنَّصْرِ خِدمَتَهَــــا ... لم تَبْقَ مِنَها و سل ذكراك مَنْ خَبَـــرِ

وَ اسْتَرجَعَتِ مِنْ بَنِي سَاسَانَ مَا وَهَبَـت ... ولَم تَدَع لِبَنِي يُونَانَ مِن أثَـــــرِ

وَ اتْبَعَت أُخْتَهَا طَسَمًا وَ عَادَ علـــى ... عَادٍ و جُرْهُمٍ مِنهَا نَاقِصُ المُــــرَرِ

و ما أقالت ذَوي الهَيْأتِ مِن يَمَـــنِ ... وَ لاَ أجَارَت ذوي الغابات من مُضَــرِ

وَ مَزقت سَبَأ في كُلِ قَاضِيَــــــةٍ ... فَمَا التَقَى رَائِحٌ مِنهُمُ بِمُبتَكِــــرِ

استحضر الشاعر في هذه المقطوعة رموزًا تاريخية كان لها أثرها الكبير في تغيير وجه العالم، وإعادة تشكيله على حسب فالدنيا منحت بني ساسان، وهم الفرس إحدى أكبر الحضارات القديمة و الثرية بتراثها الفكري و السياسي، فقد كانت في صراع دائم مع الروم إلاّ أنها كانت تغلبها، وما قضى عليها إلاّ الإسلام بسيف الحق، وفي ذات البيت قابلهم بالحضارة اليونانية صاحبة الفضل في بناء ثقافة الأمة الغربية و العربية على حدّ سواء خاصة بترجمة كتب الطب و الكيمياء و الفلسفة اليونانية، ورغم ذلك اندثرت الأمم السابقة، مثل قبيلة طسم و عاد اللتان لم يبق لنا من ذكرهم شيئًا، إلاّ ما جاء في القرآن الكريم من خبرهم، ضف لهم قوم جرهم، وما عرفوه من تحضر كالذي عرفته اليمن، و ما كان من ذكرها العظيم الشأن، و الأبعد من قوم ساسان،

---

[193] (- المصدر نفسه، ص 42-43.

وطسم و عاد، و أقوام سبأ أو أقوام ما قبل الطوفان، فقد صورّ الحرب التي أكلت دولة بني الأفطس، وشردت سكانها و يتمت عيالها بانهيار سد مأرب، وإنهائه للحياة في سبأ و تشريد سكانها الذين انتشروا في جميع بقاع الأرض دون عودة أو شمل يجمعهم مجددًا.

و انتقل من ذكر الأمم الغابرة إلى ذكر أقوام و قبائل عاشت في العصر الجاهلي، و كانت من كبرى القبائل التي لها وزن في تقرير مصير العرب و هي قبيلة بني ربيعة و فارسيها الكبيرين كليب والمهلهل صاحب الحرب الكبرى، التي أشعل فتيلها جساس حين قتل ملكهم كليب، وكيف هب المهلهل لطلب ثأر أخيه القتيل، فلم يشف غليله أربعون سنة من الحرب، ثم ذكر الصراع الذي حدث بين قبيلتي ذبيان و عبس، من أجل السيطرة على المنطقة الموجودة بين القبيلتين و ما أحاط بهما، وكيف انتهى بالخسائر الفادحة مثلما كان من صراع الممالك العربية في الأندلس و ضياعها بعد سيطرة ملك قشتالة عليها فيقول:[194]

وَ أَنَفَذَتْ في كُلَيبٍ حُكَمهَا وَ رَصَّتِ ... مُهَلهِلاً بين سَمْعِ الأرضِ و البَصَــرِ

وَ دَوَخَت ءال ذْبيان و إخوتَهـــــمْ ... عَبسًا وَ عَضَّت بَنِي بَدرِ عَلَىَ النَّهْـرِ

و يستمر ابن عبدون في سرد التاريخ العربي من أقدم الأقوام المعروفة و حتى عصره، و يأتي على ذكر بعض حوادث التاريخ الإسلامي في بداياته فيقول:[195]

وَ مَزَقَت جَعفَرًا بِالبيْضِ وَ اختَلَسَــت ... مِن غيلَةٍ حمزة الظَلاَّم لِلجُــــزُرِ

وَ اشْرَفَت بِخُبيبٍ فوقَ فَارِعَـــةٍ ... و ألصَقَت طَلْحَةَ الفَيَاضَ بِالعَفْــرِ

وَ خَضَبَّت شَيْبَ عثمانُ دَمًا و خَطَـت ... إلى الزُّبيَرِ وَ لَم تَستَحِ مَن عُمَـــرَ

ذكر من شخصيات التاريخ الإسلامي:«**جعفر، و حمزة،و خبيب، وطلحة، و عثمان، وعمر، وعلي، و الحسن، و الحسين** »، فجعفر مات في سبيل الله شهيدًا، و قطعت أوصاله دون أن يتخلى عن الراية التي يحملها، و حمزة قتل غدرًا كما قتل عثمان و عمر و علي، و الحسين تاركين وراءهم الويل والفتن و الحروب التي طال مداها بين أبناء المسلمين، فالمشكلة بقيت واحدة في كل زمان و مكان تغيرت فقط شخصياتها، فالتناحر طال جميع المقدسات و تجاوز جميع الحدود، فقد اقتتلوا حتى في البيت الحرام سافكين دماء بعضهم البعض، فلم يراعوا حرمة التجاء ابن الزبير إلى المسجد الحرام و قتلوه ونكلوا بجسده، وعن ذلك يقول ابن عبدون في نفس القصيدة: (196)

و لم تُرَاقِب مَكَانَ ابن الزُبيـــرِ وَ لاَ ... رَعَت عِيَاذَتَهُ بِالبَيْتِ وَ الحَجَــــرِ

194() - المصدر السابق، ص 43.

195() - المصدر السابق، ص 43.

196() - المصدر نفسه، ص 43.

و يبقى في سرد الحوادث التاريخية التي مرت بها الأمة العربية بعد عهد الخلفاء الراشدين و الفتن المنتشرة آنذاك و حتى عصر بني العباس، فذكر السفاح، و أبا جعفر المنصور و الواقعة التي قتل فيها الأمين من طرف أخيه المأمون و جيشه، و المعتمد، و المقتدر، و المستعين تقاتلاً من أجل السلطة دون مراعاة صلة الرحم، و لا القرابة، و المهم الغلبة للأقوى إلى أن يصل في حديثه إلى ذكر خبر بني الأفطس و اندثار دولتهم فقال:[197]

بَني المُظَفرُ وَ الأيَامُ مَابَرِحَــــت مَرَاحِلاً وَ الوَرَى مِنهَا عَلَىَ سَفَــرِ

سقَتِ ثَرَى الفَضل و العباس هَامِيَــةٌ تُعَزِى إليهِمُ سَمَاحًا لا إلى المَطَــرِ

ثَلاَثَةٌ مَا رَأى السَعْدَان مِثْلَهُــــمُ فَضْلاً وَ لَو غُرَرًا بِالشَّمْسِ وَ القَمَــرِ

يقصد بثلاثة ما رأى السعدان مثلهم المتوكل و ابنيه العباس و الفضل، فالحياة، و الانتصار انتهى بنهايتهم، فمن سيرد معتمدا إذا هجم على مدينة ملكهم أو كور بطليوس فالمتوكل وحده استطاع وضع المملكة في فترة استقرار واسع في ظلها حكمه، فانتزع مدينة أشبونة من صاحبها، ولمّا علم بالخبر، و هو في قصره مع ندمائه، فازدادت مسرته، وقال له الوزير **أبو عبد الله بن خيرة بن درّية** لمن توليها؟ فقال لك، ففي أيامه ازدهرت مجالس العلم و الأدب، فكان الشعراء يتسارعون إلى نيل رضاه و مدحه.

يمر بنا الفتح بن خاقان من ذكر خبر بني **عباد**، و **المتوكل بن الأفطس** إلى ذكر خبر **المعتصم بن صمادح** صاحب ألمرية، و ما جاورها من الكور، وخبره قليل جدا لم يتعد ذكر ابنه عزّ الدولة الذي عرف باستهتاره، ولهوه على غرار ما كان من والده، فهما لم يهتما بالحروب، و لا بتوسع ملكهم، حتى غلبت عليهم الممالك المجاورة لهم، و انتهى حكم دولتهم بانتصار المرابطين عليهم سنة 484هـ.

و إلى ذكر الملوك و الأمراء بمجموعة من الوزراء إلاّ أن خبرهم ليس بذي بال، إنمّا اقتصر على مجالس اللهو و الغناء و الأدب، ومنهم ذو الوزارتين أبو مروان بن عبد الملك، و ابن زيدون، وابن عمار، و الدنيا نزلت بابن عمار كما طلعت به، فقد عاش في كنف دولة المعتمد بن عباد، ونال من الحظوة، وعنده ما ناله ابن زيدون في قرطبة قبل أن يدور عليه الزمان، وقد قربه المعتمد – ابن عمار – وولاّة حكم مدينة تدمير، ولما توجه ابن المعتمد الظافر إلى مدينة قرمونة بجيشه طالبًا إياه لتدخل في طاعته، فكان له ذلك دون جهد أو عناء كبير، وفي ذلك يقول ابن عمار مادحًا:[198]

فَتَى تَقِفُ بَين الخَمَائل مقـــــدم جَنَى المَوْتُ في كفيه أحْلَى مِنَ الشَّهدِ

أَطَلَّ على قرمُونَةَ مُتَبُلجًـــــا مَعَ الصبُح حتى قِيلَ كُنَّا عَلَى وَعْـدٍ

---

[197] (- المصدر نفسه، ص 44.

[198]() - المصدر السابق، ص 99.

كَأنِي بَادِيسَ وَ قد حَطَّ رَحْلَــــهُ   إلى القَرَسِ الطَاوِي عن الفرَسِ النَهْدِ

فقد ردّ ردًا مرعبًا فلم يبق الظافر من جيش باديس أحدًا إلاّ بعض الفلول الصغيرة هنا و هناك، و عندما استمرت فتوحات بني عباد، و منح ابن عمار حكم مدينة تدمير و آثر أن يؤمره على الجيش القاصد إلى مرسة، فكان بالفعل حق قائد، و داخله الطمع فأراد أن ينفصل بالمدينة دون مُؤَمِرِهِ، فأعلن خروجه عن المعتمد، إلاّ أن ملك إشبيلية لم يغفر له ذلك، و حمل عليه في المدينة، وهزمه، فلجأ إلى المؤتمن أمير مدينة سرقسطة، و لم يستسلم المعتمد في طلبه، إلى أن وقع في يده فقتله شرّ قتلة، و ارتأينا التفصيل في خبر ابن عمار دون غيرة من الوزراء لما كان له من صعود و نزول في سلم الحكم و توليه بعض الإمارات و قتله في سبيلها.

حاولنا الإلمام بالجانب التاريخي في الكتاب ملتزمين بذكر ما ورد من الحوادث، و لاحظنا أثناء بحثنا عن هذا الجانب، قلة ذكر التواريخ المرتبطة بعديد الأحداث الموجودة في المصنف، ولزوم تحديدها واجب، أماّ غير ذلك فالتفاصيل مذكورة، و بدقة عن فترة حكم ملوك الطوائف، ما يجعل الكتاب تتمة تاريخية لما سبق، وقدمه لنا كتاب جذوة المقتبس للحميدي، و الذي توقف في حديثه عن ملوك الأندلس، والتاريخ لهم ببداية عصر ملوك الطوائف دون ذكرهم، فانطلق كتاب القلائد من حيث انتهى الأول، فذكر أكبر ثلاثة ملوك عرفتهم هذه الفترة، وكانوا معاصرين لبعضهم، تجمعهم التحالفات أحيانا، وتفرقهم الحروب أكثر الأحيان، و هم المعتمد بن عباد، و المتوكل بن الأفطس، و المعتصم بن صمادح.

ولم يتوقف الجانب التاريخي في الكتاب على ذكر أخبار الأندلس فقط، و إنمّا نجده ذكر العديد من رجال التاريخ العربي و الإسلامي، ومستشهدًا بأعمالهم الجليلة أو سبب ما وقع لهم من حوادث، وخيانات أودت بحياتهم، أو أعاقت سير حكمهم و على رأسهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين عمر، و علي و عثمان، ومن الصحابة الأجلاء ذكر حمزة و طلحة و عبد الله بن الزبير، و قبائل عربية قديمة مثل مضر، و ذبيان و عبس، ومن المدائن ذكر ساسان، و غمدان، و سبأ،...

ثانيًا: السمة الفنية:

أشرفنا في بداية الفصل إلى عدم اهتمام المؤلف بمنهج معين في كتابة تراجم المصنف، كما توقفنا عند مشكلة حضرت بشكل مثير للانتباه في الكتاب، و غيره من الكتب الأخرى، وهي قلة اهتمام الكتاب بذكر التواريخ الدقيقة في تراجمهم، و حاولنا تفسير ذلك بإعطاء العديد من المبررات لابن خاقان، بخاصة و أن الكتاب يحمل من المادة الأدبية ما يجعله يستغني عن الكثير من العناصر، وما ذكره جاء متعلقا بالمناسبات التي قيلت فيها القصائد الموجودة في الكتاب، فعناية المؤلف قبل أي شيئ كانت بالأدب و الشعر، و ما جعل كتابه شبيهًا بالمقامات من حيث الأسلوب في الكتابة و حتى النماذج الشعرية و النثرية التي اختارها، و اقتسمت بذات الصفات، ومن ذلك

نستطيع القول أننا سنركز على عناية الأديب بالبديع و الأغراض الشعرية التي ذكرها في الكتاب.

1- **العناية بالبديع:** أمر طبيعي أن يهتم ابن خاقان بالبديع في كتابه و يعطيه من وقته الكثير، ولا سيما و أنه ابن الأندلس المعروفة بتأنقها، و بهائها و عنايتها بمظهرها، و لمعانها و البريق الذي يأسر القادمين إليها، و يشغل نار الجوي في الراحلين عنها، فميدان البديع كان من أبرز الميادين التي تبارى فيها الأدباء في القرن الخامس هجري بحكم التطور الذي عرفه الفكر و الأدب العربي، و هي سنة الكون، فبتطور الحضارة و العمران يتطور المجتمع، ويصل لدرجة الترف في الحياة من جميع جوانبها فينعكس على الثقافة فتصبح البلاد في حالة ترف فكرى، و معرفي يجعلها تبحث عن الأرقى و الأجود صبغة لتبدو بها.

كما دفعه حبه لبعض الشخصيات التي ترجم لها بأن يمدحه و يكثر من مدحها و يبالغ في الإطراء عليها، سواء نالت هذه الشخصيات المدح بجدارة أو أنها مجرد مبالغات كتبها لأجل الاستجداء والتكسب و من بعض تلك النماذج يقول عندما ذكر ابن خفاجة: **«مالك أعنة المحاسن، وناهج طريقها، العارف بترصيعها و تنميقها، الناظم لعقودها، الراقم لبرودها، المجيد لارهافها، العالم بجلائها وزفافها، تصرف في فنون الإبداع كيف شاء، و ابلغ دلوه من الإجادة الرشاء، فشعشع القول وورقة، مدّ في ميدان الإعجاز طلقة، فجاء نظامه أرق من النسيم العليل»**[199]

يعتبر كلامه عن ابن خفاجة كلام رائع ليس فيه من المبالغة شيء، فقد ملك **ابن خفاجة** زمام القول و تحكم في أوزان الشعر، و قوافيه حتى أصبح سيدًا، و هي ملك يمين يوجهها حيث يشاء، و يشكلها بأنواع مختلفة و بديعة، فشعره في الطبيعة لا يوجد أحسن منه، ووصفه للحدائق، و الرياحين الموجودة فيها جعلك كأنك تشمها، و قد وصل ما وصل من المكانة العلمية و الأدبية في سن مبكرة، فاستحق بالفعل ما قاله عنه الفتح، و هذا ليس غريبا إذا علمنا أنهما صديقان متوادان، ما يمنح عنصر المدح مصداقية أكثر، فقد وصفه بما عهده فيه من خصال.

و بأخذ نموذج آخر من المدح نحاول رؤية ما أراده المؤلف من استحضاره كل هذا البديع و الإطراء فيقول عن ابن طاهر: **«...به بدئ البيان و ختم، و لديه ثبت الاحسان و رسم و عنه افتر الزمان، و ابتسم، واستقر الملك لديه، و استقرار الترس في يديه، و اختيال التاج بمفرقة اختيال اليراع في مفرقه...»**[200]

جاء كلامه عن الرئيس ابن طاهر فيه الكثير من المبالغة، صحيح أنه كان صاحب حرب، إلاّ أنه لم يكن صاحب بيان، غير أن الفتح وصفه بهاته الصفات، من أجل أن يبرر قدرته الكبيرة على الرسم بالكلمات ما شاء و تمكنه من زمام اللغة.

و كما سخر لغته الراقية و إمكاناته المبتكرة في المدح استخدمها كذلك في الذم بذات الجودة والبيان اختلفتا فقط في خط السير، فالأولى تصعد نحو الأعلى و الثانية

---

(199) - المصدر السابق، ص 266.

(200) - المصدر نفسه، ص 64.

تنزل به نحو الأسفل، يقول في ذم أبي بكر الصانع: **«رمد جفن الدين، و كمد نفوس المهتدين اشتهر سخفًا و جنونًا، وهجر مفروضًا، ومسنونًا، فما يتشرع، ولا يأخذ من غير الأضاليل، ولا يشرع ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة، و لا أظهر مخيلة أنابه، و لا استنجى من حدث، ولا أشجى فؤاده يتوار في حدث، ولا أقرّ بباريه ومصوره و لا قرّ عن تباريه في ميدان تهوره، و الإساءة إليه أجدى من الإحسان، و البهيمة عنده أهدى من الإنسان...»[201] .**

يحمل كلامه الكثير من القسوة و الإجحاف في حق أبي بكر الصائغ بعدما وقع منه، من إهمال رسالته، فالأمر طبيعي جدًا فأي إنسان يشعر بالسوء من إنسان آخر يجعله يأخذ منه موقفا معينا، سواء كان بالرفض و الاحتجاج أو بالسكوت و الانسحاب من المواجهة، أما الفتح فكانت ردة فعله عنيفة وقاسية جدًا اتجاه الإهمال الذي قابله به ابن باجة و في نموذج آخر أورده الفتح بن خاقان ذاكرًا خبر أبي محمد بن سارة الشنتريني فقال: **«سابق الحلبة، وعقد تلك اللبّة، لا يشق غباره في ميدان نظام، ولا ننسق أخباره في قلة ارتباط و انتظام، أعان على نفسه الزمان، و استجلب لها الخمول و الحرمان، فلا يطير إلاّ وقع، و لا يرقع خرقًا من حالة الأخرق ما رقع»[202].**

لا نرى في كلام الفتح أي قسوة أو ظلم في حق أبي محمد الشنتريني، فهو عرف ببيانه و قلة عمله فيه، فقد اشتهر بالقصار أو كتابة المقطوعات الشعرية، و يأخذ أثناء كتابة شعره عن العديد من الشعراء، وهو ذات الكلام الذي ذكره ابن بسام عنه في كتاب الذخيرة.

قصر الكثير من الأدباء في ذكر الجانب الحسن من حياة ابن خاقان خاصة الأدبية، و العلمية منها مركزين على فشله في الحياة الاجتماعية، و معاقرته الخمر، و كثرة جموحه عن الطريق، فأراد أن يظهر لهم قدرته الإبداعية في الكتابة، و حسن أسلوبه لا في قصيدة واحدة، أو نص، بل في كتاب بمحتوياته جميعًا من المقدمة و حتى آخره، سواء مادحًا أو ذامًا و من أهم عناصر البديع الموجودة نجد:

1-**الاقتباس:** اقتبس الفتح الكثير من المعاني و التعابير من مختلف مصادر اللغة بخاصة من معاني القرآن الكريم، باعتباره مصدر اللغة الأول، و الأغنى من حيث تراكيبه و صيغه المختلفة و المتزنة، فقال مقتبسًا من القرآن الكريم: **«و أخذ كل سفينة غصبًا»[203]**

اقتبس هذا المعنى من الآية الكريمة: **« و كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينه غصبًا»[204]**

---

(201) - المصدر السابق، ص 347.
(202) - المصدر نفسه، ص 299.
(203) - المصدر السابق، ص 14
(204) - الكهف الآية [79].

و يعود إلى الاقتباس من القرآن الكريم مرة أخرى فيقول: **«فلو أن البحر لك مشرب و الترب مكسب، لنفذا معًا، ولم يسدا موضعًا»**[205] فذات المعنى مقتبس من القرآن الكريم من قوله تعالى: **«قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي و لو جئنا بمثله مددا»**[206]

وتعدد الاقتباس من القرآن الكريم وتنوع، وكمثال آخر اقتبسه المعتمد من سورة يوسف، وأورده الفتح في كتابة فقال المعتمد:[207]

قَلْبِيْ إلى الرّحْمَانِ يَشْكُو بَثَّــــهُ مَا خَابَ مَن يَشْكُو إلى الرَّحْمَـــانِ

قد اقتبس المعنى من الآية الكريمة التي يقول فيها الله تعالى: **«قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِيْ وَ حُزْنِيْ إِلَى اللهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ »**[208]

كما يبقى الاقتباس من القرآن الكريم موجودًا بكثرة في الكتاب، و إنما اخترنا نماذج قليلة لنبين مدى تأثير كلام الله على النفوس، فتتخذه دائمًا منحاها و منهجها القويم الذي يسير عليه.

و نجد اقتباسا من نوع آخر بعد القرآن الكريم يأتي الشعر العربي القديم منه خاصة، حاضرًا في الكتاب في إحدى القصائد التي لا نعلم صاحبها بالضبط بيت للشاعر المتنبي و قال هذا الشاعر في القصيدة الموجهة للمعتمد:[209]

قد قالَ شَاعِرُ كِنْدَةَ فِيمَا مَضَـــى بَيتًا على مرّ اللَيَالي يَعْلَـــمُ
لاَ يَسْلَمُ الشرف الرفيع مـــن الأذى حتى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الـــدَمُ

اقتبس الشاعر البيت الثاني[210] من إحدى أشهر قصائد **المتنبي**، ووظفه على أساس مثل يحتذى ويقتدى به في كل زمان و مكان فالشرف الرفيع لا يسلم من الأذى، فالجميع يسعى للنيل منه لذلك يدافع عنه صاحبه بحد السيف إمّا يرد عنه وإما يموت دونه.

و من الاقتباسات الشعرية من الشعر القديم أيضًا ما جاء به ابن الحداد عندما قال:[211]

إذَا مَا التَمَسْتَ الغِنَا بابن مَعَـــنَ ظَفِرتَ وَاَحمَدتَ مِنهُ التِمَاسًـــا
وَ مَنْ يَرْجُ شَمْسَ العُلَى مِن نَجِيــبٍ فَليسَ يَرَى مِن رَجَاهُ شَمُامـــًا

و أخذه عن قول **النابغة الذبياني** حين قال:

وَ لمَّاَ نَزَلنَا بجسرِ النِتَـــاج وَ لَم نَعْرِفِ الحَيَّ التمَاسًـــا
أضَاءَت لَنَّا النَّارُ وَجْهًا أغَـــرٌّ و ملبَسًا بِالفُؤَادِ التباسًـــا

---

(205) - ابن خاقان، القلائد، ص 76.
(206) - الكهف الآية [109].
(207) - ابن خاقان، القلائد، ص 29.
(208) - سورة يوسف، الآية [86].
(209) - ابن خاقان، القلائد، ص 17.
(210) - ينظر المتنبي الديوان ، تح : ناصف اليازجي ج 1، دار صادر، دار بيروت، لبنان،1964، ص 09.
(211) - ابن خاقان القلائد، ص 55.

فقد سارت الأبيات على ذات الروي و القافية، و مقتبسًا أكثر معانيها و أخرجها أحسن إخراج، يحمل معنى أرق، و أعذب من قول النابغة مع أنه أخذ عنه و أقتبس من كلامه.

2-**المقابلة:** تعتبر المقابلة ثاني أهم عناصر البديع التي وجدت في الكتاب و تحدث عنها الفتح في أكثر النماذج الأدبية التي استحضرها، و في النصوص التراجم التي صاغها هو في حدّ ذاته، و أول مثال يقابلنا في قول الشاعر المعتمد بن عباد:(212)

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بالأعياد مَسْـــرُورًا فَسَاءَكَ العِيدُ فِي أغمَاتَ مَأسُـــورَا
ترى بناتك فِي الأطْمَارِ جَائِعَـــةً يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِـــيْرَا
يَطَأنَ فِي الطِّينِ وَ الأقْدَامُ حَافيـــةٌ كأنَهَّا لم تَطأ مِسْكًا وَ كَافُـــورَا
قَدْ كَانَ دَهرُكَ إن تَأمُـــرهُ مُمتَثلاً فَردَّك الدَّهْرَ مَنْهِيًا وَ مَأمُـــورَا
مَنْ بَاتَ بَعدكَ في مُلكٍ يُسَـــرُّ بِهِ فَإِنَّمَا بَات بالأحْلاَمِ مَغْـــرُورَا

يقف الملك الشاعر أمام المرآة التي تعكس صورته الحقيقية بجميع أبعادها القاسية دون أن تخفى من لمحاتها شيئًا، فما عكسته مرآة الحاضر يوم عيد الفطر للملك و هو في سجن أغمات بفاس أمامه، وبناته يقفن كسيرات الطرف حافيات الأقدام، و كأنهن لم يطأن مسكًا و لا كافور فلمّا هزّه الشوق إلى ما مضى، و انتهى عهده متأسفًا، و هاربًا مما يراه ماثلاً أمامه، فقد كان بالأعياد مسرورا أما الآن فهو في الأعياد مأسورا، و أصبحت بناته يغزلن للناس ما كن يملكن سابقًا دون عناء يذكر، و يطأن الأرض حافية أقدامهن، وكأنهن لم يطأن مسكًا وكافور، متذكرًا ما فعل لأجل زوجته إعتماد و بناته، حين جعل لهن من المسك، والعنبر، والكافور، و الرياحين في ساحة القصر، و رحن يطأنه كأنه الوحل والطين، أما الآن فقد أصبحت الصورة مجسدة بواقعها و ثقل حقيقتها على نفسه، و نفوس بناته، فصعب جدًا على من كان يملك أن يصبح مملوكًا، و يتحكم بمصيره دون أن يكون له رأي فيه، و ختم هذه المقطوعة بقول أصبح مثلاً سائرًا لكل من عزّة طول الأمل، و ارتبط بحباله الهشة.

و اخترنا نموذجًا آخر للمقابلة من شعر الملك المعتمد بن عباد سبب ما في شعره من إبداع فني وجمالي فتجربته الشعرية ناضجة، امتلك من خلالها الإمكانات الإبداعية التي تمنحه التفرد و التميز في عالم قول الشعر و جاء قوله في وصف الأغلال:(213)

تَبَدلْتُ مِن عِزِّ ظلِّ البُنُـــودِ بِذُلِّ الحَديد وَ ثِقْلِ القُيُـــودِ
وَ كَانَ حَديدِي سِنَانًا ذَلِيقًـــا وَ عَضبًا رَقِيقًا صَقِيلَ الحَدِيـــدِ
فَقَد صَارَ ذَاكَ وَذَا أدهَمَـــا يَعَضُّ بسَاقِي عَضَّ الأسُـــودِ

فقد تغير عليه الحال من ملك يقطن القصور العالية و يفترش الحرير و السندس و يلبس من الحلل الذهبية ما يجعله يثقل عن حملها، هذا و دون أن ننسى التاج على مفرقيه، أما الآن فأصبحت قيود من حديد تكبله بدل أساور الذهب التي تزينه، فأصبح

---

(212) - المصدر نفسه، ص 28.
(213) - المصدر السابق، ص 25.

يعجز عن الحركة، وهو الذي كان يأمر و ينهى، و يعاقب و يغفر و هذا ما عبرّ عنه في المقطوعة فمن **«عز ظل البنود»** إلى **«ذل الحديد و ثقل القيود»** و **«كان حديدي سنانًا ذليقًا...صار بعض بساقي عضّ الأسود»** فتحول عهد من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات.

و تجدر بنا الإشارة إلى عدم ذكر مقابلات أوردها المؤلف من صياغته فهي لا تكاد تبدو من السجع و الجناس و الطباقات المختلفة الموجودة في الكتاب، بالإضافة إلى أن المؤلف لم يكن صاحب، شعر و منه سنخرج إلى عنصر السجع و الأكثر انتشارًا في الكتاب على الإطلاق.

ج- السجع: لا نكاد نرى في الكتاب صفحة أو حتى فقرة تخلو من السجع، خاصة وهو الأسلوب المنتشر في البلاد العربية بمشرقها و مغربها و أندلسها، و المؤلف اختص بهذا الأسلوب إقتداء بكتاب عصره، متأثرًا بمؤثراته و النموذج الذي سنأخذه لم يكن عن اختيار متفحص إنما جاء عشوائيًا لتفشي الظاهرة في الكتاب يقول: **«و لمّا انتظمت في ملكه و اتسمت بملكه، أعطى ابنه الظافر زمامها، وولاّة نقضها و إبرامها، ففاض فيها نداه، وزاد على أمده و مداه، و جمّلها بكثرة حبائه، و اشتغل باعبائها عن فتآئه...فبرز الظافر منفردًا من كماته، عاريًا عن حماته، وسيفه في يمينه و هاديه في الظلماء نور جبينه، فإنه كان غلامًا كما بلّله الشباب باندائه، و ألحفه الحسن بردائه، فدافعهم أكثر ليلة، و قد منع من تلاحق رجله و خيله»**[214].

يتجلى لنا من الفقرة الموجودة أمامنا طول نفس المؤلف في كلامه المستمر دون تعثر أو نطق خاطئ، و على وتيرة واحدة فالفقرة جميعا مسجوعة لا يفصل بين جملة وجملة حرف يختلف عن الآخر، فمن أول جملة إلى آخرها انتهت بحرف الهاء، وما اقتبسنا منها إلا فقرة قصيرة، لأنه لو فسحنا المجال وتتبع السجع في هذه الترجمة، لدوّناها جميعًا، لالتزامها كما سبق و قلنا بالسجع و هو ما يظهر لنا ابن خاقان متميزًا في أسلوب كتابته، و حتى في الجملة الواحدة نجد السجع حاضرًا كقوله: **«و ولاه نقضها و إبرامها»** فالجملة مسجوعة في جزئها الأول و عطف عليها الجزء الثاني و هو بنفس حرف نهاية الجزء الأول **«سيفه في يمينه و هاديه»** تناظر الجزء الثاني منها **«في الظلماء نور جبينه»**

و لا يعد كلامنا عن السجع محض مصادفة إنمّا كما قلنا سابقًا فرضه أسلوب المؤلف و عصره و بأخذنا لنموذج آخر يكون من وسط الكتاب محاولة لإثبات و تبيان مدى اهتمام المؤلف بعنصر السجع في مصنفّه يقول الفتح في رسالة بعثها إلى الوزير أبي عبد الملك بن عبد العزيز عند حادثة سقوط طليطلة و تفجعهم ما قال: **«كتبت أعزّك الله و الحدّ قليل و الذهن كليل، بما حدث من عظيم الخرق، على جميع الخلق، فلتقم على الدين نوادبه، فقد جبّ سنامه و غاربه، و لتفصن عليه مدامعه و عبراته فقد غشيه حمامه و غمراته، وكان منيع الذرى، بعيدًا عن أن يلحظ أو يرى، تحميه المناصل البتر، والذوابل السمر، و المسومة الجرد، و مشيخة كأنهم من طول ما**

---

[214] - المصدر السابق، ص 12.

التثموا مرد، فأبي القدر إلاّ أن يفجع بأشمخ مدائنه و معاقله، و لا يترك له سوى سواحله، و كانت لطليطلة أختا، فاستلبها فجاءة و بغتًا»[215].

سارت الفقرة الثانية على نظام الثنائيات، فكل جملتين تتفقان في نهاية واحدة بسبب أن المؤلف في موقف إخبار تتغير أحداثه و مواضيعه من جملة إلى جملة، على خلاف الفقرة الأولى التي انتهت جميع جملها بحرف الهاء، ذلك أن المؤلف كان في موقف وصف إحتاج فيها فقط لحروف الربط، و أكثرها الواو التي وصل عددها إلى (13 حرفًا) بينما عدد جملها و صل إلى (15 جملة).

أما الفقرة الثانية فجاءت الجملة الأولى و الثانية بحرف اللام و الجملة الثالثة و الرابعة تنتهي بحرف القاف، بينما الجمل الخامسة و السادسة و السابعة جاءت منتهية أو مسجوعة بحرف الهاء، لأنه كما أسلفنا الذكر في موقف وصف في هاته الجمل، و الهاء من الحروف الهوائية و من خصائصها أن تساعد الإنسان على تجديد نفسه، و تطوره، ليستطيع أن يكمل الكلام واصفًا ما يريد دون توقف.

و استطاع المؤلف أن يميز نفسه و كتبه بهذا الأسلوب، فقد كسب الكثير من علماء عصره بنفس الطريقة و حسن الإجادة، و أثبتوا القدرة على التمكن من زمام اللغة و السجع، إلاّ و كتبهم توجد فيها بعض الفقرات التي تسير بخط مستقيم لا يوجد فيها أي جانب للاهتمام بالبديع، أما الفتح بن خاقان فقد تمكن من جعل كتابه كموشحة تغنى جميع فقراتها موزونة و جملها تكاد تكون متساوية المسجوع في الكتابة، و يبرز ما أراد الفتح الوصول إليه من أهداف و غايات، هي مناه و سبب سعيه و عمله من أجل نيل الرضى من نفسه و من غيره.

و لم يتوقف كلامه عن البديع في عناصر الاقتباس بنوعيه من القرآن و الشعر العربي القديم، و المقابلة بين المعاني في الكثير من القصائد الموجودة في المصنفة، و عنصر السجع الذي و سم الكتاب بسيمته، وإنّما ركزنا عليها لأهميتها، و انتشارها في الكتاب دون غيرها من عناصر البديع الأخرى، والتي سنحاول تلخيص الكلام عنها من خلال النموذج الشعر الآتي للمعتضد و أرسله للشاعر الطبيب أبي محمد المصري، الذي تكلمنا عنه سابقًا، و قلنا أن المؤلف لم يعرفنا به، إنما جاء في هذا الموضوع وذلك ما فاته و أعطانا اسمه بالكامل و له يقول المعتضد بن عباد:

أيُّهَا الصَاحِبُ الذي فَارَقت عُينـــي　　و نفسي منه السنا و السنـــآء
نـَحْنُ في المجلس الذي يَهبُ الـــرَّا　　حَةَ وَ السَّمعَ وَ الغِنَا و الغِنَـــاءَ
نـَتَعَاطَى التي تسمي مِنَ اللـــذةً　　و الرّقة الهوى و الهـــواء
فَـأتِهِ تَلْفُ رَاحَةً وَ مُحيَّـــا　　قد اعدّ لك الحيا و الحَيَـــاءَ

يحضر في هاته المقطوعة الشعرية الجناس التام بقوة و هو ما نجده في الأشطر الثانية للأبيات الأربعة بين مفردات «**السنا و السناء**» و تعنى الأولى الراحة و النوم القليل أو الغفوة «**سنة**» أما الثانية فتعني الضوء و النور، و الشعاع الساطع من الشمس خاصة في انبلاج الصبح من كبد الظلام وفي «**الغنا و الغناء**» و تعنى

---

[215] ـ المصدر نفسه، ص 73.

كلمة الغنى الجاه و الثراء الذي يصيبه المرء في حياته، أما الغناء فيقصد بها الطرب والموسيقى، و بين مفردات أيضًا **«الهوى و الهواء»** و معنى كلمة الهوى الحب الشديد، فنقول هوى فلان فلان أي أحبه و ذهب في حبه كل مذهب، و فيما يخص الهواء فالمراد منه الهواء الذي نتنفسه وكلا المعنيين متشابهين يشتركان في عنصر منح الحياة كما يمنح الغناء الأنس و يمنع الضوء الشعاع، وكذلك هو الحال في البيت الأخير بين مفردتي **«الحيا، و الحياء»** فالمقصود من الأولى الحياة بجميع معانيها، أما المراد من الكلمة الثانية فهو الوجل و الحشمة.

كما نجد طباقًا ضمنيًا في المعنيين **«و السمع و الغناء»** و هما حركتان متعاكستان فأحدهما يتكلم و يغني و الآخر يقابله أو يطابقه بالفعل السمعي، لذلك قلنا أن بين لفظتي السمع و الغناء علاقة ضدية مما جعلنا نطلق عليها اسم الطباق و هو أحد العناصر المهمة في البديع، كما توجد عناصر أخرى لا يسع المجال لذكرها جميعًا و التفصيل فيها إنمّا توقفنا فقط على عناصر الطباق الأشهر في الكتاب والتي يستطيع القارئ للمصنف أن يعرفه و يلحظها دون أي عناء كبير.

ثالثًا- السمة الحضارية:

قد رأيت أن أصف في السمة الحضارية متنزهات قرطبة، و إشبيلية، و مالقة، و ألمرية و بلنسية وطليطلة و غيرها من المدن الأندلسية، و كورها المذكورة في الكتاب، ووصف مجالس الأنس و الشراب فيها، لا تشجيعًا على ما كان فيها من فاحشة إنمّا لنري ما كان فيها من جمال قصورها و منتزهاتها، وحدائقها الغناء الجميلة، و مما فيها بما تنشرح به الأنفس، و تفرح به الأعين:

1 - وصف المدن: نعثر في طيات الكتاب على العديد من المدن الأندلسية، و ما كان خبرها، وتأثرها بالحوادث، و تأثيرها في أنفس مرتاديها منها:

مدينة قرطبة: لم تختلف المصادر القديمة في وصف جمال مدينة قرطبة، و في القلائد يصفها المؤلف بأنها مدينة ذات حدائق و منتزهات رائقة المنظر فقال: **«...هذه معاهد لبني أمية، قطعت بها ليالي، وأيامًا، و ظلت فيها الحوادث عنهم نيامًا، فهاموا بشرق العقاب، و ساموا به برقًا يبدو من نقاب، و نعموا بجو في الرصافة، و طمعوا بالزهراء، و صموا عن بناء صاحب الزوراء... »**[216]

ذكر ابن خاقان قصر العقاب، و الرصافة و الزهراء و ما فيها من قاعات جميلة، و منتزهات تزينها مختلف أنواع الورود.

و يعود لوصف قرطبة في موضع آخر من الكتاب أثناء فصل الربيع فيقول:

«...الربيع قد خلع عليها برده، و نثر سوسنه وورده، واترع جداولها، و انطق بلابلها...و ارتياح جميل بوادي القرى»[217]

زاد الربيع من جمال قرطبة و روعتها بقدومه، فقد منحها ثوبه القشيب الموشي بأنواع الروائح والرياحين، و ذكر جداولها، و أنهارها التي أطلقها الربيع بعدما جمدّها

---

(216) - المصدر السابق، ص 81.

(217) - المصدر نفسه، ص 82.

الشتاء و أمسك من حريتها كما أنطق بلابلها، و ذكر أيضًا وادي القرى، و هو أحد الوديان المحيطة بقرطبة عرف بمائة العذب و صفائه.
و يخبرنا صاحب نفح الطيب عن كبر قرطبة، و اتصال عمرانها بالزهراء و الزاهرة بحيث أنه كان يمشي فيها لضوء السرج المتصلة عشرة أميال في كل ليلة(218)، و تحتل قرطبة في الأقاليم الرابع، وهي عاصمة حكم بني أمية، فاهتموا بإنشاء المساجد فيها و القصور، و الرياض المختلفة، و أشهر معالمها على الإطلاق مسجدها الذي بناه عبد الرحمان الناصر، ومن بدعه بنائه أن فيه ثلاثمائة و نحو ستين طاقًا بعدد أيام السنة، تدخل الشمس فيه من طاقة كل يوم، وهو خبر غريب ذكره المقري فقط، وأن أعمدته كلمّا اجتمعت أربعة كان رأسها واحدًا، ثم زين بالرخام المنقوش بالذهب و الفضة و اللازورد في أعلاه و أسفله.
مدينة إشبيلية: تقع إشبيلية في الغرب من قطر الأندلس عرفت بجمالها و مضاهاتها لقرطبة وفي استقطابها للعلماء و الأدباء، وأكثر ما اشتهرت بالموسيقى و الغناء و قال عنها: **« أصبحت حضرته ميدانًا لرهان الأذهان و غاية لرمي هدف البيان، و مضمارًا لإحراز خصال، في كل معنى وفضل...فأصبح عصره أحسن عصر، و غدا مصره أحسن مصر، تفسح فيه ديم الكرم، و يفصح فيه لسانا سيف و قلم...»(219)**
و أكثر ما اشتهرت به إشبيلية في عمرانها، كان القصر الزاهر أحد القصور التي بناها و فيها يقول صاحبها:(220)
بزَاهِرهَا السامي الذي جَادَهُ الحَيَــــا   تُشِيرُ الثُّرَيَّا نَحونَا وَ نُشيــــرُ
و توجد في إشبيلية أيضا العديد من الحدائق و المنتزهات الكبرى بخاصة منها في القصور التي ابتناها الحكّام لأجل أهوائهم و ترفهم، و مناخ المدينة بطبيعته رطب و كثير المياه مما يجعلها خضراء على طول السنة، و كأنها جنّة على الأرض و لحب المعتمد بن عباد لقرطبة و ما فيها حاول تقليد بنائها ونسخة على أرض إشبيلية، مثلما رأينا أنه سمى قصره بالزاهر على غرار قصري الزهراء و الزاهرة.
مدينة شلب: وصف الشاعر مدينة شلب أثناء ذكره للمعتمد و ماكان من تذكره لصباه في مدينة شلب فأول ما تولى من الحكم كانت هي عندما إستولى عليها المعتضد و فيها يقول المعتضد واصفًا:
ألاَ حَيِّ أوطَانِي بشلْبِ أبَا بَكْـــرٍ   وَ سَلْهُنَّ هَل عَهْدُ الوِصَالِ كَمَـا أدْرِى
وَ سَلِّم عَلى قصر الشَرَا جَيْبِ عن فَتَى   لَهُ شَوقٌ إلى ذَلِكَ القَصْـــــرِ
مَنَازِلَ آسَادٍ وَ بِيض نواعـــــم   فَنَاهِيْكَ مِن غَيْلٍ وَ نَاهِيكَ مِن خِـدْرِ

---

(218) - ينظر: المقرى، نفح الطيب، ص 456.
(219) - ابن خاقان، القلائد، ص 4.
(220) - المصدر السابق، ص 27.

فمن العناصر المهمة في الأبيات التي أوردها الفتح لابن عباد تضمنها لوصف مدينة شلب و احد قصورها التي عاش فيها المعتمد صباه و لعب و تمتع بما فيها من جمال و ظل ظليل في بساتينها وحدائقها الكبرى المنتشرة في القصور و على ضفاف الأنهار.

و ذكرها الفتح – شلب – في عدة مواضع أخرى من الكتاب، و عندما تكلم عنها ابن سعيد في كتابه وضع لها عنوانًا خاصة بها فقال: **«كتاب الخلب في حلى مملكة شلب »**(221)، و كتاب المغرب مقسم على شكل كتيبات صغيرة خاص كل مدينة بواحد فتكلم عن شلب كمدينة و حضارة، و تكلم عمن اشتهر فيها من العلماء و الأدباء و المحن التي أصابت المدينة بعد ما هتكت الحروب لواءها و دكت حضرتها و اندثرت رسومها، و يخبرنا صاحب الحلل السندسية أنها تقع قرب مدينة قرطبة بحوالي سبعة أيام(222)

مدينة رندة: إحدى المدن الصغيرة المحاذية لمدينة قرطبة و احد الحصون القوية التي بنيت على صخرة كبيرة، و تستعصى على كل طالبيها مهما طال حصارهم لها و يصفها الفتح أثناء كلامه عن الراضي بن المعتمدين عباد فيقول: **«رندة أحد معاقل الأندلس الممتعة، و قواعدها السامية المرتفعة، تطرد منها على بعد ملتقاها، و دنو النجوم من ذراها، عيون لانصبابها دوي كالرعد القاصف، ثم تتكون واديًا يلتوي بجوانبها التواء الشجاع، و يزيدها في التوعر و الإمتناع، وقد تجونت نواحيها، و اقطارها، و تكونت فيها لباناتها و أوطارها، لا يتعذر لها مطلب، ولا يتصور فيها عدّو إلاّ علقة ناب أو مخلب»**(223).

و تحيط بها الوديان من جميع جوانبها فكأنها تشبه قلعة محصنة في جزيرة نائية لاستعصائها على جميع طالبيها فلا تفتح إلاّ إذا سلّمها أصحابها، و ذكرها في موضع آخر من الكتاب يصفها أثناء الحصار الذي فرض على الراضي فقال: **« و انتقل إلى رندة، معقل أشب، و أقام رهين حصار و لقيت ريحه كل إعصار...و امكنت منه يدي مسيّها»**(224).

بقيت المدينة صامدة أثناء الحصار مع أنه طال كثيرًا، لحصانتها و وعورة مسالكها و لم تسقط إلاّ عندما أسلمها الراضي بعد ما كان من خبر أبيه.

مدينة سرقسطة: و يعنى اسمها قصر الملك، و عرفت كما عرفت جميع مدن الأندلس بفخامة عمرانها و بهائه، و تنوعت طبيعتها من أشجار و أنهار و هي إحدى الحواضر الستة في الأندلس، والسمة التي تميزها أكثر عن باقي مدن الأندلس عدم اهتمامهم بالعلماء و العلم، و قد دخلت في حكم المعتمد بعدما افتكها من أبناء ذي النون

---

(221) - ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص 38.

(222) - شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية، مج 1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان ص 40.

(223) - ابن خاقان، القلائد، ص 22.

(224) - المصدر نفسه، ص 36.

فقال الفتح واصفًا إياها: **«...و دخل سرقسطة فلمّا رأى غباؤه أهلها، تكاثف جهلها، وواصل منهم من لا يعلم قطعًا و لا وصلاً...»[225].**

يوضح كلام الفتح عن سرقسطة مدى تهميش سكان المدينة للعلم و رجاله على عكس المدن الأندلسية الأخرى التي اشتهرت بالعلم و التشجيع عليه، و ربما يرجع ذلك أيضًا، لعدم الاستقرار الذي شهدته المدينة فقد كانت من أهم الثغور.

و في وصف ابن خاقان سرقسطة و سكانها في موضع آخر أثناء ترجمة أبو عمر الباجي فقال عن لسانه: **«و لقي من أهل سرقسطة كل ضاحك بسام، عاضد كالحسام، يرعيه مبّرته و يريه متهللة أسرته...».**[226]

يكمل الوصف الأول لسكان سرقسطة الوصف الثاني لهم فرغم غبائهم و قلة فهمهم إلاّ أنهم أصحاب كرم و ضيافة، و إعتراف بالجميل لكل من يقدم لهم الخير، و هم أيضًا أصحاب سيف و نزال كما و صفناهم في المشهد الأول.

و يصور لنا في موضع آخرً سرقسطة كمدينة ذات طبيعة خلابة فقال: **«نهر سرقسطة...وفاق حسنه الروض الأنضر، و الزوارق قد حفت به، و التفت بجوانبه...»**[227].

وصفه للنهر من أنه جميل تحفه الزوارق و المراكب و كأنه معصم عليه سوار و أعشابه خضراء نضرة، و مياهه صافية تجري كالنسيم بين الأصابع.

مدينة ألمرية: كانت المدينة عاصمة حكم بني صمادح، و تكلم عنها في العديد من مواضع الكتاب فقال: **«...لم يجد الضمام منه على يانع و لا ناضر، لأن أكثره منابت شيح، و مهامه فيح، استغفر الله إلاّ ضفتي نهر بجاية الممتد كالحبل، المستمد من الطل و الوبل، فإنّ في جانبيه كإتساع البشر، ما يفي بانتجاع ورق و لا تبر، فاقتصر هو على صمادحيته البديعة، و قصبته المنيعة، و اشتغل بترميق أساطيله، و تنميق أباطيله»**[228].

فقد كانت المدينة صغيرة مع وجود الأنهار فيها إلاّ أن طبيعتها لم تمنح الاهتمام الكافي من قبل ابن صمادح ملكها، فهو قد اقتصر على بناء و تعمير قصره و ما يجاوره من دور و تعرف بالصمادحية لذلك لقب و نسب لها فسمي «ابن صمادح»، و من أكثر الأعشاب و النبات الموجود فيها كان الشيح، و عادة ينمو الشيح دون جهد و تعب فهو نبات بري و وجوده بكثرة يدل على جدب الأرض و قلة الاهتمام بها من طرف أهلها و هو ما أكدته الفقرة الموجودة بين أيدينا.

و يصف لنا مدى اهتمام المعتصم و كلفه بتجميع الأدباء و الشعراء ليمدحوه، و يذكروا مآثره فيقول الفتح: **«و دخل ألمرية، فلمّا كان يوم العيد، و حضر المعتصم شعراؤه، و اجتمع كتابه ووزراءه...»[229].**

225() – (67) - المصدر نفسه ص 115.

226

227() - المصدر السابق، ص 211.

228() - المصدر نفسه، ص 53.

229() - المصدر نفسه، ص 280.

مدينة شنترين: تعد من المدن الأولى التي سقطت في قبضة الإسبان، و ذكرها ابن خاقان مرة واحدة في الكتاب أثناء سير المتوكل إليها، و كانت من الثغور الكبرى في الأندلس و محل نزاع بينهم و بين الإسبان كما أسلفنا الذكر و عنها يقول واصفًا: **«سايره إلى شنترين قاصية أرض الإسلام السامية الذرى و الأعلام التي لا يروعها صرف و لا يقرعها طرف، لأنها متوعرة المراقي، معفرة للراقي، متمكنة الرواسي و القواعد من ضفه نهر استدار بها استدارة القلب الساعد، قد أطلت على خمائلها أطلال العروس من منصتها، و اقتطعت في الجوّ أكثر من خصبتها»**(230).

تميزت مدينة شنترين بالفعل بجمالها الخلاب و روعتها في العمران و الحدائق التي تزين قصورها، و تنتشر على ضفاف أنهارها الكثيرة و التي تحيط بها العديد منها و الباقي يشقها و يمر في أرض، و مسالك الوصول إليها فيها نوع من الوعورة و هي سمة أكثر المدن الأندلسية.

مدينتي برجة و دلاية: خصتا المدينتان باهتمام و امتلاك المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية الذي لم يهتم بمدينة فيطور من شأنها، و ركز عليها لأنه كان يأوي إليها ساعة طلبة للراحة و اللهو و الترف و لم تذكر في الكتاب إلاّ في موقع واحد و عنها يقول الفتح بن خاقان: **«برجة ودلاية و هما نظران لم يحل في مثلها ناظر، و لم تدع حسنهما الخدود النواضر، غضون تثنيها الرياح، و مياه لها انسراح، وحدائق تهدى الأرج و العرف و منازل تبهج النفس و تمتع الطرف...»**(231).

يستمر الكلام عن المدينتين و ما كان للملك المذكور من نزهات فيها ضاهت غير هامها كانت في قرطبة لدى بني أمية، لهما حسن المناظر التي تغار منها الخدود و مياهها منسرحة عذبة صافية كأنها السلسبيل في الجنة.

لا يزال الكلام عن المدن الأندلسية في الكتاب طويل جدًا، إنمّا نحن اكتفينا بذكر بعض النماذج من المدن المعروفة و التي كان لها شأن، ووصف الكاتب عمرانها و حدائقها و الأنهار الموجودة فيها وغيرها من المناظر و الحصون و القصور، و السمة الغالبة كما رأينا في جميع مدن الأندلس التي تعرضنا لها بالتعريف اهتمام ملوكها ببناء القصور و تزينها بالذهب و الفضة ووضع أعمدة لها من الرخام والمرمر و تسخير الأموال الطائلة لتشييدها و تعميرها بما هو فريد و نادر حتى تكون قصورهم من العجائب.

تشابه المدن في طبيعتها فهي أكثر ما شيدت كانت على مرتفعات صخرية أو جبال أو تلال لاتخاذها كحصون للالتجاء إليها أثناء الخطر و أيضا رغبة منهم في مباراة أهل المشرق و عمرانهم، وكما يبدو جليًا للعيان أن الأندلسيين كانوا أكثر تطورًا و إبداعًا من ناحية العمران و ترف مدنهم يبين لنا مدى التطور الحضاري الذي عرفته البلاد في جميع عصورها و فتراتها.

---

(230) - المصدر السابق، ص 140.

(231) - المصدر نفسه، ص 57.

2- **القصور:** من البديهي أن يوجد في الأندلس العديد من القصور الفاخرة و الفخمة بسبب كبر مدنها و تطورها في جميع الجوانب، و اشتهرت في بلاد الغرب العديد من القصور سنبدأ بذكر بعضها و أول ما نستفتح به قصور قرطبة و ما كان من مآثر بني أمية:

قصر الزهراء: بني قصر الزهراء عبد الرحمن الناصر و أختاره كمدينة ملكه و يعتبر من القصور العظيمة في قرطبة، و لضخامة البناء كان يتصرف في عمالها عشرة آلاف من الرجال و من الدواب ألف و خمسة مئة دابة و كان يصرفها لها من الصخر المنحوت المعدل سنة آلاف صخرة سوى الآجر، وطولها من غربها إلى شرقها 2700 ذراع و عرضها 900 ذراع[232] و في ذكرها يقول ابن خاقان: **«...حضر مع الوزراء و الكتاب بالزهراء في يوم غفل عنه الدهر فلم يرمقه بطرف، و لم يطرقه بصرف، أرخت به المسرات عهدها...و مازالوا ينتقلون من قصر إلى قصر، و يبتذلون الغصون بجني و هصر، و يتنقلون في تلك الغرفات، و يتعاطون الكؤوس في الشرفات، حتى استقروا بالروض...فحلّوا منه في دارنيك ربيع مفومة بالأزهار، مطرزة بالجداول و الأنهار، و الغصون تختال في أدواحها...»[233].**

يظهر لنا القصر و مدى كبره حتى كأنه تحول إلى مدينة تحوي الأنهار و الجداول و الديار لكثرة ما فيه من دور و غرفات تابعة له، و تزيينه في كل شرفة حديقة، و في كل رواق نقوش و رسومات من الجبس و الجص، و الرخام، تتدلى الغصون عليها و تثني حاملة معها أريجها و عطرها الفواح الذي تنشره في جميع ربوع القصر و المدينة.

قصر الزاهرة: ابتنى هذا القصر المنصور أبي عامر لمّا تولى السيطرة على قرطبة أيام هشام المؤيد خوفًا على حياته لأنه لم يعد يأمن المؤمرات التي تحاك ضده في قصر الزهراء، و رغبة منه للتفوق على عمران و فخامة قصر الأمير الأموي، و موقع القصر جاء على تل يقابل الزهراء و يشرف عليها.

قصر الزاهر: عرفنا أن من أكثر ما عرف به أمراء الأندلس هو تقليد بعضهم في العمران بني عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء و قلده فيه المنصور بن أبي عامر، جاء المعتمد و قلدهما في مدينة إشبيلية و بني حصنًا كبيرًا يشرف على حدائق و بساتين تزخر بجميع الخيرات، و أنواع الأشجار يصفه لنا ابن خاقان فيقول: **«الحصن الزاهر من أجمل المواضيع لديه و أبهاها، و أحبّها إليه و أشهاها، لإطلاله على النهر، و إشرافه على القصر و جماله في العيون، و اشتما له بالشجر و الزيتون، و كان له به من الطرب، و العيش المزري بحلاوة الضرب، ما لم يكن بحلب لبني حمدان، و كان كثيرًا ما يدير به راحة...»[234].**

---

[232] - ينظر: المقري، نفح الطيب، مج 1 ص 526، شكيب أرسلان، الحلل السندسية مج 1، ص 197.

[233] - ابن خاقان، القلائد، ص 11.

[234] - المصدر السابق، ص 27.

جعل جميع حكام الأندلس يبنون لأنفسهم قصورًا يلجؤون لها و يطلبون فيها راحتهم و يديرون فيها مدامهم متناسين همهم و أعباء الحكم القاسية، و القصر الزاهر يتمتع بموقعه العالي كما أشرنا في سمات المدن الأندلسية، تحيط به أشجار الزيتون، و يطل على النهر و بالوقوف في شرفته يظهر القصر – مجلس الحكم – و يسمى بالقصر الزاهي.

قصر الزاهي: يقابل قصر الزاهي قصر أو حصن الزاهر و كلاهما يعودان للمعتمد بن عباد فكثيرًا ما يحب الجلوس في أحدهما ليطل على الآخر من أجل إحاطته بكل شيء و هو ما اشتاق له أكثر أثناء وجوده أسيرًا بأغمات و يقول عنهما في إحدى قصائده[235].

فَيَالَيْتَ شِعْرِي هَل أبيتَنَّ ليلـــــة أَمَامِي وَ خَلْفِي رَوضَةٌ وَ غَدِيْـــرُ
بِمَنبتة الزَيتُونِ مَوْرِثُه العُــــلاَ يُغَنِيَّ حَمَامٌ أولدّنّ طيــــورُ
بِزَاهِرِهَا السَّامِي الذُرى جَادَهُ الحَيَـا تُشِيْرُ الثُرَّيَا نَحْونَا وَ نُشِيـــرُ
وَ يَلحَظُنَا الزاهي وَ سَعْدُ سُعُـــودَه غَيُورِيْنَ و الصَّبُ المُحِبُ غَيُـــورُ

و حسبما وصفه المعتمد أن القصران متقابلان و يشرفان على بعضهما في روعة و شموخ و هو كالطائر بينهما يطير و يحط في أي منهما.

قصر الرصافة: ذكر القصر في موضعين من الكتاب أحدهما عندما تكلم عن وصف مدينة قرطبة و ثانيهما عندما تذكر ابن زيدون صباه و أيام لهوه في قرطبة و قصورها و بساتينها، فقال: **«تذكر عهد عيشه الرقيق، و مراحه بين الرصافة و العقيق...و استهدي نسيم عيش طاب له هبوبه...»[236].**

يعد من أول القصور التي بناها عبد الرحمان بن معاوية في أول أيامه في الأندلس لنزهتة و سكنه أكثر أوقاته، و يوجد القصر في الشمال الغربي من مدينة قرطبة و يقاربها أيضًا دير الرصافة و هو منتزه ينتمي لقصر الرصافة.

قصر الدمشق: يعد رابع أشهر قصور قرطبة بعد الزاهرة و الزهراء و الرصافة و إبتناه بنواميه كما بنوا الرصافة محاكين به قصورهم في المشرق و يصفه الفتح بن خاقان أنه: **«الدمشق بقرطبة و هو قصر شيده بنوا أميه بالصفاح و العمد، و جروا فيه إتقانه إلى غاية أمد، و أبدع بناؤه، و نمقت ساحته و فناؤه، فاتخذوه ميدان مراحهم، و مضمار انشراحهم، و حكوا به قصرهم بالمشرق، و أطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق»[237].**

فقد حدد موقع وجوده و من بناه ثم وصف عمرانه بدقة، فهو مشيد الصفاح و الأعمدة و تميز بدقة الصنعة فيه و نقوشه النادرة، فأبدعوا فيه أيّما إبداع، كما نمقت ساحته و فناؤه بنفس الدقة التي كانت داخل القصر.

---

(235) - المصدر نفسه، ص 27.
(236) - المصدر نفسه، ص 87.
(237) - المصدر السابق، ص 94.

قصر الشراجيب: بعد الفراغ من قصور قرطبة الكثيرة و المشهورة جميعًا نعود إلى قصور اشتهرت بها مدينة شلب إحدى المدن التي تعرفنا عليها من خلال الكتاب، و أشهر قصورها، قصر الشراجيب و عنه يقول المؤلف: **«قصر الشراجيب هذا متناه في البهاء و الإشراف، مباه لزوراء العراق، ركضت فيه جياد رحاته، و أومضت بروق أمانيه في ساحاته، و جرى الدهر مطيعًا بين بكوره و روحاته أيام لم تحل عنه تمائمه و لا حلت من أزاهر الشباب كمائمه، و كان يعتدها مجنى أماله و منتهى أعماله...و التفاف خمائلها، و تقلدها بنهرها مكان حمائلها»**[238].

جاء موقع الشراجيب متناهي البهاء و الإشراف يضاهي في جماله و أناقته قصر الزوراء في العراق و هو من أشهر قصور بني العباس، التفت به الخمائل تحوي أنواع الأزاهير و الرياحين و يمرّ بها نهرها الذي يقلدها و كأنه قلادة في جيد حسناء، و نكون بقصر الشراجيب قد أتينا على ذكر و التعريف بأشهر القصور الموجودة في الأندلس و قام المؤلف بوصف و نقل ما كان من خبرها بالتفصيل، و لا يعني هذا أنها القصور الوحيدة الموجودة، إنمّا يوجد ذكر لبعض القصور الأخرى دون أن يصفها أو يعرفها أو يتكلم عن حالها بعد اندثارها و لذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعضها كقصر البستان، و قصر الفارسي، و القصر المبارك، و قصر مربيطر.

3- **المنتزهات و مجالس اللهو:** يقودنا الحديث عن المدن الكبرى و قصورها الفخمة و المطرفة إلى الحديث عمّا كان فيها من أحوال ساكنيها، و أكثر ما وصلنا من خبرهم كان عن مجالس لهولهم أثناء جلوسهم للراحة أو لتداول الشعر في الحدائق و المنتزهات و العلاقة و ثيقة بين المنتزه و الخمرة، لأنها عندما تدور في رأس شاربها تجعله يخرج و يتأثر بكل ما في المحيط الدائر به و من أكثر المجالس شهرة سنذكر بعض مجالس بني عباد و آخرون لنرى ما تخفيه من جمال.

جاء في ذكر إحدى مجالس المعتمد بن عباد في الليل و هو يجلس في قصره و حوله ندماؤه الذين اختارهم من شعراء و أدباء و مغنين و جواري فيقول عنه الفتح واصفًا المجلس أنه: **«في ليلة قد ثنى السرور منامها، و امتطى الحبور غاربها و سنامها، وراع الأنس فؤادها، و ستر بياض الأماني سوادها و غازل نسيم الروض زوارها، و نور السرج قد قلص أذيالها و محى من لجين الأرض نبالها، و المجلس مكتس بالمعالي و صوت المثاني و المثالث عالي، و البدر قد اكتمل والتحف بضوئه و القصر و اشتمل و تزين بسناه و تجمل فقال:**

وَ لَقَد شَرِبتُ الرَّاحَ يَسْطَعُ نُورُهـــا   و اللَّيْلُ قد مَدَّ الظَّــــلاَمَ رِدَاءَ
حـتَّى تبدَّى البَدْرُ فِي جَوزَائِـــــهِ   مَلِكًا تَنَاهَى بَهْجَةً و بَهَـــاءَ »[239]

قام الفتح بوصف المجلس بدقة فهم جالسون بالليل يشربون و يتسامرون لا يقلق راحتهم شيء و الأغصان تتمايل حولهم و كأنها ترقص على أنغام الموسيقى التي يحملها النسيم من كل الجهات وتغنيها أجل الجواري و أحلاها، و لما تبدى البدر في

---

(238) - المصدر نفسه، ص 36.
(239) - المصدر السابق، ص 06.

سمائه و كأنه وشاح توشح القصر به فزينه ضوءه فظهر كأنه حورية من حواري الجنة، و لما هزه الطرب و انتشى بالكأس التي يديرها الغلمان بينهم، قام و قال الشعر يصف فيها طلوع البدر في جوزائه، و نوره كأنه ملك في عرشه، و الليل رداء يرتديه القمر و يمشي في خيلاء، و هو سعيد يزهو بما لديه.

و يصف لنا الفتح في موضع آخر مجلسا للأمير في قصره أثناء الليل فقال: **«في ليلة قد ألبسه البدر رداءه، وأوقد فيها أضوائه و هو على البحرة الكبرى، و النجوم قد انعكست فيها تخالها زهرًا و قابلتها المجرة فسالت عليها فيها نهرًا و قد ارحب نوافح الند، و ماست معاطف الرند، وحسد النسيم الروضى فوشى بأسراره، و أفشي أحاديث آسه و عراره، ومشي مختالا بين لبات النور و أزراره، و هو وجم و دمعه منسجم »**[240].

يضفى الليل على الأشياء دائما لمسة حنين و شوق، و البحث عن أنيس خاصة للذي يكون وحده كما في الأنموذج فقد شعر المعتمد بحسرة و وحشة كبيرة دفعته للبكاء و التحسر على ما هو فيه، صحيح انه ملك و في يده مفاتيح كل شيء إلا أنه يبقى إنسان، و الإنسان يحتاج دائمًا أخاه، فلا يمكنه العيش بمعزل عنه فهو يحتاج حبهم و رعايتهم و رفقتهم، فمنظر النجوم المنعكسة على البحرة أمامه والأضواء التي يبعثها القمر من السماء تجعلها و كأنها نهر من السماء يصب في تلك البحرة و سكون الليل يوقظ جميع هواجس الإنسان.

و يذهب بنا البحث عن المجالس و الرياض من الليل إلى النهار، و ها هو الوزير أبو عامر ابن سنون يصف لنا مجلسا في قوله: **«أنه أصبح يوما و الجو سماكي العوارف، لا زوردي المطارف، والروض أنيقة لباته، رقيقة هباته و النور مبتل، و النسيم معتل، و معه قومه، وقد راقهم يومه، وصلاته تصافح معتفيهم، مبراته تشافه موافيهم، و الراح تشعشع و ماء الأمان يتسع»**[241].

فقد نقل لنا الفتح المجلس بتفاصيله، و كأننا نراه و الجو صافي و السماء زرقاء و ألوان الغيوم تمتزج مع اللون الأزرق، و الروض كالمرأة الحسناء التي تتزين بأحسن أثوابها، نسيم يهب هبوبا ناعمًا وكأنه يغازل الخدود، و يحنو عليها في لطف و يجالسه في هاته الرياض أحباؤه، و أصدقاؤه و هم مسرورون بيومهم الجميل و الموائد مزينة بأنواع الخمور المختلفة، و يلمع سماء ضوئها، و كأنه مقتبس من نور الشمس، فينتشون و يفرحون بيومهم و أنسهم، متناسين ما قد يحل بهم من مصائب الدهر وعواقبه التي لا يأمنها أحد مهما كان ملكا أو إنسانا بسيطا؛ لأن الأيام يداولها الله بين الناس فمن سره زمن و فرح فيه، ساءته أزمان و قست عليه و أجرت مدامعه إلا أن الخمرة فعلت فعلتها و محت كل ذلك من رؤوسهم، و بقيت و حدها تدور عليهم في أيدي قيان حسان المنظر و غلمان و كأنهم نساء في خدورهن.

---

(240) ـ المصدر السابق، ص 09.

(241) ـ المصدر نفسه، ص 77.

و يحيلنا لمجلس آخر عقده ابن لبون و روى عنه الوزير أبو عامر بن الطويل، و كانوا في قصر مربيطر يشرفون على البطحاء المرتدية لزخرفها و دبّج الغمام مطرفها، و فيها الحدائق يرنو ياسمينها، وتنشر أريجها، و أزهار الجلنار قد ارتدت حللا حمراء و كأنه الدماء، و سلبت أفئدة الندماء، و الخمر تأتي و تذهب و المرح يضم الجميع، و يعطيهم الحرية و الطلاقة فقال:[242]

قُم يا نَدِيمُ أدِرِ عَلَيَّ القَرقَفَـــا   أو مَا تَرَى زَهرَى الرِيَاض مُفَوَمَــا

فَتَخَال محبوبًا مدلاً وَردَهَــــا   وَ تَظُنُ نَرجَسَهَا مُحِبًا مُدنِفَــــا

و الجُلنَارُ دِمَاءُ قتلىَ مُعَــــرِّك   وَاليَاسَمِينُ حُبَابُ مَاءٍ قد طفَـــا

وصف الشاعر ابن لبون بمرهف الحس و جمال ذوقه الرياض، و الزهر، و هي متفتحة أمامه تبعث فيه الزهو و الحبور في نفسه، فاستهب صاحبه و نديمه بأن يسقيه الكأس متخيلا الزهرة و هي تجيء و تروح بسبب هبوب النسيم كمحبوب مدلل يرد تلك الخمرة لمن يحب، و النرجس في بياضه وأناقته و كأنه المحبوب الذي يود البقاء عند نديمه و لا يتركه أبدًا، أما الجلنار فقد أتخذ موقف الحرب مقتبسًا من لونه و سطوع بريقه، و الياسمين كأنه حبات ماء و ندى تقطر على خدها و تزينها و كأنها درر و لؤلؤ استخرج من بحره إليها دون أن تمسه يد البشر و تعبث به.

و نأخذ أنموذجا آخر للشاعر ابن عمار و هو يعاقر الخمر فقال عنه: «عكث على راحه معاقرا و عطف بها على جيش الوحشة عاقرًا و يقول ابن عمار:

نقمتم عليّ الراح أدمِنُ شربهـــا   و قلتم فتى لهو و ليس فتى جِـــدٍ

و من ذا الذي قاد الجياد إلى الوغـــى   سواي و من أعطى الكثير و لم يكد»[243]

يفتخر ابن عمار بشربه للخمر في ساعات لهوه لكن ذلك لا يمنعه من الدفاع عن وطنه و أرضه، إذا اقتضى الحال و استوجب الأمر منه ذلك، و الخمر تكون للأنس و لوقت الفراغ و لا يجب على حد تعبيره الخلط بين الجد و الهزل في الأفعال، و إلا كانت العواقب و خيمة. غير أن ابن عمار لم يكن في مستوى النصيحة التي قدمها فلا احترم ذمة و لا عهدا، فقد خان الرجل الذي استأمنه على ملكه، فقتل بسبب تهوره، و هي الحال لكل من سلك ذات السبيل.

4- تكريم العلماء: لا يمكن أن نتكلم عن السمة الحضارية في أية أمة، و لا نعرض لمدى اهتمامها و تكريمها لعلمائها و العناية بهم، و توفيرها للشروط الملائمة لتقديم الإنتاج الفكري من طرفهم، و تطور الأندلس في جميع جوانبها جعلها تهتم بتكريم علمائها و أدبائها، و إعطائهم المكانة المرموقة التي يستحقونها، و من الأمثلة على عناية الأندلسيين بعلمائهم، سواءً من طرف الملوك أو العامة ما سنعرضه من نماذج:

---

(242) - المصدر السابق ، ص 95.

(243) - المصدر نفسه ، ص 95.

قام المعتمد بن عباد بتكريم العلماء و الأدباء في بلاطه، و منحهم مناصب الوزارة و قيادة الجيش و الرئاسة، حبًا فيهم و قدوة بما منحوه من علم لأهلهم و ذويهم، فهم نجوم زاهرة تنير دروب المجتمع، فلما وقف بين يديه الوزير القائد أبو الحسن بن اليسع و في نفسه خيفة و ارتباك و لما طلب منه المعتمد قول الشعر، وصف له في أبيات فتاة يحبها و قد خلفها وراءه و عند وداعه لها قال:

وَ لمّا إلتَقينا لِلْوَدَاع غُدَيَّـــــةً　　　وَ قد خَفقَت في سَاحَةِ القَصرِ رَايَــاتُ

بـكَينَا دَمًا حَتّى كَأنَ عُيُونُنَـــــا　　　بجريِّ الدُمُوع الحُمرِ مِنْهَا جِرَاحَـاتُ[244]

فأعجب المعتمد بقوله، و حسن و صفه لما ألمه من هاجس الحب و الغرام، معترفًا بصراحة و دون خجل، فأكرمه بمنحه مبلغًا قدره 500 دينار ثم ولاه مدينة لورقة أميرًا عليها و متحكمًا في أمرها.

و لم يتوقف المعتمد في تكريمه للعلماء على منحهم الجوائز المالية و الإمارات كما ذكرنا الوزير أبا الحسن و ابن عمار الذي أسلفنا ذكره عندما منحه حكم مدينة تدمير و أميرًا عليها يراعي شؤونها بالعدل بل تجاوزه إلى الدفاع عن أصحاب العلم و الأدباء في بلاطه، كابن زيدون.

توفي المعتضد و تولى الحكم المعتمد ابنه و كان دائمًا ينصحه بأن لا يجلس أحدا قرب عرشه، و الجميع يجب أن يكونوا تحته، و العواذل سئموا من حظوة ابن زيدون لدى المعتمد فأرسلوا له دسيسة يثيرونه عليه فقالوا:[245]

أيُّهَا المَلِكُ العَلِيُ الأَعظَـــــمُ　　　اقطَع وَرِيدي كُلّ بَاغٍ يَنِـــمُ

وَ احسِمِ بسَيفِكَ دَاءَ كُلَّ مُنَافِـــقٍ　　　يُبدِي الجَميلَ وَ ضِدَّ ذَلِكَ يَكْتُـــمُ

وَاذكر صَنِيعَ أَبيكَ أَولَ مَـــــرَةٍ　　　في كُلِّ مُتَّهمٍ فإنَّكَ تعلـــــم

لم يركن المعتمد لما قاله هؤلاء، و لم يدع فرصة لابن زيدون حتى يشعر بالذل و انقلاب الحال إنما رد عليهم ردًا جميلاً، و أدبيا على نفس مستوى الرسالة التي وصلته منهم فقال:[246]

كَذَبَت مُنَاكُمُ صَرِّحُوا أو جَمْجِمُــوا　　　الدِّين أَمْتَنُ وَ السَجِيَةُ أكْـــرَمُ

إنِّي رَجَوتُم غَدرَ من جَرَّبْتُـــــم　　　مِنهُ الوَفَاءَ وَ ظُلمَ مَن لاَ يَظْلِـــمُ

كُفُوا و إلاَّ فَارقبوا لِي بَطشَـــــةً　　　يُلقَى السَّفيه بمِثلِهَا فَيُحلَّـــمُ

اتصف المعتمد حقا بأخلاق الملوك فهو لا يسمع إلى الدسائس و لا يركن لها طرفة عين، كما أنه لا يغفر لهم الفتنة التي ينشرونها في صلب الدولة، فتكثر المشاكل

---

(244) - المصدر السابق، ص 34.

(245) - المصدر نفسه، ص 16.

(246) - المصدر نفسه، ص 17.

و لا يظلم لديه أحد، و لا يضيع عنده حق، فقد امتاز بحسن الإصغاء و الحلم، فلا يغضب لأي شيء يسمعه حتى يتحققه.

تنفس ابن زيدون الصعداء عندما وصله الرد على هؤلاء فقام بكتابة قصيدة يمدحه فيها و يعرضّ بهم; لأنه تأكد من سلامة مكانته و صحة علاقته مع الملك فقال: (247)

عِطر هُوَ المِسكُ السَّطيع يَطيــبُ في شَمِّ العُقُول أرِيجُهُ المُتَنَسِـــــمُ
فإذا غُصُونُ المُكرَمَاتِ تَهَدَلَـــت كَانَ الهَدِيلُ ثَنَاءَهَا المُتَرَنِـــــمُ
الفَخْرُ عَن حَياضِكَ بَاسِـــمٌ وَ المَجُد بُردُ مِن وَفَائِكَ مُعَلَـــمُ
فَأسلَم مَدَى الدُنيَا فَأنْتَ جَمَالُهـــا و تسوّغ النَّعمَى فَإنَكَ مُنَعَـــمُ

جعل منه مسكا يلمع لصفائه و طيبة ريحه العليل حتى أن شمه يكون في العقول نسيمه مشبها هنا حلمه و رجاحة عقله و تريثه في القيام بالأمور دون عجل، و كأنه لا يفتخر به مبالغة بل يذكر الحقيقة الموجودة و البادية للأعين و لا يمكن طمسها و إخفاؤها فالجميع يعرفها، فقد ارتدى برد الملوك و المجد، فسما فوق كل شيء و بقي الجميع تحت عرشه.

فلم تقل حفاوة ابن زيدون بملكه عن حفاوة الملك بأحد رجاله المقربين، و نصرته و الوقوف إلى جانبه، فبالعلم تسمو الأمم و تزدهر، و من لا علماء له، فلا ذكر له و لا اسم تدعوه الدنيا به.

يذكر المؤلف قصة للمعتصم بن صمادح مع النحلي عندما قدم ألمرية، و عليه أسمال بالية و حاله يرثى لها، فساءه ما رآه بخاصة و الناس ترتدى البياض في يوم عيدها، إلا هو على هاته الهيئة فكتب إلى المعتصم يشكوه الحال :(248)

أيَا مَن لاَ يُضَافُ إليهِ ثـــــاني وَ مَن وَرِثَ العُلَى بَابًا فَبَابَـــــا
أيَجمَلَ أن تَكُونَ سَوادَ عَينــــي وَأبصِرُ دُونَ مَا أبْغِي حِجَابًـــــا
و َ يَمشي النَّاسُ كُلُّهمُ حَمَامًـــــا وَ أمْشِي بَينَهُم وَحدِي غُرَابًـــــا

فقد شكى له سوء حاله و غربته بين الناس و كيف يرتدون البياض، و هو وحده يرتدي السواد كأنه غراب في وسط سرب من الحمائم فلم يردّه خائبًا، و أرسل له حلة يرتديها بين الناس ليكون مثلهم و كتب معها:

وَرَدتَّ وَ لِليَّل البَهِيمُ مَطَـــارِفُ عَليكِ وَ هَذِي لِلصَبَاحِ بُـــرُودُ
و َ أنت لَدَينَا مَا بَقِيتُ مُقَـــرَّبَ وَ عَيشُكَ سَلسَل الحِمَامِ بُـــرُودٌ

وأخبره و أنه لديه مكين متى بقي في مدينة حكم المعتصم و في ظله لا ينقصه شيء من مال أو لباس أو سكن أو غيرها من أمور الحياة، رادًا له اعتباره و موفرًا له جميع شروط العمل الفكري والأدبي الحقيقي لأن؛ الإنسان لا يستطيع أن يبدع ما لم تكن ظروفه مناسبةً.

---

(247) - المصدر السابق، ص 18.
(248) - المصدر نفسه، ص 54.

و يحملنا نموذج آخر في نهاية القرن الخامس الهجري كان بطله أبا يحي بن محمد بن الحاج(*) و ذو الوزارتين الكاتب أبو عبد الله بن أبي الخصال، فقد كان خامل الذكر و ليس من الشعراء و الأدباء المعروفين إلى أن جاءت الفتنة عند نهاية الدولة العبادية و قيام المرابطين في الأندلس . و صراعهم فيما بينهم، فقربه أبو يحي منه و جعلهم لسان بلاغه و كاتب بلاغه و كاتب ديوانه، و في يوم أرسل لهم خليفة المسلمين ابن تاشفين رسالة روعتهم و أيقظتهم من اللهو الذي كانوا فيه و أستحضره من بيته وطلب منه أن يعارض الكتاب و يرد عليه بلغة فصيحة و بيان، فقام و كتب ردًا استحسنه حتى أمير المسلمين، فرد لهم مطمئنا من روعتهم، لذلك قربه أبو يحي و جعله وزيرًا ثم أصبح فيما بعد صاحب الوزارتين و في الوالي يقول الفتح: **«فحمل أبا يحي على استحسان ما كتبه، أن خططته للحين و لقبه و المدام لرأيه البائل مالكه فلم يعمل فكرًا، فجرت عليه لقبا، و أعلته من الاشتهار مرقبا، و صار مرتسما في العلية متسما بتلى الحلية، و مازالت الدولة تستدنيه »**[249]

تذهب الأيام و تأتي بالناس من كان خاملا مجهولا أصبح أشهر من نار على علم، فالأمير لم يعد يتركه وراءه فدائما يستدنيه و يقربه و يأخذه معه في ترحاله و استقراره، و أبو الخصال كذلك استغل الفرصة و حافظ على ما وصل إليه على أن لا ينزل أقل منها بل يصعد أكثر فأكثر.

يظهر لنا من خلال الكتاب وجه آخر للأمراء و الملوك في تشجيع أدبائهم، فيقومون إليهم بالترحاب و الاستقبال إما على أبواب القصور إذا كانوا سكانا في المدينة أو يخرج إليها إذا كان على مشارفها إذا قدموا من سفر طويل أو من قطر آخر، من ذلك ما قام به الأمير المرابطي ناصر الدولة (*) عندما علم بقدوم أبي بكر الداني المعروف بابن اللبانة ، فتلقاه بمعهود إجماله و في حاشية و كأنه يستقبل أميرًا أو ملكا فتأثر الأديب بالموقف فقال :[250]

حُنيت جَوانحه على جمر الغضـــا لمّا رأى برقًا أضاء بذي الأضـــا
و البَحرُ يَسكُنُ خِيفَةٍ مِن نَاصِـــر أرضَى الرِيَاسَةِ بَعدَ مَوتِ المُرتَضَـــى
مـَلِكٌ سَمت علياه حتى دوّحـــت وَزَكَا ثرى نُعَماهُ حَتَّى رَوضَـــا

فيخبرنا بأن الناصر المرابطي ملك استحق الشكر و الحمد لفعاله الطاهر الزكية محتفظا له بجميل صنيعه، و حكمة تدبيره فكأن البحر يهابه فيسكن خيفة منه، و هو الذي ورث رياسة عن الملك المرتضى و عرف بصرامته في القيادة، و تدبير شؤون الحكم، فلا يرجع لدسيسة و لا إلى غيبة حتى يتيقن الأمر فيصر حكمه العادل حتى قتل لذات سبب.

---

[249](*) - يحي بن علي بن حكم بمالقة و ثار ضد عمه فدخل قرطبة و لقب بالمعتلي سنة 413 هـ (الحميدي، الجذوة، ص 23).
() - ابن خاقان، قلائد العقيان، ص 200.
[250]() - المصدر السابق ص 284.
(*) - ناصر الدولة: علي بن حمود تولى الحكم بعد المرتضى و توتي سنة 408 هـ (الحميدي، الجذوة، ص 22).

جعلت كل هذه الانفعالية الموجودة في الكتاب المؤلف يدور في دائرة مفرغة، فلا يستطيع تحديد ما يريد بالضبط، فلا أصدقاؤه أعانوه على تجاوز الصدمات النفسية التي يعيشها و لاهم تركوه في حاله، فلربما شعر بالاستقرار، إنما جاء الزمان و الحرمان يضيقان عليه الخناق فثارت ثائرته، و حاول البحث عن مخارج أخرى فلم يجد من يسانده، و يأخذ بيده، فنقم على الجميع و حاول الأخذ بثأره ممن أذاه وتخلى عنه، و هو في أمس الحاجة ووجدنا منهم صديقه ابن باجة الملقب بأبي بكر الصائغ و الذي جعله في كتابه إنسانًا سيئًا لا يملك من العلم إلا القليل و لا من صفات العلم إلا أبسطها و أهونها و بعدما عادت له راحته التي كان ينشدها، و بحث عنها كثيرًا، تدارك الأمر و اعتذر لابن باجة و كتب عنه ما ناله حقًا من مكانة علمية و فكرية في عالم الأدب و الفلسفة في كتابه مطمح الأنفس و هو ما نقله لنا ياقوت الحموي عنه في كتابه معجم الأباء: **«الوزير أبو بكر الصائغ هو بدر فهم ساطع، و برهان علم لكل حجة قاطع، تفرحت بعطره الأعصار، و تطيب بذكره الأمصار، و قام به وزن المعارف واعتدل دولة أدب يود عطارد أن يلتحفه و مذهب يتمنّى أن يعرفه...»**[251]

صدر كتابه الثاني المذيل للقلائد بترجمة أبي بكر الصائغ، كعربون صلح بينهما، عوضًا عما قاله العديد من الدارسين الذين يرون أن الفتح إنّما تهجم على ابن باجة بهاته الطريقة الشرسة لعدم رد هذا الأخير على الرسالة التي بعثها له، و لم يكرمه لذا كتب عنه كل ذلك، نعود و نقول أن المؤلف ثار على صديقه لإهمال رسالته بالفعل، بسبب أن الأصدقاء يتوادون فيما بينهم، و عندما يهمل أحدهم الآخر يتأثر نفسياً، و يشعر بالقلق، و الاضطراب، فكلما كانت العلاقة أوكد كان الاستقرار أوجب لتستمر.

و ما يؤكد صحة رأيه عندما تحدث عن الأديب أبي محمد بن سارة الشنتريني إنمّا نقل ما كان حقيقيًا من أمره، فكان شاعرًا يقتات على شعر غيره و يبني عنهم الكثير من أقواله.

كما تكلم عن الأندلس و عرض مآثرها، و مفاخر عمرانها بالتفصيل، من قصور أنشأها الحكام، إمّا ليجلسوا فيها لحكمهم، أو يأوون لها أثناء طلبهم للراحة و الأنس و الترف واصفًا إياها بكل الموضوعية التي يكتب بها الناقد، و مضيقًا عليها من عاطفته ما يبرزه، و إعجابه بما في قطره من أدب وأدباء، و عمران مدهش كمسجد قرطبة أو قصور الزاهرة، و الزهراء، و الشراجيب و غيرها، و الذي يتكلم بكل هاته الأمانة في النقل العلمي، لا يمكن أن نقول عنه أنه مجرد عربيد لديه، لكن يجب أن نعطي لكل ذي حق حقه، فحياته الاجتماعية لا تعنينا بقدر ما يعنينا إنتاجه الأدبي على الرغم من ارتباط الجانب الاجتماعي للحياة بالجانب الأدبي إلاّ أن حياته الأدبية و الفكرية كانت في جميع مستوياتها أحسن، و أجود و هو المهم.

---

(251) - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مج 6، ص 140-141.

خاتمـــة

الخاتمـــة:

نـصل في خلاصة بحثنا المتعلق بفن الترجمة في الأندلس بين القرنين الرابع و الخامس الهجريين إلى مجموعة من النتائج استقيناها من عمق الفصول المخصصة لدراسة الظاهرة، و تناولها من جميع جوانبها أينّ كانت، فهي متعددة و مختلفة بعضها شكلي و يتعلق بالبناء و المنهجية في الكتابة، و التدوين، وبعضها الآخر يتعلقة بالجانب الفني، و مضمون المدونات الأندلسية، و جانب آخر يعد مهما، و متعلقا بدرجة كبيرة بالظاهرة وهو الجانب التاريخي و سنحاول تعداد جل النتائج التي استطعنا الوصول لها، و حصرها من خلال رؤية شاملة على البحث، ويمكن اجمال هذه النتائج في:

1. أن جل الأمم القديمة قد اهتمت بتدوين تاريخها، و مآثرها، و ثوابت شخصيتها، مهما كانت صفة الثوابت الموجودة، سواء كانت حروبا أو علماء، أو ملوكا، أو فلاسفة، أو أطباء، المهم التركيز على ذكرهم، و ذكر الجوانب المشرقة من حياتهم التي استطاعت بفضلها الوصول لمصاف الطبقات العليا من المجتمعات، و اكتسبت من خلالها الاهتمام و الفاعلية، وأصبحت منبع قدوة، و قوة لمن أراد انتهاج ذات السبيل، و الوصول لذات النتائج، أو أكبر منها.
2. تمكنا من الوصول إلى وضع حدّ للاشتباك و التداخل الموجود في المصطلحات المتعددة والمتشابهة في البحث من خلال فصل فن الترجمة عن فن السيرة، اللتان اعتبرتا فنا واحدا لوقت طويل من الزمن حتى قبل ظهور مصطلح الترجمة الذي عدّ جديدا في تلك الفترة، فقد ظهر كما ذكرنا سابقا في القرن السادس الهجري في كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، أول مرة، ضف إلى ذلك الاشتباك بينهما و بين مصطلح التاريخ، لاعتبار العديد من الدارسين أن الترجمة و السيرة فن واحد ينضوي تحت لواء التاريخ، و عنصرا مهما من عناصره، و الحقيقة غير ذلك، فالترجمة فن مستقل بذاته عن فن السيرة، و عن التاريخ كعلم يمتاز كل منهم بميزة تجعله يختلف عن غيره، و تفرق بينهم جميعا فكل في مجال تخصصه و اهتمامه.
3. انتشر فن الترجمة في المشرق بكثرة بدرجة كبيرة فعدّ ظاهرة لذات السبب، فاهتمام المشارقة بتدوين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أوصلهم لتدوين سيرة الصحابة و التابعين، و العلماء، و توسعت فيما بعد لتشمل تدوين التاريخ، والتخصص في فن الترجمة، فكتبوا العديد من المدونات، و كتب التراجم نذكر منها كتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموي، و كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبي، و كتاب « الطبقات الكبري » لابن سعد، و كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان، و أكثر كتب التراجم المشرقية التي تكلمنا عنها في البحث تعرضت لترجمة بعض الأدباء الأندلسيين بخاصة منها كتاب يتيمة الدهر، والذي خصص لهم فيه فصلا كاملا من الكتاب.
4. سارت حركة الاهتمام بكتابة التاريخ، و تدوين تراجم الأعلام و الشخصيات، و الأدباء في المغرب العربي بنفس الوتيرة و كان دافعهم دائما نفسه، إن في المشرق أو الأندلس أو المغرب، و أكثر ما دون في كتب التراجم بالمغرب خص القضاة و

الأدباء، بسبب إكبار سكان المنطقة للعلماء و رجال الدين، و تقديم ذوي السلطة للأدباء، و اختيارهم لقضاة بلادهم بدقة، و من الكتب المشهورة في فن الترجمة كتاب « أنموذج الزمان في شعراء القيروان » لابن رشيق المسيلي، و كتاب « البيان المغرب» لابن سعيد و كتاب « ترتيب المدارك و تسهيل المسالك» للقاضي عياض، و كتاب « زهر الآداب و ثمر الألباب » لأبي إسحاق الحصري، و بطبيعة الحال فرض التقارب في المنطقة الجغرافية، و التيارات الفكرية المتشابهة في بر الأندلس و المغرب على أصحاب المدونات ذكر الأندلسيين في مدوناتهم، ومنهم كتاب البيان المغرب.

5. شهد نشوء و تطور فن كتابة الترجمة بالأندلس مرحلتين مهمتين جدا بداء من الإرهاصات الأولى حيث ظهرت التراجم على شكل فهرسات للشيوخ، أو عناصر من كتب التاريخ العامة المشتملة على جميع المواضيع، و لتصل بعدها لمرحلة النضج و التطور، فأصبحت كتب التراجم تحمل موضوعات خاصة من كتب لتراجم القضاة، و كتب للفقهاء، وكتب للمحدثين، و كتب لأدباء و غيرهم، فاشتهر الكثير من العلماء في هذا الفن، و اشتهرت كتبهم منها: كتاب « تاريخ علماء الأندلس» لأبن الفرضي، و كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة »، و كتاب « المقتبس »لابن حيان القرطبي و غيرها من الكتب.

6. امتازت كتب التراجم في الأندلس بإتباعها لمجموعة من المناهج تنوعت، و اختلفت من كتاب لآخر حسب ما تفرضه بيئة و شخصية المؤلف، فنجد منها ما هو حسب الأقاليم، أو حسب حروف الهجاء، أو حسب الوفيات، مما ساعد على البحث، و الأخذ من كتبهم بطريقة حفظت لنا أكثر من فصل في كتاب آخر من الكتب الضائعة أمثال كتاب «الحدائق » لابن فرج الجياني و الذي اقتبس منه ابن بسام و ياقوت و غيرهم من الأدباء.

7. اخترنا كتاب جذوة المقتبس للحميدي كأنموذج في الفصل التطبيقي الأول رغبة منا في إبراز مميزات فن كتابة الترجمة في الأندلس، و مدى ما وصلت إليه من نضج في مستوى البناء الفني من اختيار للمقاطع الشعرية و إبداء الرأي فيها، و من جهة أخرى بناء الكتاب على منهج واضح، و فعال استطاع إعطاء صورة جلية عن مقصد المؤلف، و التركيز على حب الأندلسيين لبلادهم و الدفاع عنها، فوضعوا كتبهم لأجل حفظ تاريخها، و التعريف بما لديهم من كنوز مغمورة، و مآثر لم تصل لمن يبحث عنها.

8. لما انتهى المؤلف من وضع كتابه، وطرحه في المجالس العلمية في بغداد، اشتهر كثيرا، و أخذ عنه الكثير، و اعتبره العديد من المؤرخين، و العلماء المشارقة البوابة الفعلية التي عرفتهم بما يوجد في بلاد الأندلس البعيدة عنهم كثيرا و لا يعرفون عنها إلا القليل، و حتى ما عرفوه لا يعدو تقليدا لهم، فكان كتابه الخطوة الأولي في مجال البحث و الرحلة الفعلية للأندلس، و انتقال العلم منها إليهم –

المشارقة – فعرفوا فيما بعد العديد من العلوم التي استحدثها الأندلسيون، و خاضوا فيها على غرارهم إلاّ أنهم لم يستطيعوا مجاراتهم فيها.

9. أثرت كتب التراجم الأندلسية كثيرا في كتابات المشارقة، و أخذوا عنها الكثير في كتبهم، مثلما فعل عماد الدين الأصفهاني في كتاب « قلائد العقيان في محاسن الأعيان »، فقد نقله كاملا في كتابه « خريدة القصر و جريدة العصر»، غيرّ فيه فقط الأسلوب في كتابة التراجم، أما عددها فهو ذاته و غيرها من الكتب المشرقية المختلفة التي تناولت الأندلسيين.

عمت الظاهرة جميع ربوع الأندلس، و جميع قرونها بدءا من القرن الثاني للهجرة عندما بدأ الحكم العربي يفرض سيطرته على المنطقة، إلا أن الظاهرة لم تنل حقها الفعلي من الدراسة، و أكثر ما درس في الأدب الأندلسي كان شعره، و فلسفته و مجالس لهوه، و غنائه، مبتعدين عن البحث في محتويات المصنفات الأكثر انتشارا في البلاد، ربما بسبب تناولها لموضوع التعريف بالأعلام المشهورين داخل القطر و خارجه فأعرضوا عن العودة لمثل كتب تاريخ الأدب و التراجم، إضافة إلى أسباب أخرى، لم تلغ الإنتاج الكمي و المعرفي الضخم، و الواسع الذيوع، المتنوع في المناهج، و المعارف و حفظت العديد من الآثار الشعرية و الأدبية.

و تبقى فترة القرنيين الرابع و الخامس عبارة عن مرحلة أولى توالت بعدها قرون أخرى و أعلام آخرين، و كتبت كتب أخرى في ذات الموضوع منها ما سارت على نفس المنهج، و منها من توسعت لديه الرؤيا فنهج سبلا أخرى، ما يجعل مجال دراستها مفتوحا في المستقبل، فهو لا يزال بكرا، و يتطلب جهدا أكثر جدية لأجل إخراج ما في مصنفاته من إبداعات خاصة في مجال الشعر فهي تظهر قطعا، و قصائد شعرية، لم توجد في غيرها مثل قصيدة ابن زيدون السينية، و التي لم نعثر عليها إلا في كتاب قلائد العقيان.

منح قطر الأندلس دائما خيرا وافرًا فهو الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه و سلم: **« لا يزال أهل الغرب ظاهرين (على الحق) حتى تقوم الساعة »**

و رغم أن الحديث جاء على العموم إلا أن البلاد بالفعل جاءت في الغرب و لا يحدها إلا البحر و لا يوجد مسلك بعده، و من فضائلها أنه لم يذكر أحد من السلف على منا برها إلا بخير.

قائمة المراجع

المصادر و المراجع:

1. القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع، عن طريق أبي يعقوب الأزرق.
2. ابراهيم الحصري (أبي إسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني)، زهر الآداب و ثمر الألباب، ج 1، ط 1، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2001.
3. إحسان عباس، فن السيرة، ط 1، دار صادر، بيروت-لبنان، دار المشرق، عمان-الأردن، 1996.
4. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين، ط 8، دار الثقافة، بيروت، دت.
5. أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة الضبي، بغية الملتمس، ط 1، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت،2005.
6. أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج 3-4، ط 5، دار الكتاب العربي بيروت، 1969.
7. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 2، ط 7، مكتبة النهضة المصرية، مصر، (دت).
8. ابن الأبار، صلة الصلة، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 2003.
9. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري لشرح صحيح البخاري، كتاب الجهاد، مج 6، دار التقوى للتراث، (دت).
10. ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 1، مج 1، دار الثقافة، بيروت- لبنان، 1997.
11. ابن بشكوال، الصلة، ط 1، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 2003.
12. تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، ط 1، المؤسسة العربية للطباعة و النشر، بيروت، 2002.
13. جنثالث جالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، ط 1، القاهرة، (د.ت).
14. الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي)، جذوة المقتبس، المكتبة العصرية، بيروت،2004.
15. الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي) سير أعلام النبلاء، تح: صلاح الدين المنجد، ج 1، دار المعارف القاهرة، (د.ت).
16. ابن رشيق (الحسن بن رشيق الأزدي المسيلي)، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح: محمد العروسي المطوي، بشير بكوش، ط 2، دار المغرب الإسلامي، 1991.
17. رافائيل نخلة اليسوعي، غرائب اللغة العربية،ط 2، المطبعة الكاثوليكية، بيروت-لبنان، (د.ت).
18. الزبيدي (محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتض الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي)، تاج العروس في جواهر القاموس، تح: علي بشري، مج 1، دار الفكر، دمشق، (د.ت).
19. ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، تح: شوقي ضيف، ج 2، ط 1، دار المعارف المصرية، القاهرة 1966.

20. شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الآثار الأندلسية، منشورات مكتبة دار الحياة،بيروت- لبنان،(د.ت).
21. أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، الديوان، تح: محمد المرزوقي، ط 1، دار سلامة، تونس 1987.
22. طه عبد المقصود الحضارة الإسلامية، مج 1-2، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2004.
23. عبد الله ابراهيم، موسوعة السرد العربي، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت- لبنان، 2005.
24. عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب، ط 1، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، تطوان- المغرب، 1999.
25. عبد الله شريط، تاريخ الثقافة و الأدب في المشرق و المغرب، ط 3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
26. عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب المطبعة الكاثوليكية بيروت – لبنان (دت).
27. عبد الستار الحلوجي، مدخل لدراسة المراجع، ط 1، دار الثقافة، القاهرة، 1974.
28. عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي، ط 1، دار النهضة مصر، 1976.
29. عز الدين إسماعيل، الأدب و فنونه دراسة و نقد، دار النشر المصرية، مصر، (د.ت).
30. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و الغرب، تح: ج س كولان و ليفي بروفنسال،ج 1، ط 2، دار الثقافة، بيروت- لبنان، 1966.
31. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2000.
32. العماد الأصفهاني الكاتب، خريدة القصر و جريدة العصر، ج 3، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972.
33. علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي و كتاب الذخيرة، ط 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
34. أبو الفلاح بن العماد الحنبلي (أبو الفلاح بن عبد الحميد بن العماد الحنبلي)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج 1، المكتبة التجارية، بيروت- لبنان، (د.ت).
35. ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي)، تاريخ علماء الأندلس، ج 1، ط 2، مكتبة الخارجي، 1988.
36. الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، تح: محمد العنابي، ط 1، نشر المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
37. فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، تر: محمود فهمي حجازي، و أبو الفضل، ج 1، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977.

38. الفيروز آبادي (مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي)، القاموس المحيط، مج 4، ط 1، بيروت- لبنان،1983.
39. القاضي عياض (أبو الفضل عياض موسى بن عياض اليحصبي السبتي)، ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود، مج 1-4، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، (د.ت).
40. قسطنطين رزيق، نحن و التاريخ، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، 1963.
41. محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، تح: أحمد ابراهيم، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2001.
42. محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تح: محمد ديب البغا، دار الهدى للطباعة و النشر، الجزائر،(دت).
43. محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبري، تح: علي محمد عمر، ط 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001.
44. المقري (أحمد بن محمد المقري التلمساني)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، مج 3-4، ط 1، دار صادر، بيروت، 1988.
45. المتنبي، الديوان، تح: ناصف اليازجي، ج 1، دار الصادر، دار بيروت، بيروت- لبنان،1964.
46. أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط 2، مطبعة السعادة، القاهرة- مص، 1956.
47. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي)، لسان العرب، مج 1، ط 1 دار صادر، بيروت- لبنان، 1997.
48. محمد عبد الغني حسن، فن التراجم و السير، ط 3، دار المعارف، القاهرة- مصر، (د.ت).
49. محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1978.
50. منى يوسف الزياني خليفة، مصادر تراثية، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، (د-ت).
51. نخبة من المؤلفين، المنجد في اللغة و الأعلام، ط 39، دار المشرق، بيروت- لبنان، 2002.
52. ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي)، معجم الأدباء، مج 2-6، دار صادر، بيروت- لبنان، 1988.
53. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 2، ط 1، مؤسسة المعارف، بيروت- لبنان، 1999.
54. يوسف حسين بكار، قراءات نقدية، ط 1، دار الأندلس، بيروت- لبنان.

55. يوسف الطويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، دار الفكر اللبناني، بيروت- لبنان، 1991.

المجلات و الرسائل:

1.سلمى الحفار الكزبري، ربع مفردات اللغة الإسبانية من أصول عربية، العربي، عدد 530، يناير 2003.

2.ويكيبيديا الموسوعة الحرة، www.google.com.

3.نبيل سليمان، السردية السيرية، جريدة الزمان، العدد 1704، 08/01/2004، www.google.com.

فهرس
الموضوعات

الفهرس